الهول

أحمد خالد توفيق



لمزيد من المعلومات عن الكرمة للنشر والتوزيع: www.facebook.com/alkarmabooks

توفيق، أحمد خالد.
الهول / أحمد خالد توفيق – القاهرة: الكرمة للنشر والتوزيع، ٢٠١٤.
٢٤٨ ص؛ ٢٠ سم.
تدمك: 9789776467064
١ـ القصص العربية القصيرة.
أ – العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٧٧٤٢ / ٢٠١٤

٢٤٦٨١٠٩٧٥٣١

تصميم الغلاف: أحمد مراد

المحتويات

زوزانكا

راح القس يُهدِّئ الواقفين.. كلمات كهذه لا تُقال لأم تقف أمام جثة ابنتها.. إن الناس يتصرفون بقسوة عندما يتعلق الأمر بمصّاصي الدماء.. هل قال «مصّاصي دماء»؟ نعم.. فهو في قرارة نفسه كان يدرك أن هذه هي الحقيقة على الأرجح.

على كل حال هو لا يرى مانعًا من ملء فمها بالثوم ووضع قطعتي العملة.. سيتم هذا سرًّا ولن تراه الأم لأنه سيتم قبل نزول التابوت.

يقع البيت في شارع «جايزكالنس».. يمكنك أن ترى نهر «جاوجا» على بُعد أمتار.

ليس شارعًا بالضبط.. بل هو طريق مرصوف بالحجارة الصغيرة على غرار شوارع كثيرة في «لاتفيا».

المكان والوجوه والجو العام يُذكِّرك بالحرب العالمية الثانية، حتى تتوقع أن ترى دبابات «البانزر» الألمانية تبرز لك عند خط الأفق.

الوجوه كالحة والابتسامة نادرة.. هناك جو عام من الخشونة وافتقار لروح الدعابة، لكن لا ننكر أن النساء فاتنات.. يخيل إليَّ أحيانًا أن الصورة المُثلى للنساء خُلقت هنا، ثم ارتحل بعضهن للشرق فاصفر لونهن، وارتحل بعضهن إلى أفريقيا حيث أحرقت الشمس بشرتهن فاسودَّت، بعضهن رحلن إلى أوروبا فازددن شحوبًا، المهم أن الأنثى الحقيقية الجديرة بالمعاجم تعيش هنا.

عند مدخل الدار، يمكنك ساعة الغروب أن ترى العجوز «هيلموتس بولوديس» يجلس على كرسيه الهزَّاز، وهو يتسلى

بالسكين التي يحفر بها قطعة من الخشب.. يمكنك أن تدرك من شحوب وجهه أنه لا يخرج كثيرًا. الحاجبان الكثان والعينان الغائرتان.

«هيلموتس» ليس ودودًا على الإطلاق.. ليس له أصدقاء ولا يُرحِّب بالزوّار، لكنه يصنع نبيذًا جيدًا في قبو داره، ويبدو أن هذا هو دخله الوحيد.

سوف ترى من بعيد زوجته «فانيا» وهي تحمل طبقًا مليئًا بالحبوب وتتجه إلى الفناء الخلفي لتُطعم الدجاج.. عجوز تضع على رأسها إيشاربًا مُزركشًا.. يمكنك أن تعرف هذا الوجه على الفور لأنك تراه في الصور.

هناك ذلك الشاب الخشن طويل اللحية اسمه «ألكسيس»، ابن «هيلموتس» الأكبر.. إنه يقف مستندًا إلى الجدار ويدخن لفافة تبغ خبيثة الرائحة.. لا بد أن «لاتفيا» لا تُنتج تبغًا جيدًا.

الفتى النحيل الذي يحمل طعامًا للخنازير في الفناء الخلفي هو «جاتيس»، ابنه الأوسط.. شاب وسيم كما ترى، ويروق للفتيات كثيرًا.

هناك فتى مراهق يمشي في الشارع قاصدًا شراء خبز، إنه الابن الأصغر «آرتور».

أما الفتاة رائعة الجمال التي تظهر من حين لآخر فهي «ناتاليا»، ابنة الرجل.

إن الأسرة متماسكة جدًّا.. الشباب لهم بعض الأصدقاء، لكنهم أميل إلى الانطواء عامة.. هذه الأسرة تزرع وتربي معظم طعامها..

وعند المساء ربما يذهب اثنان من الإخوة في جولات غامضة، ربما قرب النهر، وربما في البنايات الخرِبة الواقعة على بُعد.

لا أحد يعرف من أين يأتي دخل أسرة «هيلموتس بولوديس» العجوز، لكنهم كانوا هنا دومًا وسوف يبقون.

في الحقيقة، لا يحب معظم القرويين هذه الأسرة.. السبب هو التطيُّر طبعًا.. لكن القس قال لهم إنه لا ذنب لهؤلاء الأبرياء.

عندما مات أخو «بولوديس» العجوز، عم الأولاد، بعد أيام حدث فيضان واضطر الناس لفتح المقابر لإخراج التوابيت.. ما حدث هو أنهم وجدوا جثة العم وقد فُتحت ساقها.. هناك قدم تستقر في ركن التابوت.. هم يعرفون يقينًا أنهم لم يدفنوها بهذا الشكل.

القرويون تذكَّروا خرافاتهم، وتذكروا أن العم كان السابع في سلسلة إخوته الذكور.. وهكذا ازدادوا قلقًا، فلم يطمئنوا إلا عندما وضعوا قطعتين من الفضة على عيني الميت وحشوا فمه بالثوم.

المشكلة في هذه البلدان أن الصراع بين الكاثوليكية والأرثوذكسية كان عنيفًا، وهنا برزت مشكلة الجثث التي لا تتعفن تحت الثلج.. أتباع أحد المذاهب زعم أن الجثث لم تتعفن لأن أصحابها قديسون.. المذهب الآخر زعم أنهم لم يتعفنوا لأنهم مصّاصو دماء!

لكننا لسنا في زمن حرق الساحرات، لهذا لم يحدث شيء للأسرة.. لم يصل الخبال بأحد أن يفترض أنهم مصّاصو دماء، لكن كان هناك جو من عدم الاستلطاف.

لنفس السبب لم يتقدم أي شاب للحسناء «ناتاليا».. لا أحد يريد

التورُّط بدخول هذه الأسرة. لكن بالطبع حاول الكثيرُ من الشُّبان أن يعبثوا، لكنهم تلقوا علقة ساخنة من أخيها الخشن «ألكسيس».. إنه يمسك بالشاب فيُجندله ويحلق أهدابه وحاجبيه.. يمكنك عند الصباح أن تدرك أن هذا شاب تحرش بـ«ناتاليا»..

هكذا تمضي الحياة بلا تغيُّرات.

إلى أن ظهرت «زوزانكا».

«زوزانكا» اسم مُحبب في «لاتفيا» كما لا بد أنك تعرف، وهو تنويع على اسم «سوزانا».. كان الجميع يُعجبون بـ«زوزانكا».

هي فتاة رقيقة لعوب قليلًا وشديدة الذكاء.. إن أمها فخور بها، لكنها قلقة عليها من «دونجوانات» البلدة.. ولكن «زوزانكا» «يقود خطاها غرور الصبا»، وتعتقد أنها قادرة على أي خطر وأي شخص.

الكل يُحب «زوزانكا» ويتودد إليها، خصوصًا عندما تمشي في سوق السمك متبخترة، وتسمع موسيقى تنبعث من مذياع ما، فتأتي بحركات راقصة خفيفة رشيقة، عندها يجن الشباب.

«زوزانكا» صاحبة العينين العميقتين.

«زوزانكا» ذات القدمين الدقيقتين.

غرور الصبا والثقة بالنفس يقودانها، لهذا في تلك الليلة السوداء عادت من عند صديقتها «ليلى إزرجاليس» في ساعة متأخرة، ولأنها مغرورة فضَّلت أن تمشي عبر الغابة التي تقع خلف البنايات، وهي منطقة لا يجرؤ شاب على المُضي فيها ليلًا.

لا تعرف متى ولا كيف شعرت بأن هناك من يقفو أثرها.. جدَّت في المشي، ثم أدركت أن شابين يتبعانها في إصرار، التفتت للخلف

فرأت الشابين «أندريه» و«ميخيلس».. هما مُعجبان بها جدًّا، وقد أدركت أن وجودهما هنا في الظلام ليس بريئًا.

أطلقت بعض السباب، والسباب صار صراخًا ثم استغاثة صريحة، وقد أدركت ما ينويان.. خارت قواها.. لقد تصرَّفت بحماقة فعلًا.. إنهما ثملان تمامًا.

المشكلة في هذا الظلام أنك لا ترى شيئًا تقريبًا، وهم بعيدون عن أسماع الناس.

لا تعرف متى ولا كيف وجدت الشاب الأول يطير في الهواء، ارتطم ببعض الأشجار ثم سقط، ثم رأت الشاب الثاني يرتفع من عنقه ليسنده حامله إلى جذع شجرة، وكان الشاب مذعورًا توشك عيناه على مغادرة المحجرين.

سمعت مَن يقول في الظلام:

ـ أنزلني يا «جاتيس».. أنا أختنق.

ثم سمعت صوت «جاتيس» الشاب، ابن «هيلموتس» الأوسط، يقول:

ـ بوسعي أن أفتك بك يا وغد، ولن أدفع لأهلك دية!

ثم تركه يسقط أرضًا ووجه له ركلة أخيرة.

لم تُصدِّق ما حدث، ولا المعجزة التي أنقذتها.. بالنسبة إليها كادت ترى لـ«جاتيس» جناحي ملاك، ولا تعرف كيف تركت يدها الصغيرة تنام كعصفور صغير في كفه وهو يقودها خارج تلك الغابة، إلى حيث بيتها.

كانت هذه هي البذرة الأولى التي زرعت الحب في قلب «زوزانكا».

لم تستطع قَطُّ أن تنسى هذه الليلة، وكيف حط كالنسر على الفأرين اللذين تحرَّشا بها.

لم تسأل نفسها عن سبب تواجده في الغابة في تلك الليلة.. لم تسأل نفسها عن الكيفية التي رأى بها في الظلام الدامس ولا كيف سمع صرختها.. لم تسأل نفسها عن القوة الكاسحة التي قهر بها شابين ضخمين.

كان على «زوزانكا» أن تتعلَّم الكثير.

* * *

شجرة الصفصاف شهدت على قصة الحب الوليدة.. نقش قلب لا بد حُفر بسكين، ولا بد أنه وجد من قبل الكون.. «جاتيس» والعزف على «الهارمونيكا».. الليل الزاحف على الغابة، ولكنها تعرف أنها معه.. يكتب الحب كلماته الأولى على العشب.

«جاتيس» يطمئن على بذرة الحب الأولى، يسقيها بكلمات ليست كأي كلمات. هل أنت ساحر؟ من أين تأتي بعبارات كهذه؟ عبارات تُشعرها بأنها ملكة وملاك في آنٍ. ثم هاتان العينان.. اللعنة على هاتين العينين.. إنهما قادرتان على غزو قارات كاملة.. قادرتان على غزو الصين.. قادرتان على ترويض الذئاب في «التايجا».. فكيف لا تقدران على قلب امرأة غض؟

«زوزانكا» صاحبة العينين العميقتين.

«زوزانكا» ذات القدمين الدقيقتين.

«زوزانكا» قد وقعت في حب «جاتيس» ابن «هيلموتس».

وجاء اليوم الذي رأت فيه «زوزانكا» الفتى وقبعته في يده.. يقف

على بابها ويبتسم لأمها في خجل.. يقول إنه لا يقدر على العيش من غير «زوزانكا».. إنه يريد الزواج.

معه كانت أمه «فانيا» ترتدي ما خُيل إليها أنه ثياب أنيقة.. النتيجة أنها بدت كساحرة شريرة في قصة أطفال. كانت «زوزانكا» تعرف رأي أمها مقدمًا، وتعرف أنها لن توافق، لا أحد يرتاح لـ«آل بولوديس» في ضاحية «لاتجاليا» كلها.. لكن ما حدث كان شبيهًا بالمعجزات.. كأنها عصا الساحر.

كانت جلسة طويلة في دارها، وتناولوا الكعك والنبيذ.. وفي النهاية أدركت بمعجزة أن أمها موافقة على الزواج. صحيح أنها لا تقدر على الاستغناء عن «زوزانكا»، لكن هذه سُنة الحياة، والعريس لا يطلب دوطة.. لا يريد سوى «زوزانكا».. سوف تقيم الفتاة في بيت الأسرة.

* * *

كانت «زوزانكا» تتوقع أن يُسبب هذا مشاكل مع خالها وعمها اللذين جاءا ليحضرا المفاوضات، لكن لم يبدُ أن هذا يسبب لهما مشكلة.. كأن الغيوم انشقت وجاء الأمر العلوي: «زوزانكا» لـ«جاتيس»، فليوافق الجميع.

النشوة في عين «جاتيس».. الرضا في عين أمه.

تقول «فانيا» وهي تلتهم بعض الكعك:

ـ لم أفكر قَطُّ في تزويجه، لكن الفتى صار مجنونًا.. لا يريد سوى الزواج من «زوزانكا».

لا تدري إلا وقد أقيم حفل زفاف بسيط في المرج الخلفي

للكنيسة، وقد حضر عدد محدود من القوم لأن أحدًا لا يُحب هذه الأسرة.. من جاء جاء ليأكل.

على منضدة جلس «هيلموتس بولوديس» يقطع فخذًا من اللحم بالسكين، وهو مقطب كعادته.. هذا الرجل لا يضحك أبدًا كما تعرف، لم يُهنِّئ العروس ولم يقل لها شيئًا.

فقط عندما لم يكن هناك من ينظر إليها، دنا منها القس وقال همسًا:

ـ أتمنى لك زيجة سعيدة.. لكن أرجو أن تكوني حذرة.

لم تفهم.. ما المقصود بالحذر؟ فقال:

ـ لا تتدخلي في شيء.. لا تتدخلي فيما لا يعنيك.. الزوجة الفضولية مكروهة في كل الأوساط الاجتماعية وأنت ستقيمين معهم في دارهم.. الحقيقة أن لنا جميعًا أسئلتنا حول هذه الأسرة: لا نعرف من أين يكسبون، لماذا يعتزلون المجتمعات؟ قصة ذلك العم الذي تحركت قدمه إلى ركن التابوت.. بالطبع لن أُثير ذعرك لكنهم كذلك لا يذهبون للكنيسة أبدًا، إن غير المتدينين في كل مكان لكنني لا أثق بهم كما تعلمين.

هي سمعت كل كلمة، لكنها لم تصغِ.. أنت تعرف الفارق بين الإصغاء والسماع كما كانوا يعلموننا في المدرسة.

وهكذا دخلت «زوزانكا» بيت «آل بولوديس».

* * *

الأشخاص الذين يختفون هم من ضواحٍ بعيدة جدًا.. لم يكن أحد يعرف عنهم الكثير، وبدا الكلام عنهم غامضًا متحذلقًا.. عندما تختفي فتاة شابة حسناء فأنت تفكر أولًا في أنها هربت.. هربت مع

حبيب. عندما يختفي سكير مُسن فأنت تفكر في النهر.. هناك من يسقطون في النهر ولا يظهرون ثانية أبدًا.

لم تهتم «زوزانكا» كثيرًا بهذه القصص.

كانت غارقة في الحب وفي السعادة مع هذا الفتى الوسيم الظريف الذي صار لها.

كان رقيقًا وكان ودودًا، لكنها ظلت تشعر بأنها لم تخترق عالمه بعد، هناك منطقة مُحرمة لم تستطع أن تجتازها، وظلت تتساءل عما يوجد خلف هذه المنطقة.

كانت لهما غرفة صغيرة في ركن الدار، تطل على الفناء الخلفي حيث يمرح الدجاج والخنازير، وقد حرصت على أن تزين النافذة بالأزهار وتضع ورقًا ملونًا مزركشًا قامت بقصه.. المحاولة غير المكلفة لجعل الحياة أجمل.

كانت تخرج لتقف في الفناء الخلفي تداعب الدجاج أو تعابث قطة يتصادف أنها هناك.. بينما يطل «جاتيس» من النافذة الصغيرة عليها وقد أراح ذقنه على ساعديه القويين.

بعد لحظات تلحق بها «ناتاليا» وهي تحمل المزيد من طعام الدجاج.. «ناتاليا» جميلة جدًا لكنها منغلقة.. هل تحمل شيئًا من الحسد لأنه لا يوجد عرسان يطلبون يدها على الإطلاق؟ لديها نادٍ من المعجبين لكن لا يوجد خُطّاب.

حموها ليس ودودًا ولا تراه تقريبًا إلا وقت الغداء.. نفس الكلام ينطبق على «ألكسيس» الأخ الأكبر، إنه قريب جدًا من أبيه ولهما نفس الطباع الذئبية المتفردة.

كانت تعرف يقينًا أن «آرتور» و«ألكسيس» يخرجان ليلًا.

كانت تقف في الفناء ذات مرة والظلام دامس، فاستطاعت أن ترى الأخوين ينسلان خارج البيت، ثم أدركت أن هذا يتكرر كل ليلة.. إلى أين؟ لو كانا يلهوان ويعبثان لعرفت، ثم إن المرء لا يعربد بصحبة أخيه، على قدر علمي أنا، لم يفعل أحد هذا سوى ياسين وكمال بطلي ثلاثية نجيب محفوظ.

لم ترَ أحدًا يُصلي في البيت، لكن هناك غرفة صغيرة بها ما يشبه المحراب، وفيها صليب، أغرب صليب رأته في حياتها لأنه أقرب إلى حرف «T» المقلوب.. لا تذكر كذلك أنها رأت من يُصلي في هذا المحراب الضيق.

كانت تعرف كذلك أن هناك قبوًا.. هناك باب خشبي مغلق على الدوام، وعليه قفل غليظ، لكنها تعرف أن حماها يهبط في هذا القبو كثيرًا.

خطر لها أن الأسرة تصنع النبيذ، فلا بد أن الأب العجوز يقطر الخمور هناك، لا بد أن المشهد عبارة عن براميل عملاقة على الجانبين، لا بد من فئران كذلك.

هناك ملاحظة أخرى غريبة: هذه الأسرة لا تستعمل الثوم أبدًا.. هناك وصفات طعام «لاتفية» كثيرة تعتمد على الثوم بشدة لكنهم لا يستعملونه أبدًا.. ويقال إنهم مصابون بحساسية بالغة نحوه.

في الحقيقة كانت حياتها على ما يُرام، لا علاقة لها سوى بزوجها الحبيب، ولا أحد يضايقها من الأسرة.

ما كان أغناها عن محاولة الفهم، ما كان أغناها عن محاولة

التسلل للقبو، لكنك تعرف متلازمة الضحية الغبية التي تميز أفلام الرُّعب.

كان لا بد أن تفعل ذلك بعد حادث الفجر، وما رأته عندما عاد «آرتور» و«ألكسيس».

* * *

ظل سكان «لاتفيا» يمثلون حالة وحدهم بالنسبة إلى أوروبا كلها.. كانت أوروبا كلها تنبذ الوثنية وتعتنق المسيحية.. راحت حصون الوثنية تنهار أمام زحف الصليب.. وكانت المسيحية تضم لها معظم الأعياد الوثنية القديمة لتجعلها ذات طابع مسيحي.. تذكَّر أن «الهالوين» كان ليلة لجميع الشياطين فصار ليلة جميع القديسين، و«بان» إله المراعي الذي يشبه التيس حوَّلته المسيحية إلى الشيطان كما نتخيله ونراه في الرسوم.. لكن المبشرين الذين وصلوا عبر النهر إلى «لاتفيا» كانت أمامهم مهمة شاقة جدًّا.. لم يكن أهل «لاتفيا» مستعدين لقبول المسيحية بسهولة، احتاج الأمر إلى جيش من الصليبيين الألمان ليرغموا اللاتفيين على اعتناق المسيحية.

تُرى هل اعتنقها الجميع حقًّا؟

* * *

هناك في حانة البلدة القريبة تمدَّد الجسد.

يقف حشد من الأهالي مطرقين وقد نزعوا قبعاتهم، وكانت هناك أكثر من امرأة عجوز تضرب صدرها بقبضتيها.. لقد كان المصاب فادحًا.

هناك على المنضدة تمددت الجثة.. جثة الشابة «إنجونا بروكا»..

تبدو مثل حورية ماء ماتت وقذفها المد على الشط.. صورة للجمال النائم.. يصعب أن تصدق أنها ميتة، والأسوأ أن ترى كيف تمزق عنقها بشراسة.

هذه المرة لم تختفِ الفتاة تاركة وراءها عشرات الأسئلة، مع إشاعات عن فرارها مع شاب وسيم.. هذه المرة لم تختفِ.. هذه المرة وجدها صبية يلعبون تحت الجسر قرب النهر، لو لم يجدوها لقالوا إنه اختفاء غامض آخر.

قال «القومسيير» وهو يصفق بيديه:

ـ هلم.. لا أحد يقف هناك سوى أقاربها.. هذا ليس سيركًا.

لكن أحدًا لم يبتعد، ودنا منه «فكتورس ألكسنيس» ووضع يده الغليظة القوية على كتفه كأنه يداعب طفلًا، وقال وهو يرسم على وجهه ضحكة صفراء:

ـ عزيزي «القومسيير»، ألم تفهم بعد؟ هذه الجثة تدل على أن مخاوفنا حقيقية.. لسنا مجموعة من البلهاء المتطيرين.

رسم القس علامة الصليب، وقال:

ـ هناك تفسير منطقي يا «فكتورس».. ليس الأمر كما تظن.. هذه خزعبلات.

قال «فكتورس»:

ـ هناك مصَّاص دماء يا أبت.. مَن اختفوا قتلهم مصَّاص دماء.. لقد أشرقت شمس الحقيقة فلم يرها الحمقى والعميان.. عنق الفتاة ممزق بوضوح.

ثم صاح بلهجة آمرة:

ـ عندما ندفن هذه الفتاة، فعلينا أن نتيقن أنها لن تنهض ثانية لتفتك بأطفالنا.. سنحشو فمها بالثوم ونضع عُملتين فضيتين على عينيها.

قال رجل مُسن من الواقفين:

ـ كنا في زمني نقطع الرأس ونغرس وتدًا في الصدر!

هنا انقضت عليه امرأة مسنة ترتدي السواد، فوجهت له لكمة قوية في صدره، ثم صاحت كأنها نمر مفترس:

ـ فليدن أحدكم من ابنتي ولسوف أنتزع قلبه بأظفاري!

راح القس يُهدِّئ الواقفين.. كلمات كهذه لا تُقال لأم تقف أمام جثة ابنتها.. إن الناس يتصرفون بقسوة عندما يتعلق الأمر بمصَّاصي الدماء.. هل قال «مصَّاصي دماء»؟ نعم.. فهو في قرارة نفسه كان يدرك أن هذه هي الحقيقة على الأرجح.

على كل حال هو لا يرى مانعًا من ملء فمها بالثوم ووضع قطعتي العملة.. سيتم هذا سرًّا ولن تراه الأم لأنه سيتم قبل نزول التابوت.

المشكلة الأخرى هي أنه صار على يقين من وجود مصَّاص دماء، وهذا المسخ سوف يجلب الوباء للمنطقة. كانت لديه نسخة من كتاب «مصَّاص الدماء: أصله وفصله» الذي كتبه «مونتاج سومرز» عام ١٩٢٨، وهو مترجم للغة يستطيع قراءتها.. كان يؤمن أنه كلام فارغ، لكنه اليوم يريد أن يطالعه من جديد.

* * *

كان «جاتيس» نائمًا يغط، وكان الطقس خانقًا.

شعرت «زوزانكا» بأنها عاجزة عن النوم.. نهضت واتجهت إلى

خارج البيت واستندت على الشرفة التي تُطل على الشارع حيث يجلس «هيلموتس بولودبس» وقت الغروب.. الآن ترى أن الظلام دامس وهي لا ترى شيئًا تقريبًا.. بدا الفجر يقترب، وتلوّن الأفق الشرقي بلون أزرق كأنه حبر سكبه أحدهم في إناء ماء.. بدأ اللون يتزايد.. سمعت أكثر من ديك يصيح من بعيد.. شعرت بقشعريرة.. يجب أن تعود الآن.

هنا رأت شبحين قادمين من بعيد.. أدركت على الفور أنهما «آرتور» و«ألكسيس».. يمشيان ببطء شديد، فما السبب؟ أمعنت النظر فأدركت أنهما يحملان شيئًا ثقيلًا.. هرعت إلى داخل البيت وتوارت أسفل السلم لتراقب.. من هنا كانت تَرى ولا تُرى.. سمعت أنفاس ولهاث الرجلين وهما يحملان هذا الشيء.. دققت النظر أكثر فرأت أنه شيء ضخم، أقرب إلى جسد.. لا تستطيع التدقيق في الضوء الشاحب.

ـ تعال يا «ألكسي».. ساعدني.

يتقدمان نحو باب القبو الخشبي، يفتحانه ثم يدلفان للداخل.. بعد قليل رأتهما يغادران المكان.. هل هذا دم على وجه «آرتور»؟ نعم هو كذلك، وهو ليس دمه كذلك.

إنهما يرحلان.. يقصدان غرفتهما في مؤخرة الدار.

عندما عادت إلى زوجها النائم كان رأسها يعج بالأسئلة.. هناك سر يحيط بهذه الأسرة، والمصيبة أنها صارت جزءًا منها.. هل يحق لها أن تعرف؟ قال لها القس يوم زواجها: «لا تتدخلي في شيء، لا تتدخلي فيما لا يعنيك.. الزوجة الفضولية مكروهة في كل الأوساط

الاجتماعية وأنت ستقيمين معهم في دارهم».. لم تدرِ كم أن هذا الكلام دقيق إلا اليوم.

وهكذا اتخذت قرارها.. سوف تدخل القبو.. يجب أن تعرف.

لا تفعلي يا «زوزانكا».. أرجوك لا تتصرفي كالضحية الغبية في أفلام الرعب.. الضحية التي تتوغل في الغابة وحدها ليلًا، أو تفتح تابوت مصّاص الدماء بعد الغروب، أو تفتح الباب للمذؤوب الذي يدق الباب.

لكن القبو كان يطاردها في كل وقت.. يزور منامها.. يملأ أحلامها.

ذات مرة سألت «جاتيس» عما يوجد هناك، فقال متظاهرًا باللامبالاة:

ـ قبو؟ ماذا يوجد في قبو سوى رطوبة وعفن وفئران؟!

ـ وبراميل خمر؟

ـ نعم براميل خمر.

حتى الفئران غير موجودة.. يبدو هذا غريبًا.. كانت تعتقد أن القبو يعج بالفئران، ثم فطنت إلى أنه لا توجد فئران في البيت.. الفئران مخيفة لكن عدم وجودها مخيف أكثر.

«جاتيس» غيَّر الموضوع وأغلقه بألف مفتاح. لم يعد الكلام واردًا.

* * *

جاءت الفرصة بسرعة غير متوقعة.

لقد جاء صبي مذعورٌ إلى البيت يخبر الأسرة أن «ناتاليا» قد سقطت قرب النهر وكُسرت ساقها.. دبت الفوضى، واندفع «آرتور» و«ألكسيس» وراء الصبي نحو بيت الطبيب.. هرعت الأم مع زوجها

الذي لا يغادر الدار أبدًا.. لم يكن «جاتيس» في البيت وقتها، الجمع انطلق ليطمئن على الفتاة.

هكذا أدركت «زوزانكا» الحقيقة المروعة الرائعة.. هي في البيت وحدها.. يمكنها أن تتسلل إلى القبو.

قلبها يخفق كطبل.

لكن كيف تفتح الباب الخشبي اللعين؟

تتذكر «زوزانكا» أن هناك مجموعة من المفاتيح في المطبخ معلقة إلى مسمار، هناك فوق الموقد.. مفاتيح غليظة كثيبة صدئة تعيد إلى ذهنك كوابيس قديمة عن ذي اللحية الزرقاء والغولة... إلخ.

يجب أن تتصرف بسرعة.

هرعت إلى المطبخ، وتناولت مجموعة المفاتيح تلك والتي رُبطت بحبل.. ثقيلة غليظة.. تُرى أيها المفتاح المقصود؟ من المؤكد أن «ألكسيس» معه نسخة أخرى، لا تعرف إن كانت هناك نسخة مع «جاتيس» زوجها، لقد فتشت غرفة النوم بعناية.

تهرع إلى القبو وتولج المفتاح الأول في الثقب.. كروك! لا يفتح.

تجرب المفتاح الثاني، ثم تذكرت لعبة النحس القديمة: لا بد أن آخر مفتاح هو الصحيح! انتقت آخر مفتاح وأولجته في القفل.. بالطبع لم يفتح، لسبب بسيط هو أن آخر مفتاح صار هو الأول!

في النهاية وبعد محاولات مرهقة انفتح الباب.

باب خشبي عتيق هو، مناسب هو جدًّا للرُّعب، كانت تحمل في يدها فانوسًا صغيرًا له ضوء خافت مقبض.. هناك درجات تهبط لأسفل.

في حذر تخطو، تسمع صرير الدرجات، دائرة ضوء تتحرك. السقف فيه وطاويط، لا شك في هذا.. المشهد البشع الذي يُذكِّرك بفئران مجنحة معلَّقة من أعلى.. هذا طبيعي.. مكان كئيب كهذا لا بد أن يحوي الوطاويط.. الفئران مخيفة لكنها أقرب إلى عالم الأحياء.. عندما يجري الفأر على قدم المرأة تصرخ وترفع ثوبها ثم تثب على أقرب مقعد، هذا شيء طبيعي، شيء دنيوي، أما الوطاويط فهي تجعل الدم يتجمد في عروقك فلا تجرؤ على الصراخ ذاته.

برغم هذا واصلت «زوزانكا» الباسلة المشي.. كانت هناك براميل عدة على الجانبين.. فعلًا هذا مكان لتقطير الخمور وتعتيقها.. هناك مخزون من البصل واللحم المقدد، وكالعادة لا يوجد ثوم.

هذا الصوت؟ هل يكونون قد عادوا؟ إن النهر قريب على كل حال، لكنك لا تستطيع أن تذهب هناك وتحمل فتاة كُسرت ساقها ثم تعود بهذه السرعة.

لا تستطيع تخيل ما قد يحدث لو عادوا ورأوها.. زوجة الابن في قدس الأقداس.. القبو حيث لا يدخل أحد.

إن الباب السري هناك على الأرض، باب صُنع من خشب عتيق وله مقبض، وسطَ الخشب الذي كُسيت به الأرض كانت رؤيته عسيرة، لكنها استطاعت ذلك.. السبب أنها توقعت وجوده.. السر لم ينتهِ هنا.. الأمور ليست بهذه البساطة والسطحية.. لا بد من باب سري وقد وجدته.

* * *

الأطفال هم الذين وجدوا الجثة كالعادة.

دائمًا هناك كُرة، ودائمًا ما تهرب الكُرة إلى ركن يصعب الوصول إليه: حفرة، منخفض، خلف شجرة، مجرى، جدول.. يركض أحد الصبية ليجلب الكرة فيجد الجثة الممزقة التي بدأت تتحلل ونهشت منها الذئاب أو الكلاب أجزاء.. لا بد أن يصرخ.. لا بد أن يلحق به الآخرون.. ثم يركض الجميع مذعورين إلى «فكتورس ألكسنيس» الذي يعرفون لسبب ما أنه مهتم بهذه الجثث.

«فكتورس ألكسنيس» أدرك الخطر.. للمرة الثانية يجد الصبية جثة ممزقة.. يمكن الآن القول باطمئنان إن من اختفوا من البلدة من قبل لاقوا نفس المصير.

وعندما ركع إلى جوار الجثة وتفحصها جيدًا أدرك أن العنق ممزق، ليس بفعل الذئاب ولكن قبل هذا بكثير.. هذه جثة فتاة بائسة اسمها «روتانيا ألدا».. طلب مجيء القس والتف الرجال حول الجثة وقد جعلهم الذعر والغضب كيانًا وحشيًا كاسحًا لا عقل له.. وحشًا أسطوريًا من الأساطير الإغريقية.

مصّاص دماء.. هناك مصّاص دماء.

أشعل «فكتورس ألكسنيس» لفافة تبغ خبيثة الرائحة وتأمل الوجوه، ثم قال:

ـ أنتم تعرفون مَن.

القس تساءل في دهشة:

ـ فعلًا مَن؟

ـ أنت تعرف يا أبت أننا نتكلم عن العجوز «هيلموتس بولوديس» وامرأته «فانيا» وأولاده.

هذا لا يُطاق، الوثب إلى استنتاجات غبية بهذا الشكل.

لكن الواقفين تذكَّروا أشياء كثيرة: أسرة غريبة الأطوار.. أسرة لا يعرف أحد مصدر دخلها.. أسرة لا تذهب للكنيسة أبدًا، ولم يرَ أحد عائلها في النهار.. العم الذي كان سابع إخوته الذكور، وساقه المفتوحة تستقر في ركن التابوت.

الشابان «أندريه» و«ميخيلس» كانا واقفين هنا، وقد حكيا قصة ملفقة عن «جاتيس» ابن الأسرة الأوسط: لقد كان يتحرَّش بفتاة فدافعا عنها، لكنه حطمهما بقوة جديرة بالشياطين، لقد طار الرجلان في الهواء كأن إبليس نفسه وجه لكل منهما ركلة.

كان هذا كافيًا كي يزداد جنون القوم.

كان القس ينهزم ببطء.. منذ قليل كان ينكر وجود مصّاص دماء، ثم قبل هذا.. الآن ينكر أن مصّاص الدماء من «آل بولوديس»، ثم سوف يعترف بهذا.. لن يمر وقت طويل حتى يطالب الرجال بحرق بيت تلك الأسرة.

كان الغضب في العيون، والنفوس تتوهج مثل المشاعل بالضبط.. عندما يتكلم هياج الجماهير يخرس العقل.. المجد للانتقام والموت.

وقال «فكتورس ألكسنيس» وهو يخاطب الواقفين:

ـ سوف نقتحم دارهم الليلة.. سوف نتبين الحقيقة.. لن نفعل أي شيء قبل أن نتبين الحقيقة.

فارتفعت غمغمات الاستحسان.

* * *

هذا لا يُطاق، الوثب إلى استنتاجات غبية بهذا الشكل.

لكن الواقفين تذكَّروا أشياء كثيرة: أسرة غريبة الأطوار.. أسرة لا يعرف أحد مصدر دخلها.. أسرة لا تذهب للكنيسة أبدًا، ولم يرَ أحد عائلها في النهار.. العم الذي كان سابع إخوته الذكور، وساقه المفتوحة تستقر في ركن التابوت.

الشابان «أندريه» و«ميخيلس» كانا واقفين هنا، وقد حكيا قصة ملفقة عن «جاتيس» ابن الأسرة الأوسط: لقد كان يتحرَّش بفتاة فدافعا عنها، لكنه حطمهما بقوة جديرة بالشياطين، لقد طار الرجلان في الهواء كأن إبليس نفسه وجه لكل منهما ركلة.

كان هذا كافيًا كي يزداد جنون القوم.

كان القس ينهزم ببطء.. منذ قليل كان ينكر وجود مصّاص دماء، ثم قبِل هذا.. الآن ينكر أن مصّاص الدماء من «آل بولوديس»، ثم سوف يعترف بهذا.. لن يمر وقت طويل حتى يطالب الرجال بحرق بيت تلك الأسرة.

كان الغضب في العيون، والنفوس تتوهج مثل المشاعل بالضبط.. عندما يتكلم هياج الجماهير يخرس العقل.. المجد للانتقام والموت.

وقال «فكتورس ألكسنيس» وهو يخاطب الواقفين:

ـ سوف نقتحم دارهم الليلة.. سوف نتبين الحقيقة.. لن نفعل أي شيء قبل أن نتبين الحقيقة.

فارتفعت غمغمات الاستحسان.

* * *

استمر هبوطها في الدرج المصنوع من صخور متآكلة.

على ضوء المصباح تدرك أنها تدخل مكانًا لا قبل لها به.. قلبها يخفق بلا توقف.

ترى الآن نهاية الممر.. شيئًا يشبه الكهف.. إنها بالفعل على حافة كهف.. المشكلة هنا أن هناك إضاءة غريبة غامضة تغمر المكان.. من أين تأتي؟ هي بالتأكيد تحت الأرض.. لا شك في هذا.

دنت أكثر من الفتحة ونظرت.

هناك قاعة فسيحة.. وهناك توابيت متراصة على الجانبين.. إضاءة غامضة تأتي من موضع ما.. إنها مقبرة.. مقبرة منسية.

على قدر ما تعرف هي ليست في مقبرة البلدة.. المسافة التي قطعتها لا تسمح بأن تكون في مقبرة البلدة.

ركلت حجرًا بقدمها فلاحظت أنه طار لمسافة غير عادية، ثم غيَّر اتجاهه في الهواء وعاد إلى جانب.. مدت يدها تلتقطه وقذفته إلى الأرض ثانية.. هنا وجدته يحلق نحو السقف.. كأن الجاذبية تأتي من أعلى لا من الأرض.

هذا المكان يتصرف بقواعد فيزيائية خاصة به.. لا توجد قواعد باختصار شديد.

يجب أن تعرف أكثر.

لكن الوقت الآن لا يسمح إلا بأن تعود أدراجها.. يكفي هذا.. لقد جاملها الحظ أكثر من اللازم ولا يمكن أن تجازف أكثر.

هكذا هرعت إلى الدرج من جديد.. رباه! لم تعرف من قبل أن قدميها من المكرونة المسلوقة، وأن قلبها واهن بهذا الشكل.

استمر هبوطها في الدرج المصنوع من صخور متآكلة.
على ضوء المصباح تدرك أنها تدخل مكانًا لا قبل لها به.. قلبها يخفق بلا توقف.
ترى الآن نهاية الممر.. شيئًا يشبه الكهف.. إنها بالفعل على حافة كهف.. المشكلة هنا أن هناك إضاءة غريبة غامضة تغمر المكان.. من أين تأتي؟ هي بالتأكيد تحت الأرض.. لا شك في هذا.
دنت أكثر من الفتحة ونظرت.
هناك قاعة فسيحة.. وهناك توابيت متراصة على الجانبين.. إضاءة غامضة تأتي من موضع ما.. إنها مقبرة.. مقبرة منسية.
على قدر ما تعرف هي ليست في مقبرة البلدة.. المسافة التي قطعتها لا تسمح بأن تكون في مقبرة البلدة.
ركلت حجرًا بقدمها فلاحظت أنه طار لمسافة غير عادية، ثم غيَّر اتجاهه في الهواء وعاد إلى جانب.. مدت يدها تلتقطه وقذفته إلى الأرض ثانية.. هنا وجدته يحلق نحو السقف.. كأن الجاذبية تأتي من أعلى لا من الأرض.
هذا المكان يتصرف بقواعد فيزيائية خاصة به.. لا توجد قواعد باختصار شديد.
يجب أن تعرف أكثر.
لكن الوقت الآن لا يسمح إلا بأن تعود أدراجها.. يكفي هذا.. لقد جاملها الحظ أكثر من اللازم ولا يمكن أن تجازف أكثر.
هكذا هرعت إلى الدرج من جديد.. رباه! لم تعرف من قبل أن قدميها من المكرونة المسلوقة، وأن قلبها واهن بهذا الشكل.

صعود الدرج متعب فعلًا.. تجتاز الفتحة في أرض القبو وتعيد غلق الباب السِّري.
تهرع عبر القبو.. تلاحظ أشياء غريبة لم تلحظها من قبل.. أشياء مرعبة.. لكن لا وقت لأشرح لك، المهم الآن أن تخرج قبل أن...
تصعد الدرجات وتجتاز الباب الخشبي.
لا تجزعي.. لا تفقدي روعك.. يجب أن تعيدي المفاتيح للمطبخ ثم تجلسي في انتظار زوجك كأي زوجة صالحة لم تفتش قبو زوجها.
المفاتيح؟ أين هي؟ تركتها معلَّقة في الباب عندما دخلت.. لكن أين هي؟
ثم أدركت أنها ليست وحدها.
نظرت إلى الخلف فرأت حماها وزوجته و«ألكسيس» و«آرتور» وزوجها «جاتيس».. حتى «ناتاليا» كانت هناك مضمدة الساق تستند على كتف أخيها وتتوكأ على عكاز من غصن شجرة.
كلهم كانوا واقفين ينظرون إليها في صمت.. حتى عيونهم كانت صامتة.

* * *

متى عادوا؟
كيف لم تشعر بهم؟
كانت تتراجع بظهرها إلى الخلف وهي تدرك أنها قد فُضحت..
لا يوجد تفسير واضح سوى الفضول، وهم لن يصدقوا موضوع الفضول هذا.
كان حموها ينظر إليها نظرة نارية ثابتة: الوجه الشاحب، والعينان

الغائرتان كأنما لا وجود لهما، العينان اللتان تختلسان النظر من وراء حاجبين كثين.

«ألكسيس» هو الآخر كان يعقد ساعديه على صدره ويرمقها، وثمة شبه ابتسامة خافتة على شفتيه. و«جاتيس» كان ينظر إليها في حيرة، بينما ترمقها «ناتاليا» في توحُّش.

قال «هيلموتس بولوديس»:

ـ كان علينا أن نتوقع هذا.. عندما نغفل عن الثعلب يتسلل إلى الكرار.

وقالت زوجته «فانيا»:

ـ حسبناك صرت منا.. لكننا كنا مخطئين.

لا تعرف كيف وجدت «ألكسيس» يقف خلفها ويلوي ذراعها، فنظرت مستغيثة إلى «جاتيس»، لكنه تجاهل نظرتها كأنه يقول: هذا أقوى مني.. أنا آسف!

تساءل «ألكسيس» بصوته الغليظ:

ـ إلى أين يا أبت؟

قال «بولوديس»:

ـ غرفة الغسيل يا «ألكسي».

وكانت هي تعرف تلك الغرفة الضيقة.. تشبه الزنزانة فعلًا.. سوف تكون لحظات قاسية هناك.. لقد سقطت الأقنعة و«آل بولوديس» يعترفون أن لديهم سرًّا مروعًا.. والسبب في سجنها؟ لا بد أنها عرفت أكثر مما ينبغي أو هم يفترضون ذلك.. يجب أن تعرف أكثر.

هناك وجدت نفسها في الغرفة الرطبة المظلمة وسط أكوام الغسيل القذر وبرميل الماء وقطع الصابون، وشمعة، وسمعت الباب يوصد بالمفتاح.

جلست على كومة الغسيل وقررت أن تنتظر.

* * *

لم يتأخر الاقتحام قليلًا.

عند الثانية بعد منتصف الليل نبح كلب.. كلبان ثم تحول الشارع إلى بؤرة جنون.

كان الأهالي يحملون المشاعل ويقودون كلبين شرسين من مقوديهما، والموكب يتقدمه «فكتورس ألكسنيس».. وعلى باب الدار وقف الرجل الضخم ومن خلفه «أندريه» و«ميخيلس» وصاح مناديًا:

ـ «هيلموتس بولوديس».. بحق الرب اخرج وكلمنا.

تأخر رد الفعل قليلًا، ثم انفتح الباب وظهر «ألكسيس» وجواره «آرتور»، خلفهما رأى الرجال العجوز و«ناتاليا».

كان منظر الرجال يثير الذعر في النفوس، لكن «ألكسيس» من الطراز الذي لا يخاف، ولكن يغضب كما قلت لك، لذا لوح بشيء في يده.. كانت هذه بلطة.. بلطة صغيرة الحجم لكنها فعَّالة، وقال:

ـ هذا حشد من عشرين رجلًا يريدون انتهاك حرمة دارنا.. ولماذا؟ أنت تعرف يا «فكتورس» أن أسرتنا لن تسمح لِرجل غريبة بأن تخطو في دارها.

قال «فكتورس»:

ـ نحن لا نريد سوى إلقاء نظرة.. علامات استفهام عديدة تدور حول هذا البيت كما تعلم.

ـ ونحن لن نسمح لأحد بالدخول.

هنا دنا الرجال أكثر، وبدا واضحًا أنهم سيقتحمون المكان بقوة.. حرب العناد بين طرفين متصلبي الرأس.. طوح «ألكسيس» بالبلطة في الهواء وهو يصيح:

ـ يا حمقى.. لا نريد قتلى على عتبة دارنا.

لا نعرف ما حدث بالضبط.. هذه أمور يصعب أن تصفها بدقة.. يبدو أن البلطة هوت بشكل ما على رأس أحد الرجال الواقفين، وهو «ميخيلس» غالبًا، وهكذا سقط ميتًا.. وفي اللحظة التالية دب الجنون في الواقفين الذين اشتعلت نفوسهم أصلًا كالمشاعل التي يحملون.. تطايرت القبضات في الهواء.. سقط الأب تحت الأقدام.. دفع أحدهم الأم بعيدًا.. تلقى «آرتور» ضربة بالعصا على رأسه.

واندفع الرجال داخل البيت يُحطمون ويهشمون.. وفي بعض الحجرات ألقى بعضهم المشاعل ليشعل المكان.. لم يكن لهذا داعٍ سوى الحس الدرامي الذي يقتضي وجود نيران لتكتمل الصورة.. كل منا يحمل في داخله مُخرجًا سينمائيًا كما تعلم.

جرى الرجال في كل مكان وبعثروا كل شيء.

هتف أحدهم وهو يفتح باب غرفة صغيرة:

ـ هنا محراب.. لكن ماذا يفعلون به؟

وألقى نظرة إلى الداخل فرأى ذلك الصليب الصغير الذي يُشبه

حرف «T» المقلوب.. وخطر له أن هذا مكان يُعبد فيه الشيطان.. لكن الرجال عندما دققوا أكثر أدركوا أنه صليب عادي الشكل مصنوع من معدن برَّاق.. الصدأ غطى فرعه السفلي فجعله يبدو عندما تراه من الباب كأنه حرف «T» مقلوب.

كان «فكتورس ألكسنيس» قد بدأ يشعر بالقلق.. لا توجد علامات مشؤومة في هذا البيت، ومعنى هذا أن هذه المذبحة لم تكن ضرورية.. لكنه لم يستبق شيئًا.. هم الذين بدأوا القتل.

بعض الرجال نزلوا إلى القبو.. ثم عادوا قائلين إن هناك أجزاء من حيوانات ممزقة.

لصوص ماشية.. الأمر واضح: كان «ألكسيس» و«آرتور» يتسللان في الظلام إلى المزارع القريبة ليقتلوا خرافًا أو عجولًا صغيرة ثم يفرون بها.. لا بد أن هذا مصدر دخل الأسرة وطريقها للعيش.. سرقة الماشية وتقطير الخمور.

ـ لا يوجد شيء آخر؟

ـ لا شيء.. ولا حتى الفئران.

راح يفكر في عمق، ثم تذكَّر:

ـ أين ذهب «جاتيس»؟ وأين امرأته الشابة «زوزانكا»؟ هي ليست منهم ولربما قتلوها أو عذَّبوها.

هنا وجد أحدهم غرفة الغسيل.. كان الباب مواربًا.. هكذا فتح الباب ودخل وهو يلوِّح بمشعله.

فوجئ على الفور بـ«جاتيس» يثب عليه وهو يحمل حجرًا ثقيلًا..

صرخ الرجل:

-الغوث يا «فيليس أباكوكس»!

هرع «فيليس» إلى الغرفة، وانقض على «جاتيس»، واستطاع أن يشل يده الممسكة بالحجر، ووجّه له عدة لكمات، في الواقع ثبته الرجلان إلى الجدار الرطب وراحا يوجهان له ضربات متوالية. أما ما حدث بعد هذا فمشهد لا يمكن أن ينسى.

لقد طار الرجل الأول ليضرب الجدار ويتهشم رأسه، أما الرجل الثاني فشعر بيد من حديد تمسك بعنقه ثم أدرك أن هناك من يدس رأسه في دلو ماء الغسيل المليء.. حاول أن يشهق.. أن يمتنع عن التنفس.. أن يسعل.. لا جدوى.. كل المحاولات التنفسية فشلت.. وبعد قليل همدت حركته.

وعندما خرجت «زوزانكا» إلى الرجال رسموا علامات الصليب، وأدركوا أنهم يرون الشيطان ذاته.

لشد ما تبدّلت الحسناء! ولشد ما صارت مريعة! ولشد ما صارت قوية!

لقد كانوا يتطايرون كأحجار الشطرنج، وعرف «فكتورس ألكسنيس» أن هذا هو مصّاص الدماء الذي يبحثون عنه.. لوح أحد الرجال بصليب خشبي في وجهها، لكنها مدت يدها إلى صدره فانتزعت قلبه بمخالبها.. السذج الذين يصدقون القصص عن مصّاصي الدماء كارهي الثوم والماء النقي والضوء والصلبان، مَن يقل هذا لم يرَ مصّاص دماء فعلًا.

-إليّ يا رجال!

لكنها كانت أسرع منهم.. وكان الرجل يهوي عليها بالبلطة أو

العصا فتقتنص يده كأنها صقر ينقض على أرنب، ثم تهشمها قبل أن تغرس البلطة في جمجمته.

ولا يعرف «فكتورس ألكسنيس» كيف فر إلى الباب، بينما النار تتصاعد من عدة غرف في البيت، ومن خلفه هرع من بقي من رجاله وهم يولولون ويصرخون.

عملية حرق الساحرات متعثرة ولم تكن كما أرادوا.

* * *

وقفت «زوزانكا» تلهث.

لقد تم التحول بسرعة.. كانت تعرف أنها ستتحول.. لعله الغضب.. لعله الخوف سبب هذا التحول السريع. الليلة الأولى عندما اجتازت الغابة عائدة من عند «ليلى إزرجاليس»، وعندما انقض عليها «تافيلوف»، وعندما عض عنقها، عرفت بعدها أنها لن تخاف الظلام أبدًا وأنها ستلحق به.

أخبرها في الظلام بالسر.. أخبرها بأنها ستجد البيت المقصود.. هناك علامات على هذا البيت: أسرة لا تزور ولا تُزار، ولم يرهم أحد في الكنيسة، ولديهم الكثير من الأسرار.. أسرة تحوم حولها علامات استفهام بصدد كونها مصّاصة دماء.. هذا كلام فارغ.. هذه العلامات تدلك فقط على أن بيتهم مقام فوق فجوة.

سوف يمهد لها القدر الطريق.. سوف تجد تلك الأسرة وهذا البيت.

في تلك الليلة لم تسأل نفسها عن سبب تواجد «جاتيس» في الغابة، لأنها كانت تعرف.. لم تسأل نفسها عن الكيفية التي رأى بها

في الظلام الدامس، ولا كيف سمع صرختها، لأنها كانت تعرف.. لم تسأل نفسها عن القوة الكاسحة التي قهر بها شابين ضخمين، لأنها كانت تعرف.

كل هذه علامات على أنها في الطريق الصحيح.

يجب أن تدخل هذا البيت.

والآن هي تحمل «جاتيس» الذي فقد وعيه.. تحمله كأنه طفل رضيع وتتقدم نحو القبو.

تمشي فوق الدماء والجثث وآثار المعركة وتشم رائحة الحريق.

تُرى هل بقي شخص آخر حيًا من «آل بولوديس»؟ لا وقت لتعرف.

لكنها لم تعد تخاف.

القوة التي تسري في عروقها مذهلة.

تهبط به إلى القبو، وتهرع وسط أشلاء الحيوانات الممزقة.. ثم تفتح الباب السري وتهبط إلى الدرج.

إلى العالم الغريب.. حيث التوابيت المتراصة المفتوحة.. حيث تتحدى كل قواعد الفيزياء، ويسقط السائل إلى أعلى، وترى الأشياء البعيدة عنك أقرب من سواها.. هنا يمكنك أن ترى الأنين وتسمع الدم وتشم الضوء وتتذوق الألوان.

هذا هو المكان المختار.

المكان الذي كُلفت بأن تجده.

والأسرة لم تدرِ قَطُّ أن هذا المكان العجيب يقع تحت قبو دارها..

أو ربما عرفت لكن حسبته يقود إلى كهف لا داعي لاستكشافه.

هذا هو المكان المختار.. هناك فتحات أخرى تحت بيوت أخرى

عديدة كلها تقود إلى هنا.. وفي هذا المكان تبدأ مملكة مصَّاصي الدماء.. كائنات الليل الكابوسية.

بدأ «جاتيس» يفتح عينيه ويئن.

نظرت إليه في رفق.. لا تنكر أنها أحبته ومالت له كثيرًا برغم أن لقاءهما لم يكن سوى طريقة لدخولها هذا البيت.. سوف يكون عليه أن ينضم إلى هذا العالم ويعيش بطريقتهم.. البديل هو أن يصير وجبة لضيوف هذا الحفل.

«زوزانكا» صاحبة العينين العميقتين.

«زوزانكا» ذات القدمين الدقيقتين.

«زوزانكا» تقف هناك في الضوء الخافت تراقب التوابيت المفتوحة.. تسمع صوت الخطوات القادمة من بعيد عبر أرجاء الكهف.. الفجر قام وهم عائدون.

سوف تراهم الآن.

دبة النملة

هناك لحظة مخيفة بين التحديق في ذلك الوجه الذي يُحملق فيك، وبين إدراك الحقيقة المخيفة.. إنه يراك. الآن أفهم سر توتر الزوجة وشحوبها.. أفهم لماذا ذهبت نورا عند جدتها. هل رأت الزوجة هذا المشهد؟ لا أظن وإلا ما ظلت حية.. على الأرجح هي خمنت أو شعرت بشيء ما خطأ.. لكن لا تقل لي إنها رأت زوجها يمشي على الجدران وقبلت ذلك!

اجلس يا محمود ولا تُثِر توتري.. أنا أمقت الأشياء التي تتحرك في مجال نظري، وأمقت هؤلاء العصبيين كثيري الحركة، الذين ينقلون ساقًا على ساق.. أنت تعرف أن التوتر العصبي مُعدٍ، وأن هناك ظاهرة تُدعى «الإشعاع السيكو فيزيائي».

اجلس وهات كوبًا من الماء البارد من هذا الدورق. هل شغلت جهاز الكاسيت؟ لا بأس.. لكننا سوف نستمع إلى الشريط بالكامل بعد انتهاء قصتي.. هناك مقاطع لن أسمح لك بنشرها طبعًا.

صداقة طويلة جمعت بيني ورامز.. صداقة دامت ٢٠ سنة على الأقل.

كانت هذه الصداقة مثالية في كل شيء.. كنا صديقين مخلصين لبعضنا، وكان يعرف معظم أسراري وأنا أعرف كل أسراره.. لا مشكلة. بالنسبة إلى توزيع المواهب كان التوزيع عادلًا: أنا بلا أي موهبة من أي نوع.. هو يملك يدًا وأذنًا موسيقيتين بلا شك، وكان يتصدر أي احتفال للمدرسة.

كنت قوي البنية، محدود الذكاء، قليل المواهب.. وكان هو ضعيف البنية، شديد الحساسية والذكاء.

لما أنهينا الدراسة الثانوية التحق هو بمعهد الموسيقى.. أما أنا فدخلت كلية التربية النوعية. بعد هذا صرت مدرس تربية رياضية..

أما هو فقد بدأ نجمه يعلو مع عدة فرق موسيقية وسرعان ما كوَّن فرقته الخاصة وسجل عدة ألبومات ناجحة.

كان وسيمًا ذا «كاريزما» أكيدة.. بالإضافة لهذا كان يحمل ذلك الوهن الذي يفتن الفتيات على طريقة عبد الحليم حافظ. شيء يحرك الأمومة في نفوسهن.

أنت رأيته في التلفزيون يا محمود.. لا بد أنك أحببت الألحان التي يُقدمها.. كان ظاهرة حقيقية.. هل ترى هذه المجلة التي تحمل صورته؟ كان نجمًا صاعدًا بسرعة صاروخية، وأعتقد أنه كان سيجتاز نفس الطريق الذي اجتازه مطربون كبار.

ثم ظهرت نورهان في حياته. فتاة رقيقة هادئة، بدا لي أنها جزء من نجاحه الصاروخي ورحلة صعوده.. هو ذكي ويعرف كيف ينتقي رفيقة دربه.

تزوجا، وأعتقد أنها كانت زيجة سعيدة ناجحة.

انتظر.. لم تنتهِ القصة عند هذا الحد. يا لك من أحمق! أنا لم أطلبك في هذه الساعة لأحكي عن قصة حياة موفقة. الموضوع هو أنني مذعور وخائف.. لم أعد أستطيع البقاء وحدي في البيت لأقصر فترة ممكنة.. خائف دومًا.. ما يدور خلفي صار عالمًا

كاملًا.. يُخيل إليَّ أن كل شياطين الأرض تحتشد عند مؤخرة رأسي.

دعنا.. دعنا نستكمل القصة.

* * *

في سن الثلاثين بدأ رامز يلاحظ بقعًا في مجال الإبصار.. في البداية يعتقد أنه وهم.. ثم يقرر أنه الإرهاق.. ثم يعتقد أنه مريض بالفعل.. بل يؤمن بذلك.

كانت هناك فترة من الحيرة لدى أطباء العيون، واستقر الرأي على أن العصب البصري يضمُر.

ثم بدأت الكارثة الحقيقية عندما بدأ يلاحظ أن سمعه يضمحل.. بالفعل يجد عُسرًا في سماع صوت زوجته الهامس، وارتفعت طبقة صوته أكثر حتى إن الناس راحوا يسألونه عن سبب صياحه.

هذه المرة وجد طبيب أعصاب بارعًا.. وكان التشخيص مخيفًا.. هذا مرض نادر يزحف على الأعصاب المخية ويؤدي لضمورها بالتدريج.

هل من علاج؟ للأسف لا علاج سوى جرعات عالية من «الكورتيزون» لن تؤدي لشيء على الأرجح.

هل من علاج بالخارج؟ لو تلقيت العلاج في «مايو كلينيك» على يد البروفسور «جون كلارك» أم في حارة الزغبي على يد برعي الممرض بقصر العيني فلا فارق.. نفس سياسة العلاج.

هكذا راح رامز يهوي بلا توقف في قاع الظلام.

الظلام الذي يجعله الصمت مريعًا.

كان يقرأ عن «هيلين كيلر» الكاتبة الأمريكية الصماء الخرساء العمياء،

ولم يتخيل قَطُّ أن يعيش المرء بتلك العاهات الثلاث، وها هو ذا يواجه نفس المصير مع القدرة على الكلام طبعًا.. تذكر كذلك أن «هيلين كيلر» قالت: «الصمم ألعن شيء في العالم.. في الظلام لا ينقذك سوى سماع صوت مألوف يهدئك». هذا يختلف عن اعتقاد الناس أجمع، لكنه ذات ما آمن به رامز.. فعلًا مصيبة الصمم أسوأ ما حدث له.

ومع موسيقي!

نعم. هو موسيقي.. أذنه هي حياته وأكل عيشه ومستقبله..

لن يملك قدرات «بيتهوفن» الذي كتب سيمفونيته التاسعة وهو أصم تقريبًا يتحسس اهتزازات البيانو. ليس هو.

رحت أتردد عليه وكاد القلق يقتلني.

إن حالته النفسية تتردى.. أعتقد أنها حالة انتحار لم تحدث بعد.

لقد انتهى سبب وجوده.

رُحت أقول له كل كلمات رقيقة قد تُهدِّئ من روعه.. لكنه كان يتلقَّى كل كلمة لي كأنه يلعب مباراة تنس طاولة.. كل كلمة لها رد.. أقول له:

ـ أنا أفهم ما تشعر به.

فيرد على الفور:

ـ لا. لا تفهم!

ـ سوف تتذكَّر هذه الأيام باسمًا.

ـ في العالم الآخر؟

كانت حالته تسوء بلا توقف، ولا شك أن نورهان كانت تمر بأتعس أوقات حياتها.

* * *

حدث ما حدث في ذلك اليوم الذي كنت أمشي فيه في الدقي عندما اصطدمت بذلك الرجل. عندما دققت أكثر أدركت أنني أعرفه.. هاشم.

نظر إليَّ في دهشة وذهول ثم ارتمى في أحضاني، ورحنا نثرثر عن كل شيء، وأنا لا أجسر على توجيه السؤال الأهم الذي يؤرقني.

في النهاية استجمعت أعصابي وسألته.. عندها عرفت.

هاشم كان قد أصيب بضمور في الشبكية منذ ثلاثة أعوام.. صار كفيفًا تمامًا.. وكان هذا شيئًا قاسيًا جدًّا في سِنه الصغيرة الواعدة.

كنت قد تركته كما نفارق دار السينما بعد نهاية حزينة، ولم أرَه منذ ذلك الحين.. لكنني اليوم أجده يمشي بكامل لياقته ويراني ويعرفني.

عندما جلسنا في ذلك المقهى استجمعت شجاعتي وسألته عن سبب استعادته بصره.. المعجزة التي أدت لذلك. ما أعرفه هو أن الأطباء أعلنوا عجزهم عن عمل شيء.

قال هاشم في مرح:

ـ كنت قد فقدت الأمل تمامًا حتى...

ـ حتى ماذا؟

ـ حتى قابلت ذلك الطبيب.. ذلك الساحر.. ذلك النطاسي الخارق للعادة.

ـ وماذا فعل معك؟

ابتسم وضاقت عيناه للحظة، ثم قال:

ـ الأمر شبيه بالعلاج بالخلايا الجذعية.. شيء من هذا القبيل.

كنت أعرف حلم الخلايا الجذعية الذي عذَّب مرضى كثيرين..

مهما كانت حالة المريض ميؤوسًا منها فهم يبشرونه بشيء اسمه الخلايا الجذعية، والحقيقة أن أبحاثها ما زالت في مرحلة الطفولة، وعدد النصّابين أكثر بمراحل من عدد الصادقين.. كثيرون يسافرون إلى تايلاند ليتلقوا أقسى صدمة في حياتهم.

- هل هو طبيب مصري؟

- أرمني.. لكنك لن تعرف هذا لأنه يتكلم العامية المصرية أفضل منا.

- هل هو طبيب عيون فقط؟

- بل هو طبيب كل شيء! على طريقة أطباء الماضي.. ابن سينا والرازي وجالينوس وأبقراط.. يتعامل مع البشر ككل.

بعد إلحاح كتب لي اسم الطبيب وعنوان عيادته ورقم هاتفه.

- هل أتعابه باهظة؟

- غالية نوعًا ما.. لكن بكم تُثمِّن عينيك على كل حال؟

تأملت البطاقة.. دكتور «ويليام أنطونيان».. الـ«يان» التي تدل على أن صاحب الاسم أرمني على الفور.

أعرف مريضًا سوف يجرب هذا الطبيب.. يجربه هذا الأسبوع حتمًا.

* * *

كان جالسًا في تلك الغرفة خافتة الإضاءة، وعلى عينيه ضمادات.. دخلت نورهان حاملة صحفة عليها مشروب بارد وجلست جوارنا ترمق زوجها في جلسته المتصلّبة.

بدا لي الأمر كأنه مر بجراحة معينة.. وانتظرت حتى يحكي لي ما حدث.

كان ما زال قادرًا على السمع لكن عليك أن تصيح بصوت جهير، وكان يتكلم بنبرة عالية كذلك لأنه لا يدرك مدى ارتفاع صوته.

قال لي:

- بالطبع لم أستطع رؤية ما يحدث جيدًا.. كنت أرى بعض الأشباح، وعرفت أنها شقة في بناية شامخة في وسط البلد.. بناية ذات مصعد يتعطل أكثر الوقت. الشقة كانت نظيفة ورائحة المطهرات تملؤها لكنها قديمة. أما الرجل فكان له صوت عميق مريح كأنه أريكة تضع عليها توترك الخاص. لا توجد أي لكنة غريبة في كلامه.. تشعر أنه مصري ابن مصري.

قال لي بصوت عالٍ كالصراخ إنه يمارس ضربًا غير تقليدي من العلاج، وهذا العلاج يتلخَّص في حقني بمجموعة من الحقن التي تحوي خلاصة خلوية.. أما عن محتوى هذه الحقن فهنا يكمن سر العلاج.. لا أسئلة من فضلك.. لا يمكن إفشاء السر، ولو كنت مصرًّا فبوسعي دائمًا أن أنسحب. لن يخبرني.. باختصار ما بين البائع والمشتري يفتح الله.

وافقت طبعًا.. وقلت لنفسي إنني لن أخسر شيئًا.. و«ضربوا الأعور على عينه قال خربانة خربانة».. هذا المثل ينطبق على حالتي حرفيًّا!

لا أعرف متى وضع ورقة تحت يدي وقلمًا في يدي فسألته عما هنالك، فقال: «هذا.. موافقتك (consent) على استخدام العلاج».

وقَّعت.. ولا أدري متى ولا كيف كشفوا عن ساعدي، ولا كيف

اخترقت إبرة أوردتي، ثم شعرت بسائل بارد يسري هناك..
وهكذا انتهت الجلسة وعرفت أن هناك ثلاث جلسات أخرى.
نظرت إلى نورهان التي راحت ترمق زوجها في قلق حنون، وسألتها:

- ما انطباعك عن الأمر كله؟ نصب؟

رفعتُ الشعر عن عينها فرأيت دمعة متحجرة هناك. وقالت:

- أعتقد أنه صادق.. الجو يوحي بالاحترام والثقة.
- والنتائج؟

قال رامز وهو محتفظ بجلسته المتصلِّبة:

- بالنسبة إلى العينين لا تحسُّن.. الأمر يزداد سوءًا.. بالنسبة إلى السمع هناك تحسُّن طفيف.

قلت بصوت خافت:

- طفيف؟
- نعم طفيف.

تبادلت نظرة جانبية باسمة مع نورهان.. لقد سمع هذا السؤال الخافت برغم كل شيء.. ما زلنا في مرحلة رمادية.. لا يمكن أن تُقسم أن سمعه يسوء أم يتحسَّن لكن هناك علامات.

عندما فارقته تمنيت أن يكون في الطريق الصحيح.

* * *

القصة كما ترى يا محمود ليس فيها شيء مريب أو غير طبيعي.. مريض طلب الشفاء ولعله وفِّق أو لم يوفَّق. ليس الأمر خطرًا. ليس ذلك بالشيء الذي يثير الهلع.

على كل حال، في ذلك الوقت لم أكن أعرف أن المهندس شاكر يصلح آلة التقطيع في المصنع.

المهندس شاكر في الأربعين من عمره، وهو رجل ذكي مرموق.. جوار عمله في المصنع، لديه ورشة سيارات خاصة عانى كثيرًا حتى أنشأها، وجاهد حتى يكسب ثقة العملاء. يعتمد على نفسه كثيرًا ولا يترك الأمور للعمال، لهذا وثق به زبائنه.. شاكر صديق قديم لي وإن كنا نلتقي لمامًا.

يفكر شاكر الآن في مها زوجته، وفي هدية عيد ميلادها التي تنتظر في حقيبة السيارة.. يفكر في ابنته نورا الرقيقة ابنة السنوات العشر.. يفكر في الورشة وفي الشريك الجديد. سوف يذهب هناك بعد انتهاء ورديته في المصنع ليتناول غداءً خفيفًا ثم يعمل حتى ساعة متأخرة من الليل.

كانت آلة التقطيع معطَّلة وقد جاء رئيس الميكانيكية يخبره بذلك. قام بفصل السكينة وجلس محتبيًا ليعالج النصل ومجموعة التروس. مها كانت مكتئبة أمس ولا يعرف السبب.. هل هناك شيء ضايقها؟ كانت هناك مكالمة مع أخته.. هل حدث شيء بينهما في ذلك الوقت؟

و...

لا يعرف ما حدث.. هناك مجنون ما في كل مكان.. هناك حمار ما في كل مصنع.. حمار من الطراز الذي يجد سكينة الكهرباء في وضع فصل التيار فيُعيدها إلى مكانها وهو مندهش.

تدور الآلة.. يهوي النصل.

لا يوجد ألم.. الصدمة العصبية رحيمة وتجعله ذاهلًا في عالم آخر. لا يعرف سوى أنهم يصرخون، وأنهم يحملونه، وأن سائلًا دافئًا يبلل الأرض.. سيارة إسعاف من الداخل.. كشافات.. أرجل تركض على بلاط المستشفى.

ثم الظلام...

الضوء يتسلل ببطء. شاكر يفيق وشعور بالغثيان يغمره.. ينهض والعرق يبلله بالكامل.

إنه في فراش مستشفى.. لا شك في هذا. الأبيض اللعين الذي وصفه أمل دنقل، والذي هو لون الموت ذاته. ينهض.. هو في مستشفى. لا يذكر أي شيء سوى أنه كان يصلح الآلة.. ثم حدث شيء ما.. حدث شيء هو...؟

هناك مَن شغل الآلة.

حمار ما قام بتشغيل الآلة.

ماذا حدث وقتها؟ رفع ساعده الأيمن ببطء.. وعندها أدرك الحقيقة.. لم تعد لديه يد.. هناك ضمادة قبيحة لا يمكن أن تُخفي يدًا تحتها.. بل عندها يبدأ الأمر وينتهي.

منذ ساعات كان رجلًا مكتمل الجسد يفكر في هدية ميلاد زوجته.. الآن هو أكتع.. أكتع!

لا بد أنه فقد الوعي في هذا الوقت.

* * *

عندما قابلته ـ بناء على كلمات صديق أخبرني بالفاجعة ـ كان قد تغيَّر جدًّا.

كان جالسًا هناك في مقعد في شرفة المستشفى وهو يتأمل الضمادة التي كانت يده.

حاولت أن أمازحه لكن مزاجه كان متعكرًا.

قال لي إن مستقبله انتهى.. صحيح أن المهندس لا يجب أن يعمل بيده، لكنه اعتاد ذلك.. دعك من ورشة السيارات التي علَّق عليها كل آماله.. إنه رسَّام بلا يد.

شعرت بأسى شديد.. ما أكثر النحس الذي يمر برفاقي.. إما أن دوري في هذه المصائب قادم وإما أنا الذي أسبب لهم النحس.

سألته:

ـ هل هناك وسيلة تعويضية ما؟

ابتسم في تعب، وقال:

ـ مستحيل.. اليد عضو شديد التعقيد.. يجب أن أتأقلم.. هذا هو الحل.

غادرته وأنا أشعر بالتعاسة والأسى.

* * *

اتصلت برامز لأطمئن على أموره فرد عليَّ في مرح.

شعرت بسرور بالغ.. كان صوتي خفيضًا ولم أكن أصرخ في الهاتف لكن بدا أنه يسمعني جيدًا. كنت أسمع في الخلفية صوت دوزنة أوتار كمان.. من الواضح أنه يكلمني وهو يداعب أوتار الكمان. علامة صحية أخرى.

ـ هذا يعني أن علاج الأرمني ناجح فعلًا.

ـ هذا واضح.. لكن بصري يزداد سوءًا.. هذه نقطة لا أنكرها.

هنا حكيت له عن شاكر زميل دراستنا.. كانت قصة مؤسفة مؤسية، وبدا لي أنه من المستحيل أن يساعده أحد.. هنا قال لي في لهفة:

- بالعكس.. لقد ذهبت إلى الطبيب الأرمني مرة أخرى، وقالت لي زوجتي إن هناك مرضى مبتوري الأقدام ينتظرون الفحص!

هنا يبدأ التخريف إذن.. قلت في عصبية:

- الأمر لا يتعلق بمرض عصبي.. هناك أطراف طارت.. لم تعد هناك.

- أنا أعرف ما أقول.

ثم أضاف بلهجة تقريرية:

- دع شاكر يزر هذا الطبيب الأرمني.. هو لن يخسر شيئًا.. وأنا أعدك أن هناك معجزة في الطريق!

* * *

يمكنك أن تتخيل تعبير وجه شاكر عندما أخبرته بهذا الاقتراح. تخيُّل هذا سهل على كل حال.. نحن لا نتحدث عن حاسة تُفقد أو قدرة تضيع.. نحن نتحدث عن طرف طار.. تمزق.. ذهب به نصل السكين.

قال لي في أسى:

- لقد انتهى زمن المعجزات.. أنا لا أفهم في الطب، لكن ثق أنني لن أحمل جثة مزقها القطار إلى عيادة طبيب.

نظرت إلى يده المبتورة الملفوفة في الضمادات، ثم قلت:

- عدني بشيء.. أنا مخبول غير مستقر نفسيًا.. اتفقنا؟

- أنت لست كذلك.

- بل أنا مخبول من الطراز الذي يجري في الشوارع وكسرولة على رأسه.. اللعاب يسيل من فمه.. هذا المخبول لا يريد سوى شيء واحد هو أن تذهب إلى هذا الطبيب.

- هذا طلب عسير.. أنت تداعبني دعابة قاسية اسمها الأمل.. هذه الدعابة لن تفضي بي سوى لمزيد من الألم.

كان إلحاحي شديدًا.. وقد استطعت بالفعل أن أقنعه بأن يجرِّب.

عرفت فيما بعد أنه ذهب هناك مع زوجته مها.. كانت مها مستعدة لتجربة أي شيء. لا بد أن هناك أعشابًا صينية تعيد الأيدي المبتورة.. لا بد أن هناك طريقة ما.

وكما هي العادة، قابل الطبيب الأرمني وكان نفس الانطباع وكانت ذات المحادثة.. ثم وقَّع على الورقة بيده السليمة وهو يكتم ضحكة ساخرة. هذا الرجل نصَّاب بلا شك.. لكن الدفع سيكون بعد الشفاء طبعًا.. لن تكون الخدعة قاتلة.. لن يسلبه شيئًا سوى الأمل، لقد تغيَّر الزمن كثيرًا يا شاكر.. صاروا يسخرون منك، وصرت أنت كمًّا مهملًا.. لكنك تسخر منهم إذ تتظاهر بأنك تُصدقهم.

عاد إلى البيت، وأعتقد أنه ازداد سوءًا على الأقل من الناحية المعنوية.

* * *

أنت تُسجل كل شيء يا محمود.. أليس كذلك؟ تصوَّر أنني أتذكر بعض التفاصيل التي نسيتها تمامًا.. الكلام يرغمك على ترتيب أفكارك فعلًا.

أذكر كيف أمضيت أيامًا عدة لا أعرف شيئًا عما حدث في هذه

القصة.. اتصلت برامز عدة مرات، فكان يؤكد أن سمعه ممتاز لكن بصره كما هو.. أما عن شاكر فلم يكن هناك أي تطور في حالته.

جاء اليوم الذي اتصل بي رامز فيه ليقول إنه فهم الخدعة الكامنة في العلاج الذي تلقاه.. هناك أثر جانبي واضح. وما هو هذا الأثر الجانبي يا ترى؟ هل فشل الكبد أم ارتفع ضغط الدم؟

ـ السمع صار حادًّا جدًّا.. فعلًا يمكنني سماع الفئران وهي تتحرك في «المسقط» عند الجيران، ويمكنني سماع دقات قلب زوجتي وهي نائمة.

هذا فقط؟ ابتسمت، وقلت:

ـ هذا عرض لا يخلو من الهستيريا.. أنت تعرف الهستيريين الذين يشكون دومًا من صوت التنفس العالي لمن يجلسون قربهم.

ـ «بيريجيب».

قالها في ثقة ثم راح يفسر لي:

ـ في الروسية معناها محاولة تقويم العصا المعدنية مما يثنيها للجهة الأخرى.. يبدو أنه بالغ في العلاج!

استمعت إليه بنصف انتباه ونصف اهتمام.. لا أصدق أن يكون هناك شيء اسمه شفاء أكثر من اللازم.. هذه تبدو لي شكوى مترفة جدًّا. سألته بعدها:

ـ هل دفعت أجره؟

ـ بالطبع.. لقد قام بالاتفاق وأعاد لي سمعي.. سمعي يعني حياتي.

ـ لكنك كفيف حسب ما فهمت.. لم يتغير شيء.

ـ قلت لك إن أذني هي حياتي.. لو كنت رسامًا لكانت هذه قضيتي الأولى.

بالطبع يا محمود لم أستطع أن أصدق كل شيء.. ثمة احتمال لا بأس به أن يكون الشفاء جاء بالصدفة. لو كان هذا الطبيب يعرف عمله حقًّا لشُفي بصر رامز كذلك، خصوصًا أن عندنا سابقة مهمة مع هاشم.. أعتقد أنه مجرد نصّاب بارع حَسن الحظ.

كانت الأسئلة تملأ ذهني.

في المدرسة رحت أراقب الصبية وهم يمارسون تمريناتهم الرياضية.. ويركضون حول الفناء. كم أن الإنسان رائع ومعجزة في الخلق.. تتضافر الحواس والقدرات والعضلات والأعصاب لتصنع سيمفونية بالغة الإتقان.. سيمفونية أجمل ما فيها أنك لا تشعر بها.. فقط عندما يتلف شيء ندرك أي نعمة كنا فيها.

قررت أن أزور هاشم هذه الليلة بالذات.. هل صار يبصر أكثر من اللازم؟ هل صار يرى أشخاصًا ليسوا هنالك أو غير موجودين أصلًا؟

* * *

ظللت أدق الباب عدة مرات بلا جدوى.

أنا أعرف أنه متزوج ولديه طفل فماذا حدث؟

واصلت الدق في عناد، وكان هذا حلًّا موفقًا، لأنه كما يبدو كان ينتظر أن يرحل هذا الفضولي السمج. سمعت صوته الغليظ من وراء الباب يصيح:

ـ ماذا تريد؟

أعلنت مَن أنا بصوت أقرب للتوسل.. فأبدى دهشته من قدومي.. لم يبدُ ودودًا على الإطلاق. ثم انفتح الباب.

ـ ماذا أتى بك في هذه الساعة؟

قلت في حرج:

ـ ظننت أن...

ـ مرحبًا بك بالتأكيد.. لكنني كنت أنتظر موعدًا مسبقًا.

وسمح لي بدخول الشقة.. ظلام دامس تقريبًا.. لا توجد سوى مصابيح خافتة مما نطلق عليه اسم «ونَّاسة».. لا أرى شيئًا تقريبًا.. هناك رائحة كريهة فعلًا.. هذا بيت لا ينظف ولا يحمل آثار لمسات الأنثى.

قلت له وأنا أتحسس طريقي:

ـ كيف حال المدام؟

قال ما توقعت أن يقوله:

ـ أنا مطلق.. زوجتي لم تتحمل أن تعاني معي.

لذت بالصمت.. هذا شيء قاسٍ فعلًا.. الزوجة رحلت بمجرد أن فقد زوجها بصره.. ليست الفارسة المناضلة التي يريد لها العالم أن تكون، وعلى كل حال لا يمكن أن ألوم أحدًا قبل أن يختبر المرء نفسه.. هناك أزواج طلقوا زوجاتهم لأنهن أصبن بسرطان واستأصلن جزءًا من أنوثتهن.

لكنني الآن أدرك أن حياة هاشم قاسية فعلًا.. ألا توجد عاملة تُعنى بهذا البيت؟

ـ لقد أرسلت صديقي للدكتور الأرمني كما اقترحت أنت.. النتائج جيدة فعلًا.. لكنه يشكو من آثار جانبية.

ـ كنت أعرف أنه سيُشفى.. وكنت أعرف أن آثارًا جانبية ستحدث.

اصطدمت بأريكة فجلست عليها، بينما جاء هو بزجاجة مياه غازية من مكان ما. كيف يرى في هذا الظلام الدامس؟ لقد شُفي جدًّا بالتأكيد.

شعرت بشيء يتهشم تحت قدمي فنظرت.. الظلام دامس فلا أرى جيدًا.. لكن هناك حاسة تقدير الأشياء التي تجعلك تخمِّن ما يوجد تحت قدمك.

مددت يدي وتحسست.. بالفعل كما توقَّعت.

إن صديقي هاشم يعيش حياة قذرة فعلًا.

* * *

راح هاشم يتكلم وأنا شارد الذهن أفكر بعمق فيما وجدته.. خطر لي نوع من الهاجس الذي لا يستند إلى أساس علمي أن عينيه تلمعان أكثر من اللازم.. ربما هما تضيئان.

ماذا يحدث هنا بالضبط؟

كان ما لمسته وتهشم تحت قدمي هو عظام.. عظام حيوان أو طائر صغير، ويبدو من ملمسها أنها هنا منذ زمن سحيق.. هناك كمية هائلة منها.

ما معنى هذا؟ هاشم يعيش في هذا الوكر ولا يتخلص من بقايا طعامه. سمعت أن أمورًا كهذه تصيب مرضى «السكيزوفرنيا»، أو في حالات خرف الشيخوخة. المريض لا يدرك أنه يعيش في وكر

قذر.. عاداته تسوء مع الوقت وهو لا يدرك الانحدار الذي يهبط له.. وفي لحظة هو مجنون ناري النظرات منكوش الشعر يلبس الأسمال ويقف في زقاق خلفي يتسول، ومن حين لآخر يحك رأسه بسبب القمل.

الحقيقة أنني راغب في الرحيل بالتأكيد.. لا أحب هذا الجو.

هل جُن هاشم لأنه استرد بصره فلم يتحمل هذا الانفعال؟ أم هذا أثر جانبي لعلاج الأرمني اللعين؟

لا أعرف متى وجدت هاشم يمسك بعلبة من الورق المقوى يشرب محتواها بشفاط.. هذا لبن.. أعرف منظر هذه العلبة ولونها.. قدَّم لي المياه الغازية وراح يشرب اللبن.

بررررررررررررررر
ررررررررررررررررررررررررررررر!

من أين يأتي هذا القرير؟ هل هناك محرك سيارة يدور في الجوار؟ لماذا تلمع عيناك يا هاشم بهذا الشكل؟

قال هاشم وهو مستمر في الامتصاص:

ـ أحيانًا يكون علينا أن نتخذ قرارًا عسيرًا.. قرارًا يغير حياتنا بالكامل.. لكن هناك متعة خاصة في الاستسلام.. أن تقبل أن تكون ما يراد منك أن تكونه. أنت تعرف أن هناك نساء لا يعشقن سوى الرجل الفظ الذي يقهرهن قهرًا.. هذا هو ما حدث معي تقريبًا.

كان ردي الوحيد والبسيط هو: لا أفهم.. هل هناك في حياته شخص يرغمه؟

بررررررررر! هذا غريب.. الصوت يصدر منه فعلًا.. لا شك في

هذا. تأملت جسده الضخم المنحني في الظلام وشعره المنتفش.. تأملت عينيه اللتين تلمعان في الظلام بدا لي غريبًا فعلًا.

لقد حان وقت إنهاء هذه الجلسة. أنا الآن أعرف أن العلاج فعَّال جدًّا.. فعَّال أكثر من اللازم، لكنه كذلك يسبب غرابة الأطوار. حان الوقت كي أزور صديقًا آخر هو شاكر.. أريد أن أعرف أخبار العلاج الذي تلقَّاه.

طبعًا، يصعب الاعتقاد أن العلاج كان ذا جدوى معه. الأمل والألم.. هو تكلم عنهما معًا.. لماذا لم ألحظ من قبل أن اللفظين يحملان ذات الحروف؟ ربما هناك لفظ ثالث كذلك هو المال.. نقص المال يسبب لك ألمًا.. لكن الأمل الذي يخيب يسبب لك الكثير من الألم.

طرقت الباب مرارًا.. كان موعدًا سخيفًا يناسب ضيفًا سمجًا وقحًا. فتحت لي زوجته مها الباب. أعرف مها منذ زمن، ولم أرها من قبل شاحبة متوترة بهذا الشكل. تأمل لون الصفحة لتأخذ فكرة عن لون وجهها.

دعتني للداخل، وقالت إنها ستنادي زوجها حالًا. سألتها عن نورا العزيزة الصغيرة، فقالت بلهجة غامضة:

ـ نورا عند جدتها الآن.. لا تسأل عنها كثيرًا.

طلب مريب فعلًا. ابتلعت ريقي، وسألتها عن شاكر: ما أخبار معنوياته؟

قالت في ارتباك:

ـ يتحسَّن لا شك في هذا.

في هذه اللحظة دخل شاكر الغرفة.. فتح ذراعيه مرحبًا بي..
وعندما غبت في حضنه أدركت شيئًا مرعبًا: هناك يدان تحيطان بي!
تراجعت للخلف ونظرت.

بالتأكيد لست أحلم.. عند كُم سترته رأيت يدًا صغيرة مشوهة.. ليست جميلة المنظر، وهي مغطاة بحراشف ولونها برتقالي مقزز.. لكنها يد! أضف لهذا أن يده السليمة لم تكن جميلة المنظر كذلك.

تراجعت للخلف مذهولًا، فقال وقد رأى نظرتي:

ـ هذه يد حقيقية.. ليست صناعية.. طبيبك هذا كان عبقريًا فعلًا..
إن يدي تنمو.. أعتقد أن شكلها سيتحسّن مع الوقت!

كنت أزداد رُعبًا.. رباه! الأمر لا يتم هكذا.. مستحيل أن يتم هكذا... هذا كابوس!

قالت مها في ارتباك إنها ستعد لنا بعض الشراب، فقال شاكر إنه سيفعل ذلك. طلب منها أن تنصرف لأن بيننا الكثير من الكلام.

عندما انصرفت وهي ترتجف، قال شاكر:

ـ هي ما زالت مرتبكة متهيبة.. المرء يخاف ما لم يعتده.. وأنا شيء غير معتاد. بيني وبينك لم أتوقَّع هذا الذي حدث قَطُّ.. العلاج فعَّال بلا شك.

قلت في ذهول:

ـ نحن لا نتكلم عن علاج فعَّال.. نتكلم عن معجزة تغيِّر وجه الطب للأبد.

نهض مسرعًا إلى المطبخ، وظللت وحدي في الصالون أرمق الجدران مفكرًا: لا يوجد أثر جانبي على قدر علمي.. هناك ذعر

الزوجة وحيرتها، لكن هذه ليست نهاية العالم.. ما حدث هو معجزة بكل المقاييس.. حتى أعتى السحرة لم يستطيعوا إعادة طرف مبتور.

سمعت صوتًا غريبًا من المطبخ.. كأن هناك من يُقبِّل خدًّا بصوت عالٍ مزعج.

شعرت بقلق.. الزوجة ليست هنا. نهضت في حذر نحو ما أعتقد أنه المطبخ وألقيت نظرة: هناك براد شاي على النار، هناك منضدة في منتصف المكان، فوق المنضدة طبق به شيء أعتقد أنه ملح.. أما المشهد العجيب فهو مشهد شاكر وهو راكع على ركبتيه إلى جوار المنضدة وقد مد لسانه.. لسان طويل جدًّا يلعق به الملح في الطبق.

تراجعت للخلف لأحبس صرخة هلع تنطلق مني، وقفت بضع دقائق أشهق محاولًا أن أستعيد تنفسي. محمود.. هل تسجل كل شيء؟ سوف أحذف هذا الجزء أو أغيِّر الأسماء حتى لا أوذي الزوجة، يصعب بعض الشيء أن نقول عن زوجة محترمة إن زوجها يلعق الملح في المطبخ.

عدت في حذر ألقي نظرة على المطبخ، لم أرَ سوى الموقد والشاي عليه.. أين شاكر؟

لسبب ما رفعت رأسي لأعلى وكان المشهد كافيًا كي يتوقف قلبي للحظات: كان شاكر يتشبث بالجدار قرب السقف ووجهه له وقد فتح ذراعيه.. ثبَّت كفيه للجدار كأن لهما ممصات، وكان يتحرك بسلاسة غير عادية.

ثمة شيء مألوف في هذا.

هل فهمت يا محمود؟ يلعق الملح ويمشي على الجدران؟ هذا

سلوك وَزَغَة (برص) بلا شك.. صديقي قد تحوَّل إلى برص آدمي عملاق.

هل فهمت؟ الأمر واضح: كي يستعيد اليد التي فقدها، حوَّله الطبيب الأرمني المجنون إلى برص.. رأيت فيلمًا شنيعًا في «ناشونال جيوجرافيك» لقدم برص مبتورة تنمو وتتحول مع الوقت لقدم سليمة كاملة.. هذا هو ما خطر للطبيب الأرمني.

وماذا عن هاشم؟ الآن يمكنني الفهم: يقر وهو يشرب اللبن، ويلتهم حيوانات صغيرة (فئران على الأرجح)، وعيناه مضيئتان.. إنه يتحول إلى قط.. هذه هي الطريقة المُثلى كي يكتسب عيني القط.

قفَّ شعر رأسي.. قفَّ كما هو منتصب الآن. هات المزيد من الماء البارد.. أتناول معه قرصًا من «الديازيبام»، لكنني مضطر لزيادة الجرعة يومًا بعد يوم.. سوف أتحوَّل إلى مدمن قريبًا جدًّا.

أنت كذلك بدأت تتوتر.

لم يبدأ المرح بعد.. ماذا لو حكيت لك عن اللحظة التي استدار فيها عنق شاكر، ورأيته ينظر إليَّ من وضعه المقلوب؟ لقد أدرك أنني فضحت سره.

* * *

أعتقد أن قلبي كان موشكًا على التوقف.

هناك لحظة مخيفة بين التحديق في ذلك الوجه الذي يُحملق فيك، وبين إدراك الحقيقة المخيفة.. إنه يراك.

الآن أفهم سر توتر الزوجة وشحوبها.. أفهم لماذا ذهبت نورا عند جدتها. هل رأت الزوجة هذا المشهد؟ لا أظن وإلا ما ظلت حية..

على الأرجح هي خمَّنت أو شعرت بشيء ما خطأ.. لكن لا تقل لي إنها رأت زوجها يمشي على الجدران وقبلت ذلك!

رأيت ذلك الشيء الذي يمشي على السقف ينحدر نحوي.. يهبط الجدار بسرعة خاطفة مما تميز الزواحف.. سرعة خاطفة تقطعها وقفات متحفزة حذرة. صمت تام يجعلك تشعر أن أذنك مختلة. فجأة وجدت يدي تطبق على سكين الطعام الضخمة تلك.. شعرت بأمان شديد وأنا أعتصرها.

هرعت إلى باب المطبخ فخرجت، ثم أغلقته خلفي في قوة وركضت إلى الصالة. هنا رأيت مقبض الباب ينفتح.. وفي اللحظة التالية كان شاكر يركض على قدميه متجهًا نحوي.. لقد تبدَّل وجهه فعلًا.. لم يعد وجه المهندس الظريف البارع صديقي القديم. هذا وجه.. وجه وَزَغَة.

سقطتُ على الأرض متعثرًا. مَن الحمار الذي وضع هذا البساط هنا؟

تمسكت بالشرشف، فجذبت مزهرية كانت فوقه لتسقط وتتهشم.. ثم وجدت نفسي راقدًا وقد جثم فوقي شاكر يحملق في وجهي بعينين زجاجيتين.. لسانه العملاق يتدلَّى نحو وجهي. كان هلعي لا يُوصف.. لا أعتقد أنني حرَّكت أنملة ولا أطلقت أي صوت.. فقط رفعت السكين لأعلى.. نحو قلبه.. وشعرت بالنصل يخترق شيئًا.. ثم أدركت أن الأمر انتهى.

إنه جسد خالٍ من الحياة يجثم فوق صدري.

نهضت بصعوبة وأنا أحاول استيعاب هذه الحقيقة المروعة.. لقد

مات شاكر. رأيت شفتيه الجافتين تحاولان نطق شيء.. في النهاية استطاع أن يقول بصوت كالفحيح:

ـ اقتل دكتور........ «أنطونيان».

ثم تجمَّد وجهه على هذا التعبير وهذه النظرة. كانت لديَّ في طفولتي دمية تفتح جفنيها وفمها.. وعندما نفدت الحجارة الجافة ظل وجهها في وضع واحد متصلِّب.. تذكرت هذا المشهد الآن.

سمعت صرخة حادة رفيعة من خلفي.. لم يكن من داعٍ للنظر لأعرف أنها مها الزوجة. لقد قُتل زوجها أمام عينيها، ولسوف يكون من الصعب أن أشرح أنه مَن فعل ذلك. هناك دعابة قديمة عن رجل الكويكرز (وهو مذهب ديني يميل للسلام) الذي وجد لصًّا في بيته فأخرج المسدس وصوَّبه عليه، وقال:

ـ عذرًا يا أخي.. لكنك تقف بالضبط في المكان الذي سأطلق فيه النار!

تذكَّرت هذه القصة الضاحكة وأنا في موقف مختلف تمامًا.

كم من الوقت يلزم رجال الشرطة حتى يجدوني؟ عندها فكرت فيك يا محمود.. سوف أتوارى عندك ولكن بعدما أعرف الإجابة.

هرعت أركض نازلًا في الدرج.. ركضت في الشارع وأنا لا أفكر إلا في شيء واحد: رامز.

ماذا دهاه؟

* * *

كان باب الشقة مواربًا.

دققت الجرس عدة مرات فلم يرد أحد.. طرقت الباب مرارًا.

كان هناك صوت عزف.. عزف رقيق على آلة وترية.. عزف لا يقدر عليه سوى رامز. دخلت إلى الشقة في حذر كأنني لص.. شقة فاخرة كما تعرف، ونورهان قد جعلت منها جنة، لكنْ هناك شيء خطأ.

رحت أبحث بين الحجرات عن رامز أو عن نورهان فلم أجد أحدًا.. أين الجميع؟

رامز يتمتع بأذنين حساستين جدًّا.. في الواقع هو يسمع «دبة النملة».. لهذا لا بد أنه سمع خطواتي. من المعتاد أن أقابل نورهان في الصالة.. هي لا تكف عن العمل كالنحلة.. أين الجميع؟

أخيرًا وجدت غرفة المكتب.. كانت مظلمة تمامًا والباب مواربًا.. فتحت الباب بحذر وأنا أنادي رامز.. شعرت بشكل ما أنه موجود.. لاحظ أنه لا يبصر، ويمكنه التواجد في الظلام بلا مشاكل.. قلت بصوت عالٍ:

ـ رامز.. أرجو أن تكون بخير.

لا رد.

ـ رامز.. ذلك الطبيب الأرمني.. لقد اكتشفت أنه يستعمل جينات حيوانية.. جينات يحقن بها المرضى ليستردوا حواسهم.. النتيجة هي أن المريض يتحول إلى حيوان آخر.

لا رد.

ـ رامز.. هل تسمعني؟

ثم سمعت صوتًا غريبًا.. بدأت عيناي تعتادان الظلام، وأدركت أنه لا يوجد أحد. هذا مكتب ومكتبة وأريكة.. لا أحد هنا.

لكن، لماذا نظرت إلى أعلى؟ لقد صارت عادة لديَّ أن أنظر إلى

أعلى.. لقد كان الحافز قويًا، وثمة شيء يعبث في مؤخرة رأسي. نظرت في هلع إلى أعلى وليتني ما نظرت.

أنت تعرف ما رأيت يا محمود، وتفهم الأمر.

كائن كفيف لكنه يسمع كل شيء.. الإجابة سهلة جدًا: الوطواط. بشكل ما كان يتدلَّى مقلوبًا من السقف، متعلقًا بركبتيه إلى دعامة عرضية قام بتثبيتها هناك، مغمض العينين يزوم نوعًا.

وفي لحظة وثب في الهواء ليسقط في اتجاهي.

هذه المرة لم أستطع الفرار ولم أكن مسلحًا، وشعرت به ينشب أسنانه الحادة في عنقي.. صرخت طالبًا أن يتريث، لكنه واصل مهمته. تُرى لماذا اختار الأرمني جينات وطواط مصَّاص للدماء؟

لم تطل العملية طويلًا.. لقد تناول وجبته.. وشعرت أن بوسعي أن أنهض. أما هو فقد نهض واتجه ليسترخي على الأريكة منهكًا راضيًا.

أنا ما زلت حيًّا.. دوار قاتل يعصف بي، وقدماي واهنتان لكنني حي.

اتجهت إلى الباب وبقعة سوداء كبيرة في مركز البصر.. موشك على فقدان الوعي فعلًا.. تُرى أين نورهان؟ هل فتك بها؟ هل هربت؟ على الدرج فقدت وعيي لبضع دقائق.. نهضت في النهاية، واستطعت أن أخرج إلى الشارع، واستوقفت سيارة أجرة.

* * *

الآن أنا في دارك يا محمود لا أحد يعرف أنني هنا.. أنت صحفي ويهمك أن تكتب تجربتي كاملة لكنني أرفض ببساطة أن تنشر الجزء التالي:

سوف أظل هنا أطول فترة ممكنة.. هات قرصًا من «الديازيبام» مع بعض الماء وكف عن الرجفة.

أنت تعرف أنني اتجهت إلى دكتور «أنطونيان».. تعرف أنني ابتعت سكينًا أخفيتها في ثيابي وأنا في الطريق إليه.. لقد قتلتُ صديقًا منذ ساعات، فلا بأس من قتل آخر أريح المجتمع منه. عندما انفردت به قلت له إنه دمر مستقبلنا جميعًا.. بل إن هناك قتيلًا وقاتلًا في الموضوع. الشرطة تبحث عني في كل مكان بلا شك ولا أحد يقدر على الفرار من الشرطة طويلًا.

وهنا أخرجت السكين.

حاولت طعنه، لكنني كنت واهنًا بعد ما فقدت من دم.. وكان الوغد سريع الحركة برغم سِنه، وعندما سقطت أرضًا تكأكأ عليَّ ثلاثة من الممرضين وقيدوني للأرض.

نهض الرجل إلى غرفة جانبية.. بعد قليل عاد حاملًا محقنًا.. وشمر ذراعي وهو يقول في وقار:

ـ أنت جلبت لي مريضين، لهذا أنا مدين لك بخدمة.. الشرطة تبحث عنك، لهذا يجب أن أساعدك على الاختباء.. على التواري.. على الفرار بسرعة وخفة.

قلت في وهن:

ـ بِمَ تحقنني؟

قال وهو يغرس الإبرة:

ـ جرعة مضاعفة.. سوف يبدأ العمل بعد ساعات.. لن تحتاج إلى جلسات أخرى.

ولا أعرف كيف وجدت نفسي في الشارع أبحث عن سيارة أجرة أخرى.

الآن يا محمود أنت تعرف قصتي بالكامل. ربما تأخذك الحمية فتذهب لتقبض على هذا الرجل أو تبلّغ عنه الشرطة. بالنسبة إليّ قد انتهى الأمر.. لقد قدّم لي الرجل خدمة عظيمة فعلًا.. يمكنك بسهولة أن تشم الرائحة.. يمكنك أن ترى الحراشف على يديّ.. يمكنك أن ترى شكل فكي.

هكذا صار بوسعي أن أفر، وأن أتوارى في أي مكان، وأن أختبئ في البالوعات.. لن يجدني رجال الشرطة أبدًا.

هات جرعة أخرى من الماء وقطعة خبز.

إن حياة الصرصور قد تكون مثيرة فعلًا.

mutilated.com

لهذا يحقق موقع «mutilated.com» معدلات مخيفة في الزيارة.. وهذا يدل على أن الناس ليسوا على ما يُرام تمامًا.. مَن يحب زيارة هذه المواقع الشنيعة هو بالتأكيد مريض نفسي آخر.. لا أحد يحب أن يرى جثة تم انتزاع عينيها.. لا أحد يحب أن يرى جرحًا امتلأ بالديدان، أو يرى مخ فتاة هشّمته عجلة الحافلة وعجنته بالأسفلت.

لا أحد يحب هذه الأمور أو هذا ما يخيل لك.. لكن عدّاد هذه المواقع يؤكد أن الموت سلعة مرغوبة ومشتهاة ومحبوبة. الموت البشع طبعًا.

مع الوقت بدأت تلك المجموعة من الصور تجتاح شبكة الإنترنت. يمكن أن تصلك في خطاب أو اثنين، لكن في الآونة الأخيرة بدا أن كل الخطابات تحوي مشهدًا أو اثنين. إن أفلام الفيديو صارت أقصر وأكثر وضوحًا.

هناك من يهوى زيارة تلك الأماكن الرهيبة.. الفكرة هي أنك تريد أن ترى أقصى مدى تصل إليه بشاعة الأمور، وبعد هذا تنتشي بأنك ما زلت حيًّا.

لهذا يحقق موقع «mutilated.com» معدلات مخيفة في الزيارة.. وهذا يدل على أن الناس ليسوا على ما يُرام تمامًا.. مَن يحب زيارة هذه المواقع الشنيعة هو بالتأكيد مريض نفسي آخر.. لا أحد يحب أن يرى جثة تم انتزاع عينيها.. لا أحد يحب أن يرى جرحًا امتلأ بالديدان، أو يرى مخ فتاة هشَّمته عجلة الحافلة وعجنته بالأسفلت.

لا أحد يحب هذه الأمور أو هذا ما يخيل لك.. لكن عدَّاد هذه

المواقع يؤكد أن الموت سلعة مرغوبة ومشتهاة ومحبوبة. الموت البشع طبعًا.

هناك بالتأكيد عنصر آخر.. ليس السادية فحسب، بل هو عامل طفولي يشبه ما نعرفه عندما كنا نخفي الضفادع في جيوبنا ونحن أطفال لنخيف الفتيات. إنه شعور من يهوى الغرائب والطرائف.. وفي الوقت ذاته لا بد من لمحة «رعب» أو «إرعاب».

هكذا دخل كثيرون هذا الموقع.. وهكذا رأى الكثيرون ما فيه من صور.. وهكذا بدأوا يرسلون لبعضهم ما وجدوه.

* * *

سأقول لكِ يا غادة إنك فعلًا تثيرين أعصابي في الفترة الأخيرة.. سأقول لك إنك كثيرة الطلب كثيرة الشكوك.. عصبية على شيء من التسلط.. سأقول لك إنني استنفدت حبي لك ولم أعد أستطيع تذكر الكهرباء القديمة.. الرجفة الأولى عندما كنت ألمس أناملك أو أراك وسط الزحام فتضحكين لي.

اشتهاء؟ هذا صحيح.. الشيء الوحيد الذي بقي والذي أحمله لك طيلة الوقت، فيما عدا هذا لا أطيق أن أقول لك كلمة حب أو أهمس لك بأي شيء رقيق.

بصراحة أنت مملة.. مملة.. متسلطة متسلطة.. لا تكفين عن التهام نفسك غيرة، وطباع الأنثى فيك متضخمة بحق.. عندما أقول إن فلانة جميلة تنهالين عليها بالسباب وكم هي متصنعة فاسدة ماجنة، فإذا قلت إن فلانة قبيحة وأنا أكرهها صارت أرق كائن في الوجود بالنسبة إليك.. أنتم الرجال ليس لكم في الطيب نصيب.

بصراحة لم أعد راغبًا إلا في الخلاص منك يا غادة، لكن كيف؟ لا أستطيع أن أقولها صراحة: اذهبي إلى حيث ألقت.

لا أملك هذه الجرأة.. التنصل الناعم والاختفاء بلا جدوى، لأنك تعرفين دومًا كيف تجدينني، وتعرفين كيف تتصلين من الشارع من رقم لا أعرفه، أو تأتين إلى المكتب الهندسي في وقت لا بد أن أكون فيه هناك، بشكل ما أنت تعرفين حفلات الزفاف التي أحضرها وتتواجدين فيها، بشكل ما تذهبين إلى السينما عندما أذهب أنا خلسة.. في كل مرة تتأبطين ذراعي قائلة إنك خطيبتي.. أعرف أن هذا صحيح لكنه وضع مؤقت، وعلى الأرجح لن يطول. أنت تضعين عليَّ خاتمك وعلامتك.. آسف للتعبير القاسي، لكنك تتصرفين كما يفعل الذئب البري عندما يقضي حاجته عند حدود مربع منطقته، فيُحرم على أي ذئب آخر الاقتراب.. كلما قابلتك تذكرت هذا التشبيه، وتذكرت أنك «territorial» بالمعنى الحرفي للكلمة.

هذا يزيد رُعبي. كل هذا التملك ونحن على البر فماذا عنا عندما تبحر السفينة، وعندما نصير في قلب المحيط، وعندما يصيح الصائحون أن العودة مستحيلة وأننا سنهوي من فوق حافة العالم؟

لن أنتظر.

سوف تفسخ الخطبة إن شاء الله.. سأكون شجاعًا وأفعلها.

سوف أتخلَّص منك إن شاء الله.. سأعود حرًّا.

لا أحد يضع علامته عليَّ.. لا أحد يضعني في منطقته.

اشتهاء؟ هذا صحيح.. الشيء الوحيد الذي بقي والذي أحمله لك طيلة الوقت، لكن ثمن الظفر به غالٍ جدًّا.. ثمن يساوي حياتي كلها.

سوف أتخلص منك يا غادة.. وعندها سوف تجدين أحمق آخر.

لماذا أنا بالذات؟

الحمقى كثيرون يا صغيرة.. اذهبي وجدي واحدًا سواي.

* * *

وصلتني أول الصور يوم الثلاثاء (لعله الأربعاء؟).

كنت جالسًا في مكتبي أتفقد البريد الإلكتروني. كالعادة هناك ألف خطاب من غادة، وهي تتوقع أنني أقرأ. طبعًا لا تتصور ولا تتخيل أنني أمسح الخطابات أولًا بأول.. لم أعد أطيق قراءة أفكارها السخيفة.

أعرف يقينًا أنها ترسل لي بعدة أسماء وهمية.. أسماء فتيات طبعًا. عندما ترسل لي فتاة اسمها «شيري المغربية» وتقول إنها رائعة الجمال وعندها ٢٠ سنة وتعشقني بجنون، فإنني أدرك أن هناك مقلبًا.. هذا نوع من الاختبار لأخلاقي.. وهذا النوع من الخطابات بالذات هو الذي أفتحه كي أغيظها.. لا بد أن أنثر عبارة أو عبارتي غزل في ردي لتُجن.

وصلني خطاب من فتاة تدعى «لوعة».. اسم آخر واضح أنه ملفق. لو كانت هناك فتاة اسمها لوعة فلا بد أنني عمر الشريف.

فتحت الخطاب فلم أجد أي كلام.. فقط هناك مشاهد بشعة لعملية تشريح جثة.

أربع صور تُظهر فتح البطن وإخراج الأحشاء و.. من السادي المجنون الذي يرسل لي صورًا كهذه؟

تخلصت من الخطاب طبعًا، لاعنًا أبا الملل الذي يدفع الناس للتسلية. للموت حُرمة، لذا لا أفهم أن تُقتحم لمجرد رغبة العبث.

فجأة وصل خطاب جديد ممن يدعى «ميدو». فتحت الخطاب ففوجئت بنفس الصور السابقة. مَن هذا؟ هل هي تفاصيل تشريح زعيم العالم، أم ماذا؟ بحثت عن اسم صاحب الجثة فلم أجد.. لا توجد أي بيانات.

بعد ساعة وجدت ثلاثة خطابات مماثلة.. لقد جُن الجميع إذن.

دققت في الصور أكثر.

هناك شعر كثيف.. مثلي.. هناك ندبة لجراحة زائدة دودية قديمة.

يبدو أننا نتشابه في أشياء كثيرة.. حتى هذا التيشيرت الذي ينزعونه عن الجثة في لقطة، عندي مثله بالضبط وقد كُتب عليه:

Go Get'em Joe

(هلم اظفر بهم يا جو)

الأمر غريب فعلًا.. لون البشرة واحد. لا أرى الوجه، لكن هناك قلادة حول العنق.. قلادة تشبه قرن الشطة.

قرن الشطة؟

الأمر يتجاوز فهمي للأمور.

هذه الجثة التي يشرحونها والتي تتدفق عليَّ صور عملية تشريحها، هي ببساطة جثتي أنا.. لا شك في هذا!

* * *

في الأيام التالية فطنت لحقيقة أن الإنترنت تعج بصور عملية تشريحي.. يبدو أن هذه أشهر صور في التاريخ، ولو كنت أكثر جرأة لطالبت بحق الأداء العلني. طبعًا لم أرَ وجهي في أي صورة، لكن الإنسان الذي لا يتعرف على سمات جسده أحمق.. وأنا لست أحمق.

كان الخاطر الأول الذي لاحقني هو أن هذا مقلب من غادة. إن الفوتوشوب هو لغة العصر، وسوف يأتي يوم نكتشف فيه أننا غير موجودين في هذا العالم، بل تمت إضافتنا بإحدى حيل فوتوشوب.

إذن هناك من استعمل صوري ولفقها على صور جثة.. والغرض هو ترويعي أو هي دعابة ثقيلة.

اتجه ذهني على الفور إلى غادة.. لو كان هناك مَن يفعلها فهو غادة، التي أثبتت أنها قادرة دومًا على ارتكاب أكثر الأفعال حماقة.

لقد قامت بالتلفيق على الأرجح، ثم راحت ترسل إليَّ هذه الصور من أكثر من حساب.. يمكننا أن نعرف أنها هي مودي ولوعة وأي واحد آخر.

على كل حال قررت أن أُجري بحثًا مدققًا عن هذه الصور.

كان هناك البحث الصوري الخاص ببرنامج جوجل، وهو عمل عبقري في رأيي.. تضع الصورة التي تريدها ثم تطلب منه البحث.

هكذا أجريت بحثًا بالصور عن صور تشريحي اللطيفة هذه.

هكذا وجدت ذلك الموقع اللعين «mutilated.com» وقد أصابني الهلع: موقع مهمته أن يعرض لنا صور الجثث التي كانت نهايتها شنيعة، أو تعرَّضت لأسوأ مصير، أو ـ في أبسط صورة ـ الجثث التي تحلَّلت أو تعفنت.

يبدو البحث هنا كأنك تبحث في مقبرة فعلًا، لكنني وجدت الصور أخيرًا.. وكان هناك عنوان يقول بالإنجليزية:

«من مصر.. الحب يصنع المعجزات»

وهو عنوان ساخر طبعًا، يعني أن هذه جريمة عاطفية لا تُصدق.

بدأت أقرأ الخبر، فوجدت أن صاحب الجثة رجل من مصر عمره خمسة وثلاثون عامًا، قتلته خطيبته بطريقة بشعة عندما حاول هجرها.

طريقة بشعة؟ ما هي؟ آه.. أدخلت قناة وريدية في عروقه ثم راحت تنفخ الهواء بفمها حتى أحدثت سدة هوائية.. تشنج وارتجف ثم مات.

يا ساتر يا رب. الغريب أن طريقة الوفاة واردة جدًّا بالنسبة إليَّ.. من الطبيعي جدًّا أن تقتلني غادة لو شعرت أنني أتملص منها. دعك من أنها طبيبة.. أي أن عندها الخبرة الطبية التي تجعل طريقة القتل هذه سهلة. هذا شيء لن يدهشني أبدًا. ذات مرة قلت لها إنني راغب في إنهاء العلاقة، فاتسعت عيناها، وصارت أقرب إلى نمر متوحش.. اتسعت عيناها جدًّا جدًّا وصارت الحدقتان كأنهما نقطتان بقلم وسط البياض، ثم قالت بصوت كالأفعى:

ـ ده انت تبقى سافل!

وكان هذا كافيًا لأن أضحك وأتظاهر بأنني أمزح. لقد رأيت لمحة من تحولها إلى أفعوان أسطوري مخيف خارج من ملاحم الخواجة «هوميروس». لا يا سيدي.. لتذهب الشجاعة إلى الجحيم.

الاحتمالات إذن أن هذه صدفة نادرة عجيبة جدًّا.. وفاة الشخص الذي يشبهني والذي له خطيبة تشبه خطيبتي. الاحتمال الثاني أن هذه صور مُلفقة أرسلها صانعها للموقع.. الموقع يستمد محتواه من القرَّاء.

رحت أتصفح باقي الصور.. تداخلت الرؤى الشنيعة في ذهني، لكنني توقفت للحظة عند صورة لرأس مقطوع معلق فوق سلك

هاتف على الطريق الزراعي.. وكل شيء يدل على أنها صورة مصرية أخرى. كان التعليق يقول:

«من مصر.. حافظ على رأسك عندما تركب القطار»

طريقة تعبير ساخرة أخرى.. حافظ على رأسك معناها «تعقَّل»..

كانت القصة التقليدية عن الرجل الذي ركب على ظهر القطار تفاديًا لدفع التذكرة، وبالطبع نسي ووقف بينما هناك جسر آتٍ بسرعة، طار الرأس واستقر على سلك الهاتف.

اكتفيت جدًّا من هذا الموقع، وشعرت بأن معدتي تتقلص. سوف أقضي ليلة ليلاء بسبب هذه الصور وهذا المزاج الأسود.

* * *

بعد يومين بالضبط وأنا في المكتب وجدت الخبر في الجريدة.

كان هناك خبر عن مُتسكِّع ركب فوق القطار المتجه من بنها إلى القاهرة، ويبدو أنه فقد رأسه بالمعنى الحرفي للكلمة. كانت هناك صورة للرأس.. لم تكن نفس الصورة في الموقع لكنهما نفس الشخص كما هو واضح.

بدأت يدي ترتجف.. حملت الجريدة ودخلت الحمام لا لشيء إلا لأنفعل دون عيون فضولية. الحادث وقع أمس.. أنا رأيت الصور منذ ثلاثة أيام.. ومعنى هذا أنها أُرسلت إلى الموقع قبل هذا بفترة.

هناك شيء غريب.

موقع «mutilated.com» هذا سابق لزمننا ببضعة أيام.. إن ما يظهر فيه من صور لم يكن قد حدث بعد عندما نشره الموقع.. لكنه سيحدث خلال أيام.

أرسلت إلى إدارة الموقع أسألها عن مصدر صور «من مصر.. الحب يصنع المعجزات»، ومتى أرسلت بالضبط.. لم يرد أحد عليَّ. في الواقع هذا الموقع غامض فعلًا.. سوف أحاول التحري عنه فيما بعد.

المهم في الموضوع أنني رأيت صور عملية تشريحي كاملة.

غادة حانقة.. غادة تغار عليَّ بشدة.

ليس هذا أنسب وقت للتخلص منها كما ترى.. عليَّ أن أتحكم في نفسي قليلًا.

لو كانت نظريتي صحيحة فأنا أسبق الناس بالعلم ببضعة أيام.. هذا مفيد جدًّا.. هذا مخيف جدًّا كذلك.

والسؤال هنا: لو استطعت أن أمنع غادة من قتلي فهل تتلاشى تلك الصور من الموقع؟ هل تختفي عند الناس الذين يحتفظون بها؟

يجب أن أحاول تحسين علاقتي معها.. يجب أن أحسِّن علاقتي بها جدًّا وفي الآن ذاته لا أنفرد بها أبدًا.

ربما كان من المفيد أن أسافر قليلًا وأبتعد.. لكن غادة تعرف دائمًا كيف تجدني.. لا جدوى من الفرار منها لأنها تشم رائحتي.

الفرار من غادة هو تحت الأرض فقط.

* * *

عندما تراقب الفتاة وهي تأكل فأنت تأخذ فكرة لا بأس بها عن طباعها الدفينة، ولعلك تذكر قصة شاعرنا العظيم الذي رأى حبيبته المطربة الرقيقة تأكل الفسيخ في شم النسيم، فأصابه الهلع وشُفي من حبها تمامًا. خصوصًا طريقتها في تهشيم البصل الأخضر كأنها مِعلم من وكالة البلح. هناك الفتاة التي تلتقط طعامها بحذر كأنها عصفور..

وكأنها تخشى أن يلمس شفتيها أو أناملها، وهناك الفتاة التي تعبث في طعامها كقِط وهي التي وصفها «فلوبير» ببراعة في «مدام بوفاري».

في هذا المطعم أراقب غادة وهي تأكل وتمزق شرائح اللحم بالشوكة والسكين، ثم تدس المكرونة في فمها كما ينقلون للفيل الدريس في السيرك القومي. عندما أرى هذا أرتجف.

أقول لها:

ـ ماذا تفعلين لو وجدت أنني لم أعد جوارك؟

نظرت إليَّ نظرة نارية، وقالت:

ـ تعني لو أنك مت؟

ـ أعني لو أنني رحلت.

قالت ضاحكة وقد التمعت الصلصة على شفتيها:

ـ أنت فعلًا ساذج.. إنسان بريء صافي النية.

ـ لماذا؟

ـ لأن انتقامي سيكون فريدًا من نوعه. لست فتاة بلهاء ممن يبكين، ولست امرأة حمقاء ممن يمزقن أزواجهن بالسكين.. سيكون انتقامي فريدًا لكنني لم أفكر فيه بعد.

قلت في سري: سوف أعطيك فكرة ممتازة.. لِمَ لا تثبتين إبرة وريدية ثم تنفخين فيها لتملئي عروقي بالهواء؟ تجربة فريدة ومثيرة هه؟

راحت تلوك اللحم بفم مفتوح، حتى توقعت أن تزأر ثم تتجه للنهر لتشرب.

قلت لنفسي: إن الوقت قد حان لقضاء بعض أيام في الساحل

الشمالي، في ذلك الشاليه الذي يملكه صاحبي ودعاني لأقيم فيه بضعة أيام.

سوف أبقى هناك لفترة.. متى أعود؟ أعتقد أن الإجابة واضحة: سأعود عندما تختفي تلك الصور من الموقع، وهكذا أعرف أن الخطر تلاشى.

* * *

هكذا كنت أقف من آن لآخر أراقب الشط والموج الأزرق.

كنا في ميلاد الشتاء، لهذا كان الطقس باردًا فعلًا، وكنت وحيدًا.. والوحدة تضخم الذكريات وتضخم المخاوف. لكن كان عندي اتصال بالإنترنت لحسن الحظ، وكان معي الهاتف أجري به مكالمات طويلة جدًّا مع أصدقائي وأتجاهل مكالمات غادة أو أرد بشكل مقتضب.

كنت أدخل موقع «mutilated.com» في كل يوم، فأجد أن صوري توارت جدًّا لكنها ما زالت موجودة. هناك مرة غريبة فعلًا، رأيت فيها صورًا لتشريح جثة تمساح.. هو مشهد بشع في حد ذاته، لكنني وجدت أنهم يخرجون من أحشائه أشلاء بشرية لفتاة.

الخبر يقول إن هذا حدث في مصر في الساحل الشمالي. ما معنى هذا السخف؟ لا توجد تماسيح في مصر طبعًا ولو وجدت فهي نيلية.. وما أبعدنا عن النيل هنا.

بعد ثلاثة أيام قرأت أن فتاة اختفت وهي تسبح في قرية بالساحل الشمالي. بعد أيام رأيت صور اصطياد تمساح وفتح بطنه. واضح أنه هو الذي فتك بالفتاة، وفيما بعد عرفت أن هناك من اشترى هذا التمساح طفلًا من مزرعة تماسيح مياه مالحة في أستراليا.. كالعادة

قام بتربيته في حوض زجاجي ثم كبر الوحش جدًا جدًا.. هكذا حمله وتخلَّص منه على الساحل ذات يوم.. ونسي كل شيء عنه.

ما حدث هو أن التمساح لم يمت.. تغذَّى على الأسماك وتضخَّم.. ثم بدأ يبحث عن صنف آخر من الطعام.. ولحُسن الحظ أنني لا أسبح.

هذا موقع مفيد حقًا.. يمكنني أن أنشئ جريدة تعتمد بالكامل على ما أراه فيه.. ونقطة القوة هنا هي أن أحدًا لا يعرف هذا اللغز.

لا أحد يلاحظ ارتباط الصور في الموقع بالواقع.. وعندما يلاحظ أحدهم ذلك يكون قد نسي إن كان الموقع نشر الصور قبل أم بعد.. بالطبع أي شخص عاقل سيفترض أن الموقع ينشر «بعد».. لو خطر ببال أحد أنه ينشر «قبل» لماجت الدنيا.

جاءت فرصة ذهبية بعد يوم واحد، عندما فتحت الموقع الشنيع لأجد صورًا رهيبة لسيارة تحترق.. وبدا كأن من كان يقودها حاول الزحف خارجها.. لكنه تفحَّم قبل أن يبتعد. صورة شنيعة جدًا.. والأهم أن التعليق يقول إنها من مصر، وإن الضباب هو السبب. وإن رقم السيارة واضح في الصور تمامًا.

هذه المرة شعرت بتأنيب ضمير شديد.

راجعت النشرات الجوية فوجدت أن الجو صحو تمامًا.. سوف تكون هناك شبورة بعد أسبوع من الآن.. وهذا معناه أن الموقع يمارس هوايته الخبيثة في التنبؤ.

لم أستطع الصمت أكثر، فاتصلت بصديق لي يعمل ضابطًا مهمًا في شرطة المرور، وطلبت منه بيانات عن السيارة وقائدها.

السيارة سليمة. قائدها شاب سعيد بسيارته ويمرح في شوارع القاهرة، عالمًا أنه لن يموت ولن يحترق أبدًا.

هكذا وجدت رقم هاتف معي فاتصلت به، وعندما سمعت صوت الفتى قلت له في إلحاح:

ـ أرجوك أن تبتعد عن الطريق السريع.. بالذات في وقت الشبورة.. قد لا تُصدق وقد تعتبرني مخبولًا.. لا يهم.. ما يهمني ألا تلمس عجلة سيارتك الطريق السريع في الفترة القادمة.

سألني في جزع عن شخصيتي.. مَن أنا؟

على كل حال عرفت أن نبوءتي المخيفة قد هزته فعلًا.. سوف يكون حذرًا.

وضعت السماعة راضيًا عن نفسي.

رضيت عن نفسي أكثر عندما فتحت الموقع بعد يومين فلم أجد أثرًا لتلك الصور.. اختفت تمامًا.

وهذا معناه أن قدر الرجل قد تغيَّر.. ليس قدره، بل ما كان الموقع اللعين يعتقد أنه كذلك.. لن يفقد حياته على الطريق السريع.

عُدت أبحث عن صوري فوجدتها كما هي.. بشعة كما هي.. كئيبة كما هي.

هكذا عرفت أن الخطر مستمر وقائم.. لم يتزحزح.

أنت تفهمني وتعرف أنني لست مولعًا بالعنف على الإطلاق.. لكنني أعتبر الموضوع دفاعًا مشروعًا عن النفس.

لهذا تفهم لماذا خطرت لي فكرة قتل غادة في هذه اللحظة بالضبط!

* * *

خطاب غريب في صندوق البريد الخاص بي.. فتحته في توجس لأن العنوان يحمل لفظة «mutilated.com».. كان الخطاب مكتوبًا بإنجليزية ممتازة فعلًا، وقد كتبه من يُدعى «مايكل أندروود» مدير الموقع:

سيدي

سرني أن تلقيت استفسارك بصدد الصور الخاصة بمصر، وأنا أقدّر حيرتك، بل أسمح لنفسي بأن أفترض أن هذه الصور تخص شخصًا تعرفه.. هنا أعترف لك أننا موقع غريب وأن لدينا إمكانيات غريبة، كما أن عقيدتنا نفسها مختلفة ويصعب أن أشرحها لك، ما لم تُرد بالطبع أن تكون واحدًا منا وهذا يستدعي إجراءات معقدة نوعًا. ما أريد قوله هو أننا لا نصنع هذه الصور ولا نلفّقها، ولكن يرسلها لنا مراسلونا عبر العالم. وما يمكنني قوله كذلك هو أننا لا نسبب الحوادث لكننا نرصدها.. والفارق الوحيد أننا نرصدها قبل حدوثها. لقد تقدَّم علم التنبؤ كثيرًا عن عهد «نوستراداموس»، وصار بوسع البعض أن يريك شريطًا كاملًا لما سيحدث. النصيحة التي أقدِّمها لك هي: هذه الصور أصلية، ليأخذ صاحبها الحذر، هكذا يمكنك أن ترى أننا نؤدي دورًا اجتماعيًا مهمًّا.

بإخلاص

مايكل أندروود

كان الخطاب غريبًا.. لم أتوقَّع أن يكون الكلام بهذا الوضوح وهذه الصراحة. هذا الرجل يعتنق عقيدة ما ويملك قدرات خاصة..

لن أندهش كثيرًا لو كان هو الشيطان نفسه.. وأعتقد أنه يحاول أن يضمني لهم. طبعًا لن أرد.

كنت أرمق الأمواج تتهشم على الشط شارد الذهن. ما زال هناك حل واحد واضحًا أمامي.

* * *

أن أقتل غادة.

لقد تأكدت يقينًا من أنها سوف تقتلني.

أنا أعتبر الموضوع دفاعًا عن النفس بلا شك.. لا أعرف رأيك ولا يهمني، لأن هذه حياتي أنا لو كنت قد لاحظت. لكن كيف أفعل ذلك؟

هناك الطرق العنيفة مثل الصراع وتهشيم رأسها أو طعنها...إلخ. طبعًا لا أستطيع الحصول على مسدس. إذن تبقى الطرق اليدوية العنيفة كما قلت، لكن عيبها هو أن غادة قوية.. غادة تملك عضلات هرقل وتأكل كالحلاليف البرية.

يمكنني بسهولة أن أراها تجثم فوقي وهي تردد:

ـ تريد قتلي؟ هه؟ أيها الخائن! سوف أريك مَن هي غادة.

تقول هذا وهي تقيد معصمي بالشريط اللاصق، ثم تغرس محقنًا مليئًا بالهواء في عروقي وتضغط الكباس.. هذا ما سيحدث بالتأكيد.

ماذا عن السموم؟ التخدير؟ هذه حلول واردة فعلًا.

هكذا بدأت خطتي تتبلور.. والأجمل أنها لن تكون عنيفة على الإطلاق.

بدأت أدرس موقع «mutilated.com» اللعين ببطء، وتابعت معظم

الحالات فيه.. لاحظت في دهشة أنني لم أعد قادرًا على العثور على صوري.. غاصت في قاع الموقع وصار من الصعب أن أجدها.

ما معنى هذا؟ هل احتمالات وفاتي تتراجع؟

إن الموقع لا يكف عن إبهاري.

يمكنك إذن أن تتصور حياتي وحدي في هذا الشاليه في الساحل الشمالي أرمق الموج الثائر، شاعرًا أنني أرى صورة لما يدور داخلي طيلة الوقت.

قتل أم لا قتل؟

على كل حال، يسهل أن يكون مخي في حالة تحلل متواصلة.. إنني أُجن بالتدريج ولا أدرك ذلك، والسبب تلك الصور اللعينة.

* * *

أن أقتل غادة.

بلا عنف لأن الشيطانة قادرة على تحطيم عنقي بسهولة. اتصلت بي مساء اليوم وقالت إنها قلقة عليَّ.. لماذا أمضي كل هذا الوقت عند أقاربي في كفر الشيخ؟ كان صوت الموج يتعالى من بعيد، لكنني احتفظت بنبرة من يجلس في كفر الشيخ، وقلت إنها مشاكل تتعلق بأرض قديمة. قالت ضاحكة إنها سوف تتولى كل أموري المالية يوم نتزوج.

سألتني عن خالتي صفاء فقلت إنها بخير. خالتي كانت في حفل الخطبة، وهي امرأة ظريفة جدًّا.

قالت غادة ضاحكة:

ـ هذا جميل.. لقد اتصلت بها اليوم فقالت إنها لم ترك منذ ستة أشهر!

ارتبكت للحظة فقالت كأنها تُكلِّم طفلًا:

ـ تؤ تؤ.. أشعر أن هناك كذبة في الطريق، و«بينوكيو» الصغير سيستطيل أنفه!

هنا صعد الدم لرأسي فقلت:

ـ غادة.. أنا شخص ناضج ولست مطالبًا بتقديم تقرير عن خطواتي، وبالتأكيد لن أطلب منك أن تتأكدي من كل خطوة.

ـ لا أطالبك بتقديم تقرير، لكن أطالبك بعدم الكذب.

كرهتها جدًّا لأنها وضعتني في موضع الكاذب الضعيف الذي يذود عن نفسه. كانت مكالمة عنيفة جدًّا، وأعتقد أنها خمنت أنني في سبيلي للرحيل قريبًا جدًّا.

وفي تلك الليلة عدت للموقع أتصفحه بدقة.

هذه المرة كانت هناك صور جديدة من مصر.

رحت أدقق في الصور.

هناك جثة فتاة.. ومن الواضح أن مَن قتلها قيَّدها جيدًا ثم ثبَّت كيسًا من البلاستيك بعناية حول رأسها.. إسفكسيا.. ميتة شنيعة فعلًا.. لا بد أنها استغرقت دقائق قاسية.

الكيس يُخفي الملامح.. لكنه لا يُخفي هذه البلوزة.. والقلادة حول الجيد. أعرفهما جيدًا جدًّا.

لحظة من فضلك.. هناك لقطة ليدها المقيدة كذلك.. الفتاة لم تمت دون أن تقاوم، ويبدو أنها مزَّقت جزءًا من تيشيرت القاتل.. وها هو ذا ظاهر تحت مخالبها.. هذا المشهد كان أكثر تخويفًا من صورة الجثة كلها.. لا أعرف السبب.

* * *

اتسعت عيناها جدًا جدًا وصارت الحدقتان كأنهما نقطتان بقلم وسط البياض، ثم قالت بصوت كالأفعى:

ـ ده انت تبقى سافل!

* * *

أعرف نسيج هذا التيشيرت الذي بقيت قطعة منه في يدها.

أنت رأيته من قبل.. هلم تذكّر.. ألا ترى بقايا مقطع:

'em Joe

يعني: هلم اظفر «بهم يا جو». هذا ما بقي منها.

لقد تغيَّرت الحظوظ.. ومن الواضح أن ما سأفعله سينجح.. والأهم أن الموقع أخبرني بالطريقة.. وهي طريقة شنيعة تناسب ما أحمله نحوها فعلًا.

هذه الليلة اختفت صوري تمامًا من موقع «mutilated.com».

* * *

كانت تنظر إليَّ.

العينان المجنونتان القاسيتان تنظران إليَّ. ما زلت أجد هذا الوجه شائقًا مغريًا، لكن في الوقت ذاته أخافه كثيرًا. أنت تجد الكثير من الجمال في الأفاعي بالتأكيد.. البعوضة حشرة رائعة الجمال رشيقة التصميم.. الخطر والموت لا يتعارضان مع الحُسن.

ـ تأخرت كثيرًا في... كفر الشيخ.

طبعًا هذه اللهجة والتلكؤ في نطق كفر الشيخ يدلان على أنها لا تُصدق حرفًا. قلت لها وأنا أمسح على شعري:

ـ مشاكل كثيرة بخصوص الأرض.. لم تكن نزهة.

ثم نظرت إلى وجهي طويلًا، وقالت:

ـ بدايات شارب.. نظارة سوداء.. بيريه.. تبدو غريبًا جدًا.. مثلما يتنكَّر العملاء في أفلام السينما.

ـ أحب أن أبدو مختلفًا.. هذا حق طبيعي.

الشيء الذي أعرف يقينًا أنني لن أغيره هو التيشيرت. التيشيرت اللعين الذي يحمل عبارة:

Go Get'em Joe

والسبب طبعًا هو أنني لا أريد أن أفسد الصور التي رأيتها في الموقع. قرأت قصص الخيال العلمي التي يعبث فيها البطل في الماضي، لكن لم أقرأ قصص خيال علمي يعبث فيها البطل في المستقبل الذي صار ماضيًا.. أو... هذا يثير الدوار فعلًا.

حلَّق طائر حولنا في ضوء الغسق وابتعد.

كنا جالسين على العشب في تلك الحديقة العامة.. هذه الحديقة تُغلق أبوابها بعد الثالثة عصرًا، لكن حارسها يريد أن يكسب بعض المال من وقت لآخر، ولهذا يسمح للعشاق بالتسلل.. التسلل إلى حديقة كاملة يملكانها هما فقط.. بالطبع يعرف الحارس ما يفعله وما يقود الشباب إليه، وهو عمل مُشين، لكنه قدَّم لي خدمة ممتازة.

اقترحت على غادة أن نذهب إلى تلك الحديقة معًا.. ووافقت هي مع أنها تعرف بالضبط طبيعة المكان. لعلها حسبت أن الهيام أفقدني صوابي.. وسرَّها هذا.. هذا من دواعي مقتي لها.. مستعدة

أن تمنحني أي شيء في أي وقت بلا اعتراض، مع أن بغض التمنّع يريحني ويطمئنني أنها تصلح.

كنت قد أطلت شاربي في الساحل الشمالي، وبدّلت الكثير من ملامحي. وهكذا عندما جعلنا الحارس نتسلل للحديقة احتفظ في ذاكرته بصورة غريبة لوجهي. فيما بعد سوف يصف للشرطة شخصًا آخر تمامًا غيري، لأنني سأكون قد حلقت الشارب وتخلّصت من النظارة والبيريه، ولسوف يتطوع عدة رفاق بالشهادة بأنني كنت معهم في تلك الأمسية.

جلسنا على العشب في الغسق الذي يوشك أن يصير ظلامًا.

أحب صوت صرصور الحقل وصوت نقيق الضفادع ليلًا.. هذه لغة الطبيعة ذاتها.. من الغريب أن ترتبط بأول جريمة قتل في حياتي.

أمد يدي إلى علبة العصير وأناولها واحدة وآخذ واحدة. العلبة ذات الشريط الأزرق على الجانب هي التي تحوي أقراص المنوم الذائبة.. لا تخلط الأوراق.

تمتص محتوى علبتها وعيناها تلمعان.

الآن وقد استقر العصير في معدتها قلت لها في هدوء:

ـ سوف ننهي الخطبة! أنا أحب فتاة أخرى!

عيناها تحولتا كالعادة إلى موقدي بوتاجاز وهي تنظر إليّ، ثم قالت بفحيح الثعابين:

ـ هل تمزح؟ تأتي بي هنا لتقول هذا الكلام؟

ـ هذا كلام يمكن أن يقال في أي مكان.

ألقت بالعلبة جانبًا وتقلّص وجهها.. سوف تزأر حالًا بلا شك. أنا إنسان ميت.. هل هناك نهر قريب تقصده لتشرب وتزيل مذاق الدم عن فمها؟

هنا لاحظت أنها تهتز.. نظرتها زائغة ويدها على جبهتها.. تهز شعرها ورأسها يترنح.

وفجأة أطبقت مخالبها على التيشيرت، وصاحت:

ـ مخدر! أنت وضعت لي مخدرًا!

لم أرد.. نظرت إليها بشيء من الخجل.. فكرت أن أبدأ العنف، لكنها بدأت تتهاوى.. وبرغم هذا مزّقت صدر التيشيرت الخاص بي.. بالذات عبارة: 'em Joe.

هكذا عرفت أنني سأنجح.

تهاوت على الأرض مغمضة العينين، فهرعت إلى حقيبتي الصغيرة أخرج الحبال والقفاز والكيس البلاستيكي. لا بد من التقييد فأنا لا أضمنها لحظة، ولو نهضت لهشّمت عظامي.

كانت مهمة قاسية ومريرة، لكنني استمتعت بها في النهاية. القفاز سوف يبقيني لغزًا بالنسبة إلى الشرطة، ولن يثبتوا شيئًا.. فقط سيعرفون أن لها خطيبًا وسوف يجعلون حياتي جحيمًا لفترة ثم يرحلون. آخر أنفاس لدى غادة.. وداعًا يا صغيرتي.

وداعًا...

الآن أرى دقة موقع «mutilated.com».. الصور هي بالضبط تلك التي نُشرت منذ أيام.

ما سر هذا الموقع؟ كيف يلتقطون صور الغد بهذه البساطة؟

سوف أعرف هذا فيما بعد.. لأنني سأغادر الحديقة من الباب الخلفي.. لن يراني هذا الحارس أخرج وحدي.

لقد ساد الظلام الآن.. ولولا ضوء النجوم لما رأيت يدي نفسها.

صوت غطيط غريب صدر من الجثة وجمَّد الدم في عروقي.. هل ما زالت تتنفس؟ لا أجرؤ على التيقن.

وداعًا يا غادة.. وداعًا.

أهرع جريًا عبر الحديقة موشكًا على فقدان الوعي من وجيب قلبي.. أترنح.. أنهض.. أتعثر في نافورة حجرية واطئة.

ضفدع يتواثب هاربًا.

صوت بومة في مكان ما.

وفجأة لم أعد أرى.

* * *

رأسي يؤلمني.. كنت مقيدًا في وضع غريب على الأرض جوار شجرة.. وكان الظلام دامسًا.

أدركت أن شريطًا لاصقًا على فمي كذلك.

لكنني أرى هذا الشخص الذي ينحني عليَّ وبين أسنانه كشاف مضيء. تأثير غريب فعلًا يجعله كأنه تنين يبعث الضوء من فمه.

كان يلهث في استمتاع.. يلهث في انفعال.. يلهث من الضغط العصبي.

لما رآني أحاول الحركة، قال وهو يعري كمي:

ـ صبرًا.. سوف أجد الوريد حالًا!

كان الكلام يخرج غريبًا مشوهًا، لأن الكشاف بين أسنانه.. لكنني سمعت لفظة «وريد».. وريد؟

قال وهو يخرج قناة وريدية وجهاز محلول:

ـ معذرة.. لا بد من تفسير قبل أن تموت.. هذا حقك.

ثم راح يبحث عن وريد يُثبِّت فيه القناة الوريدية على ضوء الكشاف.. أي!

ـ وجدته.. لا مؤاخذة.. أنا مولع بالقتل.. يمكنك القول إنني سفاح تتابعي يبدأ العمل.. ولأنني طبيب تم فصله من النقابة، فقد قررت أن أتسلى.. أقتل الناس بأساليب طبية مختلفة.. اليوم دخلت هذه الحديقة بحثًا عن ضحية مناسبة فقادك قدرك لي.. في الظلام. ضربة على مؤخرة عنقك ثم نبدأ الحفل.. هل تعرف كيف سأقتلك؟

قلت من وراء الكمامة:

ـ مم ممف.. مف مف.

أي باختصار:

ـ سوف تُثبِّت قناة وريدية وتنفخ الهواء فيها حتى أموت بسدة هوائية!

هذا واضح وسهل.

مد يده إلى التيشيرت، وأشار إلى الصدر الممزق، وقال:

ـ مَن مزَّق هذا التيشيرت؟ كأنك كنت ملتحمًا مع نمر قبل أن أراك!

جثة غادة هناك تحت شجرة.. لن يراها أحد قبل الغد.. وسوف تصير هذه الحديقة حديقة أشباح يخاف الأطفال المرور جوارها.

يد السفاح تتحسس عنقي ثم يقول:

ـ جميلة هذه القلادة.. على شكل قرن شطة.. سوف أتركها لك!

قلادة قرن الشطة! لماذا ارتديتها اليوم؟ كانت موجودة في صور مصرعي.. الموقع يتصرَّف بدقة عظيمة.. إن موقع «mutilated.com» يحترم روَّاده فعلًا.

لقد نشر الموقع صورًا لجثتي من قبل، وهو لا يقبل أن يكذب على القراء بصور زائفة.

مَن يدري؟ ربما لم تكن غادة خطرة.. ولربما تلاعب الموقع بي ليجعلني قاتلًا مرة وجثة مرة أخرى.

السفاح يقرب فوهة جهاز المحلول من شفتيه بعدما أبعد الكشاف. يقول وهو يأخذ نفسًا عميقًا:

ـ استعِد.. سيكون هذا مؤلمًا جدًّا لأن السدة الهوائية ستصل للعضلات والرئة والشرايين التاجية.. أي أنك ستتلوى كدودة تحترق.. لا تقلق. سيكون الموت سريعًا.. رحلة طيبة يا صاحبي.. هوف ف ف ف ف ف ف ف ف!

الأرشيف

ربما تُصدِّق أو لا تُصدِّق يا دكتور.. أنا مصَّاص دماء.. كل شيء في خلاياي يقول إنني مصَّاص دماء، وإنني بحاجة للدم البشري لأعيش. عندي كذلك يقين مطلق بأن عليَّ أن أتخذ لنفسي جماعة من الأتباع. لا تعتبر ما أقوله لك معلومات مفروغًا منها.. لكن ماذا لو افترضنا أنني مريض جدًّا؟ ماذا لو افترضنا أنني اشتريت لنفسي بيتًا صغيرًا في قرية وحاولت أن أنعزل هناك مع التوابيت ومع بعض كتب السحر.. ثم بدأت أصنع لنفسي دائرة من أربعة أتباع.. أقول إننا نفترض هذا.

إعلان مناقصة

لشراء عشرة صناديق خشبية حجم الصندوق ٢ متر في متر عرضًا، وذلك لشركة خاصة تعمل في مجال التخزين. الاتصال برقم «.......» لتحديد موعد للمقابلة. يتم شراء كراسة الشروط وتحديد العطاءات في ١٢ يوليو ١٩٨٨.

إعلانات مبوبة

مطلوب شراء أو استئجار شقة دور أرضي مساحتها لا تقل عن ١٢٠ مترًا في إحدى الضواحي، أو قرية جوار القاهرة. الاتصال برقم «.......». الوسطاء والسماسرة يمتنعون.

للبيع: سيارة فولفو مو ١٩٧٨ زرقاء بحالة ممتازة. رخصة صالحة لمدة عامين. اتصل برقم «.......».

للبيع: مجموعة كتب قديمة ذات قيمة أثرية عالية. كلها باللغة اللاتينية. للجادين والدارسين فقط. اتصل برقم «.......».

صفحة الحوادث

للمرة الرابعة في شهر واحد قام أهالي قرية «ميت السواري» بالقليوبية، بقطع الطريق السريع على السيارات احتجاجًا على تكرار حوادث نبش مقابر القرية. ويُذكر أن الحادث الأول وقع منذ شهر واحد، حيث فوجئ الأهالي بثلاثة قبور منبوشة وفارغة، اثنان من هذه القبور يخصان أسرة «المهدي» والثالث يخص أسرة «القليوبي»، وبرغم قيام الشرطة بالتحقيق في الحادث وبرغم تعيين حراسة مشددة على المقابر مع خفيرين مسلحين، فإن سرقة المقابر تكررت بعد هذا بأسبوع، ومن جديد وجدوا قبورًا خاوية تمامًا. وبرغم تزايد الإجراءات الأمنية وقعت السرقة الأخيرة. ويعتقد رجال الشرطة أن الأمر يتعلق بمحاولة مجموعة من طلبة الطب الحصول على هياكل للدراسة، وهي جريمة حدثت من قبل وتمكن الأهالي من وقفها. يعود هذا الشك لكون بعض الأهالي رأوا سيارة فولفو زرقاء غريبة عن القرية قرب المقابر في أكثر من واقعة. من الجهة الأخرى يؤمن أهالي القرية بأن هذه الجثث تُسرق لغرض سحري أو من أجل الأعمال السُّفلية. تولى الرائد «.......» والعقيد «.......» التحقيق.

* * *

صفحة «لكل مشكلة حل» في مجلة «منوعات»

عزيزتي راندا

هل تؤمنين بالقوى الخارقة والأعمال السُّفلية؟ أنا طالبة في كلية الحقوق جامعة «.......»، ومن أسرة متوسطة محترمة.. نقيم في مدينة قليوب. المشكلة هي أن والدتي تؤمن فعلًا بموضوع الأعمال والسحر الأسود، وهي ترى العفاريت والأشباح في كل ركن، وتؤمن أن هناك عملًا تحت كل عتبة. هي مثلًا تؤمن أن هناك عملًا معمولًا لي حتى لا أتزوج. هذا كلام جميل لولا أنني في العشرين وبالتأكيد لم يفتني أي قطار، بل إن زميلي في الكلية يهيم بي حبًّا وسوف يتقدم لي بمجرد التخرج.

جاءت أمي منذ أسبوعين بجمجمة غريبة الشكل.. لست معتادة على الجماجم طبعًا لأقول إن هذه غريبة وهذه طبيعية، كل الجماجم مرعبة وتوحي بالموت، لكن أثار جنوني أن أمي تعتبرها كائنًا حيًّا وتُكلِّمها. تقول إنها فتاة تُدعى صفاء في مثل سني، وقد قتلها أخوها في جريمة شرف. طبعًا لا أحب كثيرًا هذه الخلفيات. السؤال الثاني هو من أين جاءت أمي بهذه الجمجمة؟ قالت إنها أخذتها من الشيخ بسطويسي الذي يعرف هذه الأمور. لا أعرف مَن هو الشيخ بسطويسي طبعًا، ولدى أمي على كل حال حشد من الشيوخ الذين يعرفون هذه الأمور.. لا أول لهم ولا آخر.. تُطلق عليهم «أولياء الله الصالحين»، وتعاملهم بتقديس شديد. هذا ما يطلقون عليه التدين البديل في مصر.

طيب.. سنقبل موضوع أن الشيخ بسطويسي أعطاها الجمجمة، ولكن لماذا يحتفظ المرء بجمجمة فتاة اسمها صفاء؟

قالت أمي إن هذا عمل خيِّر، لأن الجمجمة تحمل عملًا سفليًّا ضد فتاة معينة، وكي يبطل العمل يجب ألا تدفن في التراب.. لهذا تحتفظ أمي بالجمجمة في الصندرة بدارنا وترفض أي حوار منطقي.. تصوري أنني أعتقد أنها تتفاءل بها!

راندا.. قولي لي ما يجب أن أفعله لأنني فعلًا موشكة على الجنون من هذا الجو النفسي المريض، لكن بالطبع لا تطلبي أن أتشاجر مع أمي.

هالة. س - قليوب

* * *

عزيزتي هالة. س

خطابك له معزة خاصة لديَّ لأنني من قليوب مثلك، قبل أن تبتلعني القاهرة الشبيهة بالندَّاهة فتوقعني في غرامها. فعلًا أندهش جدًّا كلما قرأت عن هذا التدين البديل الذي يمارسه بعض المصريين، وللأسف لا أستطيع ألا أصفه بالكفر الصريح لمجرد أن الأمر يتعلق بأمك. أولًا: للموت حرمة أكيدة، لذا أنصحك بأن تقومي بسرقة هذه الجمجمة ودفنها في التراب.. هذا هو مكانها الذي اختاره الله. ثانيًا: أنصحك بأن تساعدي والدتك على قراءة صحيح الدين، بعيدًا عن جو الخرافات النسوية هذا. ربما أمكنك الاستعانة بقريب لك ليساعدها.. وأذكرك بأن من نفث في عقدة فقد كفر.. هذا لعب أكيد بالنار.

اكتبي لي دائمًا.

راندا

* * *

م.ع.هـ - قليوب: بالتأكيد يمكنك طرد هذا المستأجر من بيتك. من الواضح أنه أخل بالتزامه بالعقد، وأنت تقول إنه يصدر أصواتًا مزعجة تضايق الجيران، وقد حرروا له عدة محاضر، كما أنه لا يظهر في النهار أبدًا لكنه في الليل يقيم على ما يبدو حفلات صاخبة. تقول إنك خائف منه وتخشى أن يتحرش بك، لكن أؤكد لك أن القانون في صفك.

* * *

عزيزي هاني

أعرف أنك لم تعتد تلقي خطابات بالبريد الإلكتروني مني، وأننا نتكلم بالهاتف لسهولته.. لكنني أريد فقط أن أرتب أفكاري. كنت أراجع أرشيف مجلتنا على الإنترنت عندما وجدت إعلانًا عن مناقصة لشراء عشرة صناديق خشبية. لا أعرف أهمية هذه الصناديق، لكن خطر لي أن رقم الهاتف مألوف. وعلى سبيل الفضول أجريت بحثًا عن هذا الرقم في الأرشيف.. وجدت إعلانات غريبة فعلًا.. بيع كتب باللاتينية.. بيع سيارة فولفو.. شراء شقة بالطابق الأرضي.

ألا يثير هذا فضولك؟ أعرف أن هناك ألغازًا عديدة أثارت ريبة الشرطة عندما قلبوا صفحات الإعلانات، وأنا هنا أتساءل: ما الذي يجمع بين هذه الطلبات الغريبة، وكلها في مدى أقل من شهرين؟ هل لديك فكرة ما؟

راندا

* * *

عزيزتي راندا

فكرة غريبة أن تبحثي عن الإعلانات المرتبطة برقم هاتف معين. بالتأكيد لم يجرب هذا أي واحد منا من قبل، وعلى كل حال لست ميالًا إلى وجود أي ارتباط.. وحتى لو كان هناك ارتباط فمن حق أي واحد أن يبتاع صناديق وأن يبحث عن شقة. أنا بحثت عن هذا الرقم على الإنترنت ووجدت عن طريق جوجل إعلانين.. لا شك أن صاحب هذا الهاتف يعشق الشراء والبيع لا أكثر.

أقترح أن تكفّي عن طريقة البارانويا هذه وتعيشي حياتك. أتابع ردودك على القرّاء في المجلة وتعجبني جدًا. تحلين المشاكل بسلاسة وسرعة

فائقة، وإنني لأتساءل: لماذا لا تحلين مشكلتك العاطفية الخاصة؟

دمت لي.

هاني

* * *

عزيزي هاني

ربما أنت محق.. هناك لحظات أعتقد فيها أنني ذكية أكثر من اللازم، أو أن أنفي شديد الحساسية، لا بد أن هذا يندرج تحت قائمة الغرور الأنثوي الزائد. الأنثى تعتقد أنها أذكى من الرجل ومن أي واحد آخر. هذا شيء معتاد ومعروف. أنت تعرف أن من يصيح أولًا أنه يشم رائحة شياط هو غالبًا أنثى.. والرجال يعتبرون هذه هستيريا. لكن دعني أؤكد لك أنني بعد زلزال ١٩٩٢ شعرت بالأرض تترجرج ذات مرة، وقال كل الناس إنني مخبولة، وبعد هذا قرأت في الصحف عن موجة ارتجاج ضعيفة جدًا من التوابع.

مشكلتي العاطفية الخاصة؟ أنت؟

أنا أحبك كثيرًا، لكنني مازلت لا أجد الشجاعة كي أمنحك حياتي وكل شيء. الزواج خطوة مرعبة جدًا وجبارة تشبه الوثب فوق الهاوية، وأنا أخشى هذه الوثبة جدًا، برغم أنني لو وثبت فلن أختار سوى هاويتك أنت. أرجو أن تتحملني أكثر يا هاني.

راندا

* * *

عزيزتي راندا

هل تذكرين مشكلتي مع الجمجمة؟ أنا هالة من قليوب التي رددت عليها منذ عددين. كانت عندنا خادمة مسنة اسمها أم أيمن، أعطيتها بعض المال وطلبت منها أن تتخلص من تلك الجمجمة اللعينة. هناك مقابر قريبة ويمكن أن يتم كل شيء بسهولة. تسللت المرأة وقد لفت الجمجمة في قميص قديم.. وكان عليها أن تعطيها للحَّاد وتجعله يقسم بالله إنه سيدفنها.. ما حدث هو أنها تأخرت ساعة كاملة.. ثم عادت ومعها ذات القميص بما فيه.. لم تكن تتكلم وفي عينيها نظرة رعب لا يمكن وصفها.. كانت تنظر إليَّ بفزع ومقت لا شك فيهما.. ثم دخلت فراشها على الأرض ونامت.. نامت حتى هذه اللحظة لأنها أصيبت بغيبوبة عميقة لم يجد لها الأطباء تفسيرًا.

ماذا حدث هناك؟ لا أعرف. ربما كانت تخشى المقابر وأصابها فزع شديد هناك. سمعت عن رجل أصابه الخرس لأن هناك من ربت على ظهره وهو يمشي في المقابر ليلًا.

على كل حال قررت أن أفعل أنا الأمر بنفسي. هذه المرة اتجهت إلى المقابر في نور النهار.. وبحثت عن شجرة تين عجوز حفرت تحتها.. صنعت حفرة لا بأس بها وتأهبت لأضع الجمجمة فيها.

هنا سمعت صوتًا واضحًا قويًّا يقول: «لا تفعلي!».

مَن قال هذا؟ نظرت حولي لأرى فلم أجد أحدًا.. حاولت من جديد.. ومن جديد تكرر الصوت. أصابني هلع شديد وتركت الجمجمة حيث هي وجريت مبتعدة.

لا أعرف السبب.. لكن خُيل إليَّ أنني أسمع ضجيجًا، كأن رجالًا غاضبين يركضون.. وسمعت مَن يقول بصوت عالٍ: «لصة المقابر! إنها هي!».

لم أفهم ما يحدث.. لكنني أطلقت لساقيَّ العنان، وأخيرًا وصلت إلى بيتي لاهثة منهكة.

رقدت في فراشي لفترة لا بأس بها، ثم سمعت صوت شخص يتكلم.. نهضت لأرى مَنْ، فوجدت أمي في الصالة جالسة أمام الجمجمة وقد أضاءت بعض الشموع حولها وكانت تقول كلامًا غير مفهوم.

كيف عادت الجمجمة؟ أقسم بالله إنني تخلصت منها.. هل هي جمجمة أخرى؟

دخلت على أمي فأجفلت. سألتها: «هل هذه.. هل هذه صفاء؟».

قالت في دهشة: «ومَن غيرها؟».

وكانت صادقة.. الجمجمة لها شخصية واضحة ويمكن تمييزها عن الجماجم الأخرى.

الآن ما رأيك يا راندا؟ أنا خائفة من البيت وخائفة من أمي.. لكن الأهم أنني خائفة من نفسي.

هالة. س ـ قليوب

* * *

عزيزتي هالة. س

بصراحة أمك تثير الفزع فعلًا، وما زلت أعتقد أنه لا بد من الاستعانة بقريب لك كي يعيدها لجادة الصواب. أما بالنسبة لموضوع الجمجمة فأنت تعرفين رأيي طبعًا..

هذا نوع من الخبال.. أنت على شفا الجنون أو الانهيار العصبي، ولا بد أنك أعدت الجمجمة للبيت وأنت لا تشعرين. مَن طاردوك في المقابر هم قوم حسبوا أنك ممن ينبشون القبور، وهو ما يجعلني أعتقد أنك لست من قليوب نفسها، بل من قرية مجاورة لها اسمها «ميت السواري». أخبار هذه القرية تعددت مرارًا في الصحف، لأن أهلها يشكون من عصابات تنبش القبور. يمكن بسهولة افتراض أنهم حسبوك أنت من يرتكب هذه الجريمة، ولعلهم كادوا يفتكون بأم أيمن هذه من قبل لنفس السبب.

اقرئي القرآن، وحاولي أن تنسي هذا الكلام الفارغ. بالمناسبة: هل والدتك ترى أعداد هذه المجلة؟ كوني حذرة.. لو قرأتها لعرفت من كاتب الرسالة على الفور!

راندا

صيدلية الشفاء ـ قليوب
مبيعات
دورميكام (أقراص منومة)
خمس علب

صفحة الحوادث

يواصل رجال البحث الجنائي التحقيق في مصرع هالة. س. من قرية «ميت السواري» بقليوب. طالبة حقوق في العشرين من عمرها.. تم العثور على الجثة بوساطة حانوتي كان يقوم بفتح تربة مغلقة من ترب المقبرة، عندما وجد الفتاة متوفاة وبثيابها الكاملة، وحالة الجثة تدل على أنها توفيت منذ يوم لا أكثر، ويبدو أنها كانت حية، وكانت تحاول الخروج من المقبرة. هذا أثار الرعب في القرية، بينما تؤكد أم الفتاة أن ابنتها لم تغادر البيت منذ يومين، إلا أنها اختفت قبل الوفاة بيوم ولم تعرف سبب خروجها ولا مكانها. يعتقد رجال الشرطة أن هناك من استدرج الفتاة للمقابر ثم قام بسجنها في مقبرة أغلقها بالأسمنت، ولولا نقص الهواء لظلت حية حتى يحفر الحانوتي القبر بطريق الصدفة.

* * *

عزيزي هاني

أشعر بقلق.. لا أنام جيدًا أبدًا.. كلما نمت رأيت جمجمة غريبة المنظر تلاحقني.. تضحك بلا توقف.. هل

تعتقد أنني مريضة نفسيًا أو أني بحاجة لرأي طبيب؟

راندا

* * *

صفحة الحوادث

للمرة الثانية يتكرر سيناريو الجثث المقتولة في ظروف غامضة في قرية «ميت السواري» بقليوب. في هذه المرة تم العثور على جثة شيخ مُسن يطلق عليه أهل القرية اسم «بسطويسي»، وذلك قرب الجمعية الزراعية بالبلدة، وقد تبين أن هناك من قام بتهشيم رأسه بأداة ثقيلة. قال أهالي القرية إن الشيخ لم يكن له أعداء، وقد اعتاد أهل القرية أن يتبركوا به باعتباره يتصل بعالم الجان، أي أنه مشعوذ. لكن لم يستطع أحد أن يتهم شخصًا بالقتل. وقد تبين في ثياب الشيخ الداخلية وجود مبلغ ضخم من المال يبدو أنه يشكل مدخراته، وهو ما ينفي فكرة القتل للسرقة.

جدير بالذكر أن القرية تتعرض منذ فترة لحوادث مختلفة غريبة، منها السطو على القبور، ومنها العثور على فتاة شابة طالبة بكلية الحقوق، من الواضح أنها دُفنت حية. وتقوم المباحث بالتحقيق في هذه الملابسات الغريبة.

صفحة طبيبك الخاص

نوال. ف ـ القليوبية: أعراض فقر الدم التي تصفينها غامضة جدًا.. لا يوجد سبب للنزف كما تقولين، وليست الدورة الشهرية هي السبب.. لكن التحاليل التي أرسلتها تدل بلا شك على فقد مزمن للدم وأنيميا نقص الحديد.. هنا نفكر في الجهاز الهضمي. النزف الخفي من القناة الهضمية احتمال وارد جدًا ولا يمكن تشخيصه إلا بفحص معين يتم على البراز.. أعتقد أن أي طبيب تحاليل يمكن أن يساعدك.

م. عبد الجواد ـ ميت السواري: يبدو أن هذا يوم فقر الدم. هذه على كل حال آفة المصريين. رقم الهيموجلوبين هو ٥ جم، وهذا رقم مرعب. لا بد من طلب رأي طبيب.

* * *

أعزائي

هذه المرة أجيب عن خطاب لم يصلني ولن يصلني أبدًا، وصاحبته هي هالة. س. فتاة القليوبية، التي عاشت أيامًا قاسية مع السحر والخرافات، وكنت أنتظر ردها عليَّ لتخبرني بالمزيد، ثم قرأت في مجلتنا بالذات قصة حادث مروع عن فتاة

شابة وجدوا جثتها في مقبرة في قرية بالقليوبية، وكل شيء يؤكد أنها كانت حية عندما دخلت القبر. كان من السهل أن أعرف مَن هي الفتاة.. كل شيء يتفق مع قصتها وكذلك كلامها. تأثرت كثيرًا جدًا.. والأهم أنني شعرت بأن سرًا غامضًا يوجد في تلك القرية، سرًا مخيفًا تموت لأجله فتاة شابة.

بالطبع كانت خطابات الفتاة تتضمن أكثر مما كتبته هنا. في الواقع هناك أسرار لا أجرؤ على التلميح لها، ولكنني أضعها ببساطة تحت يد من يهتم بالقصة وبهذه الفتاة البائسة.

لقد قُتلت هالة. س.. وما أعرفه هو أن دمها لن يضيع بلا ثمن.

راندا

ركن هواة الأدب

شعر رائد. ع – مصر:

أنا لم أحبك بالأمس، لأن الأمس قد فات
وأنا لن أحبك اليوم، لأن اليوم أيضًا سينتهي
لكنني سأحبك يوم غد لأن الأيام القادمة لن تنتهي

*

لو كنت كلمة تخرج من فمي ما تكلمت
ولو كنت دمعة تسيل من عيني ما بكيت
حبستك في قلبي ولن أدعك تذهبين إلى أي مكان

*

شروق الشمس حقيقة وغروبها كذلك
وخفقان قلبي أيضًا حقيقة، وانتهاء النهار كذلك
ماذا يحصل لو أننا عددنا الحقائق واحدة واحدة؟
إنني أحبك، وتلك هي الحقيقة الكبرى

*

شعر رائع فعلًا يا رائد.. برغم تحرره من التفعيلة وحرف الرَّوي، فهو يفيض بالإحساس. أرجو أن ترسل إلينا المزيد. لا شك أنني سأسعد القرّاء بقراءة المزيد.

ركن هواة الأدب

عزيزتي راندا

أعتقد أنه لا جدوى من أن أقدِّم لك اسمي قبل أن أتكلم قليلًا.. يجب أن تعرفيني أولًا. أتابع منذ فترة طويلة هذا الركن الشائق الذي تكتبين فيه حلولًا لمشاكل القرَّاء، ولا أبالغ إذا قلت إن هذا هو أهم ركن في المجلة كلها، وأنا أبدأ التصفح منه دومًا. آراؤك حكيمة متزنة وتدل على عقل راجح، برغم أن الصورة المنشورة لك لا يمكن أن تتجاوز الثلاثين عامًا بحال. أنا رائد العليمي.. أديب وشاعر في الثانية والأربعين من عمري. يمكنك مطالعة بعض أشعاري في العدد السابق من مجلتكم بالذات. أرجو أن تدوم المراسلات بيننا.

رائد

* * *

عزيزي رائد

أنا فعلًا منبهرة بشعرك.. ومنبهرة بخطابك الرقيق.. أهم من هذا تلك الزهور الرائعة التي أرسلتها على عنوان المجلة.. أنت إنسان نادر فعلًا.

راندا

* * *

عزيزتي راندا

هل أنا أتخيل أم أنني أفقدك فعلًا ببطء؟ لا أعرف سبب هذا التجاهل ولا كل هذا البرود الذي تتعاملين به معي، ولا الامتناع عن الرد على خطاباتي. عندما قابلتك في المجلة اختلقت الأعذار لتفري من الغرفة.. ماذا يحدث هنا؟ فعلًا أنا مصدوم.

هاني

* * *

عزيزي هاني

أنت تهذي بلا شك.. لم يتغير شيء.. فقط أنا مشغولة جدًّا في الفترة السابقة وسأظل كذلك لفترة وهذا من حقي على ما أعتقد.

راندا

فاتورة

محلات سعفان للأدوات المنزلية

السيد رائد العليمي

عدد ٣ سكين حجم كبير
عدد ٢ سكين متوسط
عدد ١ ساطور
بالطول ١٠ متر حبل غسيل

عزيزتي راندا

كما يحدث في الأفلام السينمائية، أرى أنك أخطأت وقمت بتبديل خطابين.. كتبت خطابًا لذلك المدعو رائد وأرسلته إليَّ، وهذا خلط يحدث كثيرًا. كما أرى يبدو أنك تحملين ودًّا واضحًا لهذا الرجل. لنقل إن هذا يتجاوز الاهتمام المهني نوعًا.. أنت بدأت تقعين في غرامه لو كان لي أن أقول هذا.

أضيف لهذا نزعة الإنكار الواضحة والميل للكذب.. عندما تؤكد الأنثى أن شيئًا لم يحدث يعرف الرجل بسهولة أن أشياء حدثت. ماذا تعرفين عنه يا راندا سوى أشعاره الرديئة التي نشرت مجلتنا بعضها؟ فعلًا هذا شيء غريب.

هاني

* * *

عزيزي هاني

من جديد تمارس دور الرجل الشرقي الذي يعتقد أنه لا بد أن يأخذ الفتاة الشرقية كصفقة متكاملة.. مشاعرها.. تفكيرها.. جسدها.. لا يمكن أن يسمح لها بأفكار منفصلة أو تجارب منفصلة.. لا شيء سوى الاهتمام المهني يربطني برائد. كف عن هذا السخف الشرقي.. لا تترك نفسك تنزلق للفخ الشهير ونتشاجر ونتجافى.. أنت بدأت التنفيذ فعلًا.

هذا هو إنذاري الأخير يا هاني.. كف عن التدخل في شؤوني من فضلك.. أرجوك أنا لا أريد أن أكرهك.

راندا

* * *

عزيزتي راندا

أما والأمور كذلك.. فأنا أفضِّل الصمت.

هاني

* * *

صفحة طبيبك الخاص

مروة سلامة ـ القليوبية: هذا فقر دم واضح.. تقولين إنه حدث في ليلة واحدة.. لو كان هذا صحيحًا ـ وأنا أشك فيه ـ فهو لا يحدث إلا نتيجة لنزف شديد أو لتكسير عام في الخلايا الحمراء بالدم. لا بد من رأي مختص بأمراض الدم.. كما أقترح أن تُجري فحصًا لنخاع العظام.

* * *

م. ع. هـ ـ قليوب: لا حل لهذا الساكن المزعج سوى أن تحرر له محضرًا في حالة تلبس.. لا بد من إبلاغ النيابة لترتب مراقبة لمنزله.. أرى كذلك أن تحاول مقابلته لتنذره بشكل واضح وصريح ومتحضر.. أرجو ألا تندفع أو تفقد رباطة جأشك فالقانون في صفك.

* * *

صفحة الحوادث

العثور على جثة ممزقة في المجاري في «.......» مركز قليوب.

وجد أحد الأهالي الجثة عندما حاول أن يعرف سبب انسداد ترنش الصرف الواقع جوار منزله، وعندها تبين وجود الجثة التي لم يستطع أحد التعرف عليها، وكما يقول الشهود بدا كأن القاتل كان يتدرب على استعمال السكين على هذه الجثة. ثم انتقل إلى مكان الحادث العقيد «.......» والرائد «.......»، وقد قاما بمعاينة الجثة، واستطاعا تحديد شخصية المتوفَّى، وهو تاجر يُدعى محمد عطية هيبة، ولا يُعرف سبب الجريمة ولا الملابسات التي أدت للقتل. أمرت النيابة بتشريح الجثة ومواصلة التحقيق.

* * *

عزيزتي راندا

الآن نحن نعرف بعضنا جيدًا.. وإنني لأصبو فعلًا إلى اللقاء الأول. أقترح أن نتقابل بعيدًا عن المجلة التي تعملين فيها منعًا للقيل والقال.. سوف تعرفين عني أكثر وأعدك أن أكون مسليًا كقطة في ليلة صيف. ما رأيك في نزهة في المقطم بالسيارة؟ سيارتي ستكون تحت أمرك في أي وقت تطلبين. لو لم يرُق لك موضوع المقطم فلا مشكلة.. اختاري أنت المكان.

رائد

* * *

عزيزي رائد

ضحكت كثيرًا من موضوع المقطم هذا.. يبدو أنك تحمل بعض الشكوك بصددي.. لا أعرف السبب، لكن سماعي بموضوع لقاء عاطفي في المقطم يثير ريبتي ولعل السبب كثرة ما تلقيت من خطابات المشاكل. لا بد من ذئب بشري يحاول التغرير بفتاة رقيقة أو ذئبة بشرية تدعي أنها ليست كذلك. المهم أن موضوع المقطم

لا يناسبني.. ما رأيك في أي مقهى في وسط البلد؟

راندا

* * *

عزيزتي راندا

لا بأس.. سوف نلتقي ثم نذهب إلى أي مكان يروق لك.. سيارتي من طراز رينو.. بيضاء صغيرة الحجم. كنت أملك سيارة فولفو ثم بعتها.. كبيرة جدًّا بالنسبة لزحام القاهرة. على فكرة أنا أملك عزبة صغيرة جوار قليوب.. قرية صغيرة هناك أذهب إليها كلما أردت كتابة الشعر.. ربما نذهب هناك يومًا ما. ليكن لقاؤنا إذن يوم الأربعاء الساعة ٨ مساء في مقهى «.......». لا تقلقي بصدد شكلي.. أنا أعرفك جيدًا من الصورة المنشورة جوار المقال.

رائد

* * *

عزيزي رائد

أنت تُحسن الظن بي.. صورة المقال؟ أنت تعرف صور المقالات هذه، وكما يقول الدكتور خالد منتصر: نحن نختار أصغر صورة ممكنة لنضعها جوار المقال، لدرجة أن أحد الأدباء قد يضع صورة السونار التي تُظهره في رحم أمه! على كل حال أنا لست عجوزًا شمطاء تركب مكنسة.. سوف تعرفني بالتأكيد. سلام.

راندا

* * *

صفحة طبيبك الخاص

ر. ع ـ القاهرة: هذا الجوع إلى الدم واللحم النيء الذي تصفه.. ربما يحدث في بعض حالات مرض «البورفيريا»، كما قد يحدث في الحمل لدى بعض النساء. بصراحة معلوماتك غريبة ومتناقضة، وأرى أن تطلب رأي طبيب بشكل مباشر.. هناك مشاكل لا يمكن حلها بالمراسلة البريدية.

* * *

عزيزتي راندا

هناك شكوك كثيرة تحيط بهذا الرائد ع.. الذي تعرفينه. أنت تعرفين أن هناك اختراعًا مفيدًا اسمه جوجل.. لقد وضعت بعضًا من أشعاره في محرك البحث.. النتيجة هي أن هذا الشعر ليس شعره على الإطلاق.. إنه شعر تُركي مترجم للعربية.. الخلاصة أن هذا الرجل نصّاب فعلًا ولا يمكن أن تثقي به..

يبدو أن كلامي مصدره الحقد لكن أريد مزية الشك.. وما لا يمكن نفيه لا يمكن إثباته.. ماذا لو كان نصّابًا فعلًا وكنت أنا على حق؟ أليس هذا واردًا؟ أرجو أن تأخذي الحذر.

هاني

* * *

عزيزي هاني

في الحقيقة، لا أنكر أنه إنسان جذاب وأنه قادر على أن يفقد الفتاة صوابها، لكن أرجو أن تثق بي. الفكرة هي أنني ألقيت في مقالاتي طعمًا معينًا يقول: «بالطبع كانت خطابات الفتاة تتضمن أكثر مما كتبته هنا. في الواقع هناك أسرار لا أجرؤ على التلميح لها، ولكنني أضعها ببساطة تحت يد من يهتم بالقصة وبهذه الفتاة البائسة». هذا كلام فارغ طبعًا لأنني لا أعرف عن الفتاة سوى ما قلته، لكن خطابات رائد هذا انهمرت عليَّ بعدها.. فما السبب؟

راندا

* * *

عزيزتي راندا

هل تعنين ما فهمته فعلًا؟ أنت شككت في أن وفاة هالة. س. هذه بفعل فاعل، ودسست هذا الطُّعم؟ ثم ظهر شخص متحمس لصداقتك.. شخص جاء من لا مكان ويريد مقابلتك بأي شكل، ويرسل لك أشعارًا زائفة. في الحقيقة لا أعتقد ذلك.. من الوارد جدًّا ألا يكون القاتل من قرّاء مجلتك أصلًا.. ولا يستطيع الوصول إلى الأرشيف.. لم أعرف أن القتلة يهوون قراءة مجلتنا. ثم من الوارد جدًّا أن يكون رائد مجرد معجب شاء حظه العاثر أن يختار هذا الوقت بالذات. لا تندفعي.. أنت تسبحين في مياه خطرة وبصراحة لا أعرف كيف ينتهي هذا كله على خير.

هاني

* * *

عزيزي هاني

كما قلت لك أرسَل لي صورته.. بصراحة هو وسيم فعلًا ويتصرف كأمير ويعامل الفتاة كملكة.. بصراحة أيضًا لم أفتح معه في خطاباتي موضوع الأشعار الزائفة.. ربما كانت زلة صبيانية تقع لكثيرين على كل حال. من جديد تحدث عن العزبة الصغيرة جوار

قليوب.. هذا يثير أسئلة كثيرة لديَّ.. إذن هو «متورط» بشكل ما مع قليوب.. أنامله ملوثة بهذه القصة بشكل ما. راح يسألني عن عملي فحكيت له عن فتاة تدعى هالة كانت أمها تهوى السحر وجلبت جمجمة للبيت، ثم وجدوا الفتاة مدفونة. حكيت له هذه القصة فلم يعلق ولم يبدُ مهتمًّا.. كما أنني شعرت بأنه لا يعرف شيئًا عن الموضوع، لكنه كان يعرف الكثير عن حوادث نهب المقابر في قرية مجاورة للعزبة التي يملكها.

على كل حال، اتفقنا على اللقاء في مقهى يوم الأربعاء الساعة ٨ مساء.. سوف أتمكن من الحكم عليه فعلًا.. من السهل أن تخدع أي شخص وأنت تكتب، لكن مواجهة العينين تعري كل شيء. سوف أعرف يقينًا ما إذا كان مجرد معجب أم أنه الصيد الذي جلبه الطعم.

راندا

* * *

عزيزي هاني

لم يحضر! هذا غريب! ذهبت إلى هناك وحدي وجلست بانتظاره لفترة طويلة. لاحظ أننا لم نتبادل أرقام الهاتف وهذا غريب.. ربما لأنني ظللت أعتبره مجرد قارئ لفترة طويلة.. لم أرد أن تصير الأمور حميمة جدًّا. هكذا جلست ألوم نفسي على غبائي وأنتظر وأنتظر.

مرت ساعة كاملة والساقي يمر وينظر إليَّ في شك كأنني أنتظر زبونًا، في النهاية فرغت من شرب قدحي قهوة وكوب عصير وانصرفت. حانقة أنا على قلة ذوقه، وحانقة على غبائي عندما لم آخذ رقم هاتفه. والسؤال هو: ما مغزى هذه المناورة؟ هل شك في أمري؟ هل فهم الكمين؟ أم أنه بالفعل لا علاقة له بالموضوع؟ فعلًا لا أفهم.

راندا

* * *

عزيزتي راندا

لا أعتقد أن الأمر انتهى بهذه السهولة.. لو كان قاتلًا فلن يترك شاهدة خطرة مثلك تفلت منه، ولو كان بريئًا فلن يفوت فرصة التقرب من حسناء مثلك. من الوارد أن ظرفًا قويًّا منعه.. ربما سقطت سيارته في المحيط وابتلعه حوت عملاق، وهذا معناه أنني طاهر الذيل ودعائي

مستجاب. كوني حذرة عندما يتصل
ثانية.. سوف يقدم أعذارًا قوية.
طبعًا أنت فتاة ناضجة وقد شبعت
من أفلام ماجدة القديمة، والوغد
الذي يقول للفتاة إن أمه مريضة
جدًا وسوف تموت، من ثَمّ تهرع
البطلة إلى شقته لتجد أنه أعد التفاح
وزجاجة الشمبانيا. أنت أذكى من
هذا!!

هاني

* * *

عزيزتي راندا

لم تصلني منك خطابات منذ
يومين، ومن الواضح أنك لا تردين
على الهاتف أبدًا كعادتك.. خيرًا؟

هاني

* * *

عزيزتي راندا

فعلًا بدأت أقلق.. في الجريدة
لم يرك أحد منذ فترة.. اتصلوا بك
مرارًا بلا جدوى.

هاني

* * *

عزيزتي راندا

أين أنت؟

هاني

أمر إداري رقم....... بتاريخ.......: توجيه إنذار بوقف التعامل إلى الآنسة/ راندا عامر، المحررة بالمجلة، والمسؤولة عن باب «لكل مشكلة حل»، وذلك لانقطاعها عن العمل بدون إذن منذ يوم.......

عزيزي أستاذ سراج

أشكرك كثيرًا على ما قدّمته لي من
عون.. أنت تعرف أنني جرّبت كثيرًا
الاتصال بهذا الرقم الهاتفي لكن لا
جدوى.. من الواضح أن الخط قد ألغي
تمامًا، لكنك قدّمت لي خدمة ممتازة
بما قمت به من تحريات.. الخط كان
باسم من يُدعى هاني فهمي، ويبدو
أنه كان يستعمل هذا الخط فقط للرد
على بعض الراغبين في التعامل مع
مجموعة إعلانات نشرها في مجلتنا،
ثم لم يعد يستخدم الخط بعدما انتفى
الغرض منه.. أشكرك كثيرًا على هذه
المعلومات.

راندا

* * *

عزيزي هاني

أنا آسفة على ما سببته لك من ذعر..
فعلًا أنا حمقاء، خصوصًا أنك لا تعرف
عنوان بيتي ولا طريقة للاتصال بي غير
هاتفي والبريد الإلكتروني. كنت بحاجة
لبضعة أيام في إجازة.. أشعر كذلك أني
أريد ترتيب أفكاري وترتيب عواطفي.
كنت أريد لقاءك جديًّا.. لكن أريد أن
يتم هذا بعيدًا عن القاهرة وزحامها..
لا بد من وقت طويل ممتد نتبادل فيه
الأفكار.. لكن قبل أن نتقابل لا بد من
أن تجيب عن سؤالي بصراحة: هل أنت
رائد العليمي؟ رائد العليمي الذي يرسل
إليَّ الشعر، ومعجب بي، ولم أره قطّ،
وعندما حدد لي موعدًا لم يأتِ.. أنت
هو رائد.. قل هذا لأعرف أننا نتكلم
بصراحة وأن بوسعي الثقة بك أكثر.

راندا

* * *

عزيزتي راندا

فعلًا الحب يدفع المرء لأمور
غريبة.. أنا آسف وأعتذر بشدة، لكنني
شعرت أنك تبتعدين عني طيلة الوقت..
خطر لي أن أجرّب دخول حياتك باسم
مستعار لأعرف ما ستفعلين وقتها: هل
ستقعين في حب فرصة سانحة كهذه أم
لا؟ النتيجة هي أنك نجحت بامتياز..
أنا بحاجة لذلك اللقاء فعلًا.. ما رأيك
في أن أمر عليك غدًا الساعة «.......»
لآخذك بسيارتي؟

هاني

* * *

عزيزي هاني

موافقة.. على فكرة أنت كنت تملك
سيارة فولفو زرقاء فيما سبق.. تصوَّر
أنني نسيت هذا تمامًا.

راندا

* * *

عزيزتي راندا

ملحوظة غريبة! لكنها حقيقية.

هاني

* * *

عزيزي دكتور عزمي، محرر باب
«مشاكلك النفسية»

ربما تُصدِّق أو لا تُصدِّق يا دكتور..
أنا مصّاص دماء.. كل شيء في
خلاياي يقول إنني مصّاص دماء،
وإنني بحاجة للدم البشري لأعيش.
عندي كذلك يقين مطلق بأن عليَّ
أن أتخذ لنفسي جماعة من الأتباع.
لا تعتبر ما أقوله لك معلومات
مفروغًا منها.. لكن ماذا لو افترضنا

أنني مريض جدًا؟ ماذا لو افترضنا أنني اشتريت لنفسي بيتًا صغيرًا في قرية وحاولت أن أنعزل هناك مع التوابيت ومع بعض كتب السحر.. ثم بدأت أصنع لنفسي دائرة من أربعة أتباع.. أقول إننا نفترض هذا.. ماذا لو بدأنا نسطو على مقابر القرية من حين لآخر لممارسة السحر، وماذا لو احترف أتباعي هواية التسلل لبعض البيوت ليخدروا أتباعها ويسرقوا منهم بعض الدم بمحقن؟ ماذا لو تعاملت مع مشعوذ من تلك القرية ليساعدني في الحصول على الجثث؟

تقول إنني أخرف يا دكتور.. هذا وارد جدًا.. معك حق.. لكن ماذا عن الذين يتدخلون في حياتي ويحاولون منعي؟ فتاة ريفية بلهاء تشك في كل شيء، المشعوذ الذي يريد أن يتكلم، زميلة عمل كنت أحبها فعلًا لكنها تطارد قضيتي بإلحاح وتهتم بها جدًا.. إنها تلمح إلى أنها تعرف أشياء لا أعرفها.

إن عملي يتيح لي متابعة أشياء كثيرة يا دكتور.. سوف تندهش من كم الحقائق التي يمكن استخلاصها من متابعة ظواهر معينة.. مثلًا صفحات مجلتكم هذه.. تصور أنني انتحلت شخصية أخرى لأعرف ما تعرفه هذه البلهاء عني.

عندما يضيق حولي الحصار.. وعندما أشعر بأن الناس تطاردني أتحول إلى مجنون حقيقي.. لا أرى سوى الدم.

عندما تقرأ أنت هذا الخطاب يا سيدي سيكون يوم السبت قد انتهى.. يوم السبت هو اليوم الذي ستأتي معي فيه زميلة العمل إلى هذا البيت بالذات لتفهم ولتتبين شكوكها بصددي.. هذه هي المشكلة.. هي لا تعرف ما هي منقادة إليه.. لا تعرف ما سوف يحدث لها.. هذه المرة لن يجد أحد جثتًا على الإطلاق، لأنها ستصير جزءًا من أساس البيت.. لأنني سأنتقل لمكان آخر وأبدأ باسم جديد.

يوم السبت قادم يا دكتور عزمي.. أرجو ألا تأخذ كلامي بجدية.. أنا أثرثر معك فقط.. هاهاها... كنت تنصحنا بألا نترك شيئًا يقف في طريق أحلامنا.. واليوم أنا في موقف مشابه.. فتاة فضولية تقف في طريق تحولي.. ماذا كنت ستفعل يا دكتور عزمي؟ هه؟ قل لي: ماذا كنت ستفعل؟

المخلص

هـ. ف

حزر.. فزر

نحن ندعو المُشاهد لرؤية برامجنا المتميزة على قناة «نوفا».. قناة «نوفا» وباقة برامجها متاحة فقط لعدد قليل من المشاهدين المحظوظين.. قناة «نوفا» تمتاز بأنها مشفَّرة ولا يمكن سرقتها.. كما أننا نراقب المستخدمين للتأكد من أنها لا تُسرق عن طريق الكابل. اشترك في قناة «نوفا» اليوم.. اتصل بالرقم التالي ليصلك مندوب قناة «نوفا» إلى مقر سكنك ويقوم بتركيب القناة بنفسه.. مع قناة «نوفا» لن تعود الحياة كما كانت.

أضواء تتوهج.. الكشافات تصوب نحو المنصة العالية التي يجلس إليها المتسابقون.. موسيقى.. يشير مساعد المخرج الشاب العصبي للشباب الذين جاءوا ليلعبوا دور الجمهور كي يصفقوا، وينظر إليهم نظرة نارية.

يضيء شعار القناة «نوفا» مع بروفايل أنيق شامخ للمذيع غسان يوسف.

يتحرك الكرين كوحش أسطوري يهبط من عل.

تقترب الكاميرا الأولى من وجوه الضيوف، وعلى الشاشة العملاقة في ركن الاستوديو يظهر وجه مي العصبي المتوتر قليلًا.. هذه مرّتها الأولى على الشاشة كما هو واضح. عندما تكتشف الحقيقة المروعة أن الكاميرا مسلّطة على وجهها والجمهور يرى كل حبة وكل قطرة عرق على بشرتها.. يرون عينيها العسليتين ويرون ارتباكها والكلمات المتعثرة على شفتيها.. هذا لا يجعل حالتها أفضل.

المذيع الشاب المتأنق الوسيم غسان يبدو كأنه دمية لامعة يقف خلف منصته البعيدة ويطلب منها أن تعرف نفسها.. فتقول:

ـ م.. م.. يسين م.. هسة.. كت.. محركات.

قال ضاحكًا مشجعًا:

ـ لو تكلمت بصوت أعلى لكان هذا لطفًا منك.

ابتلعت ريقها وقالت بصوت متهدج:

ـ مي حسين مهندسة في شركة محركات هي...

رفع يده في حزم ليُسكتها هنا، وقال:

ـ لا تذكري اسم الشركة من فضلك.. متى سمعت يا مي عن برنامج «لقاء أصدقاء نوفا»؟

ـ سمعت عنه من صديقة لي.. ثم عرفت أن بوسعي المشاركة.. وجوائز كذلك.. أنا مخطوبة وما زال استكمال الشقة مشكلة.

نظر المذيع إلى الكاميرا فانقضت عليه، وصاح بصوت مدوٍّ:

ـ مي حسين.. ضيف برنامج «غسان يوسف ولقاء أصدقاء نوفا».. ضيفنا الثاني هو...

واقترب من رجل أصلع بدين نوعًا.. هذا النمط المعروف الذي يصنعونه بالجملة: بدين.. مرح.. غزير العرق.. طيب القلب.. ثم ينقلب مزاجه ليصير اكتئابيًا لدرجة الانتحار دونما سبب واضح.. الشخصية ثنائية القطبية كما يجب أن تكون.

يضحك الضيف في بلاهة ويقول وهو يجفف عرقه:

ـ إبراهيم رمزي.. مدير حسابات.

ـ مرحبًا بك.. أما ضيفنا الثالث فهو...

قالها فقاطع الرجل الذي بدا يحب الظهور وكان ينتظر المزيد من الأسئلة بالذات عن الطريقة التي سمع بها عن البرنامج.. بدا له هذا غير عادل.. واحمر وجهه متبرمًا.

الضيف الثالث كان امرأة بدينة في الخمسين من عمرها، شرسة كالنمور، قوية الشخصية، تضع طنًا من المساحيق لدرجة أن رائحتها صارت خانقة.. يمكنك أن تفتتح عدة محلات لبيع مساحيق التجميل لو سلخت هذه السيدة.. لا حاجة لتعريف نفسها.. هذا النمط المتعالي المقاتل بادي الشراسة لا بد أن يكون...

ـ مدير عام في التربية والتعليم.. نجوى الشربيني.

غريب أن تهتم هذه السيدة ببرامج المسابقات.. وغريب أن تشاهد التلفزيون أصلًا.. لكن يبدو أن هذه هي الحقيقة، وكان من الواضح أنها تعتبر الحياة كلها مباراة مصارعة لا بد أن تشعر الناس بعدم الراحة كي تربحها.

ـ الآن مع هذا الفاصل الإعلاني.

* * *

نحن ندعو المُشاهد لرؤية برامجنا المتميزة على قناة «نوفا».. قناة «نوفا» وباقة برامجها متاحة فقط لعدد قليل من المشاهدين المحظوظين.. قناة «نوفا» تمتاز بأنها مشفرة ولا يمكن سرقتها.. كما أننا نراقب المستخدمين للتأكد من أنها لا تُسرق عن طريق الكابل. اشترك في قناة «نوفا» اليوم.. اتصل بالرقم التالي ليصلك مندوب

قناة «نوفا» إلى مقر سكنك ويقوم بتركيب القناة بنفسه..
مع قناة «نوفا» لن تعود الحياة كما كانت.

* * *

عادت الكاميرا للاستوديو وتعالت أصوات التصفيق من الشباب.

راحت الكاميرا تستعرض وجوه الجالسين.. إن الجائزة الأولى هي نصف مليون جنيه.. لا توجد خدعة ما ولا ألعاب ضريبية مما يجيدها المحامون والمحاسبون.

هذا يستدعي الكثير من القلق والتوتر.. يشي بذلك هذا العرق المحتشد على الجباه.

هناك غرفة مغلقة بستار أحمر في مركز القاعة.. يمكنك بسهولة أن تدرك أن هناك رجلًا واقفًا هناك.. لا ترى سوى الظلال أو السلويت الخاص به.

- كما هو المعتاد في برنامجنا.. يجب أن يخمن كل واحد من الضيوف مهنة الرجل عن طريق سؤال واحد.. سؤال واحد فقط في كل مرة يجيب عنه الضيف بنعم أو لا.

ثم نظر نحو مي وقال:

- دورك يا مي.

حكت مي شعرها في توتر.. ابتلعت ريقها.. تذكرت المقولة القديمة حول ما هو الأكثر إرعابًا: أن تخطب في الجمهور الجالس في حفل التأبين في الكنيسة أم تكون أنت الجثة الراقدة في التابوت؟ يرى معظم الناس أن دور الخطيب أكثر إرعابًا!

قالت مي متمهلة:

- هل عملك في النهار أم الليل؟

لم يكن سؤالًا مما يجاب عنه بنعم أو لا.. لكن الجميع أدرك ما تريد قوله.. ساد صمت طويل ثم قال الرجل خلف الستار:

- في الليل فقط.

كان عليها أن تصمت هنا وتترك الزمام للمتسابق الثاني.. كانت مغتاظة لأن الحل صار قريبًا جدًا.

جاء دور إبراهيم رمزي.. جفف عرقه وضحك ضحكة عريضة من الخد للخد وقال:

- هل أنت حارس ليلي؟

جاء الصوت في ثبات:

- لا.

جاء دور السيدة الشرسة، فسألت بصوت باتر حاد:

- هل أنت شرطي؟

- لا.

* * *

تقع استوديوهات قناة «نوفا» خارج القاهرة في موضع بعيد في الصحراء.. لا علاقة لها بمدينة الإنتاج الإعلامي ولا أي استوديوهات معروفة. الرحلة إلى هناك تستغرق ثلاث ساعات وعليك أن تقاوم القيظ والظمأ طيلة الطريق، لذا كانت السيارة تتوقف من حين لآخر من أجل شرب أي شيء.

وتذكرت مي أنها لم ترَ البرنامج على الهواء قطُّ لأنه مشفر.. ما رأته هو حلقات مسجلة على جهاز الكمبيوتر الخاص بها، لهذا لن تجلس

أمها أمام الشاشة تتابعها في فخر.. لن تراها إلا عندما تحصل على القرص المدمج الخاص بها.

المهم الآن أن الأسئلة تبدو سهلة وهذا يعقد الأمور. في المدرسة كانت تمقت الامتحانات السهلة لأن كل زميلاتها يجبن عنها.. وبالطبع يفعلن هذا أسرع وأكثر كفاءة منها. النتيجة أنها تتراجع إلى موضع متأخر مع أنها الأفضل.

من الواضح أن تلك المرأة الشرسة سوف تخمن أسرع منها.

* * *

قال غسان يوسف بعد الفاصل.. وكان يخاطب العدسة بحاسته التي لا تخطئ في العثور على مركز الاهتمام:

ـ رجل يعمل في الليل وليس شرطيًا ولا حارسًا ليليًا.. ما هو سؤالك التالي يا مي؟

قالت مي قبل أن تفكر:

ـ هل أنت مصّاص دماء؟

ـ لا.

قالها الرجل في ثبات وهدوء.. كأن هذا سؤال طبيعي معتاد.

احمر وجهها بسبب غبائها.. لقد انزلق لسانها في سخف وهكذا أضاعت فرصة من فرصها. الحقيقة أن فكرة مصّاص الدماء زارتها فجأة وانزلقت إلى لسانها قبل أن تجد الوقت الكافي للتفكير.

يا لي من غبية.. نحن لا نمزح هنا.

قال غسان وتلك الابتسامة الخبيثة الساحرة على شفتيه:

ـ ماذا دفعك لهذا الاعتقاد؟

ـ لا أدري.

ـ للأسف أضعت فرصة ممتازة في سؤال لا معنى له. والآن فلنر ما يسأله الأستاذ إبراهيم رمزي.

اقتربت الكاميرا من وجه البدين الضاحك.. لقد كف عن الضحك وبدا جادًا جدًا.

سأل الضيف الغامض:

ـ هل أنت متزوج؟

قال الرجل بذات البرود:

ـ لا.. مستحيل!

لماذا ينفي ذلك بقوة؟ فكرت مي في ذلك.. هل هو مصاب بعيب يمنعه من الزواج؟ هل يكره النساء؟ هل هناك مهنة ترغم العامل بها على عدم الزواج؟ ما زال الأمر لغزًا.

* * *

انتقلت الكاميرا إلى السيدة الشرسة نجوى الشربيني، وقد ارتسمت على وجهها مسحة امتعاض وراحت تقول بكل جلاء: التواجد في هذا المكان لا يليق بي.

ملأ وجهها المتنمر المغطى بالأصباغ الشاشة، وقد توقفت الموسيقى بانتظار سؤالها.

قالت في تؤدة:

ـ هل عملك له علاقة بالطب؟

ساد الصمت قليلًا، ثم قال الرجل خلف الستار في تؤدة ضاغطًا على كلماته:

- لا.

واجه المذيع غسان الكاميرا والتمعت عيناه أكثر.. هذا الرجل يجيد فن جعل العينين تلمعان كأن عنده زرًّا يضغط عليه عند الحاجة.

قال غسان بينما الموسيقى تتعالى:

- لقد أتممنا دورتين، لكن ما زالت إجابة اللغز مبهمة.. يجب أن أذكّر المتسابقين أننا نسمح فقط بخمس دورات، وبعدها نعلن فشلهم.. بعبارة أخرى: يفوز ضيفنا خلف الستار بلقب «أكثر الرجال غموضًا».

وضحك ضحكة مفتعلة فدوت ضحكات عصبية بين الصفوف: إما أن مساعد المخرج أمرهم بأن يضحكوا، وإما هم وقعوا في الشرك المعروف: أن تضحك لأن من أمامك يضحك.

اقتربت الكاميرا من وجه مي ليملأ الشاشات، وسألها غسان:

- سؤالك يا مي.

فكرت مي للحظة، ثم سألت الرجل:

- هل لعملك علاقة بالموت والحياة؟

- نعم.. جدًّا.

قالها في بساطة.. غريب هذا.. عمله له علاقة بالموت والحياة لكنه ليس طبيبًا.. فمَن هو؟ حانوتي؟ قاتل مأجور؟

كانت تفكر.. ناردين هي مَن أخبرتها بهذا البرنامج.

* * *

في شركة المحركات التي تعمل بها، كانت ناردين شخصية غامضة فعلًا.. هي جميلة لطيفة لكنها لا تبالي بالرجال وترفض

كل محاولات طلب يدها.. وكان المهندسون في الشركة يقولون: «فتاة مغرورة.. مَن تريد؟ هل تنتظر أن يأتي «راسل كراو» لطلب يدها؟».

لكنهم بعد قليل يتصعبون ويقولون: «لكنها.. لكنها رائعة.. وليس كل من أمسك باللجام خيَّالًا.. إنها تنتظر رجلها المتميز مثلها».

والمشكلة هي أن كل رجل يعتبر نفسه هذا الخيَّال، ثم يتلقى صفعة على خد كبريائه.

في ذات الظروف أحب صبري مي وطلب يدها.

وفي حفل الخطبة جاءت ناردين متألقة كالعادة، ويبدو أن نصف رجال الحفل قرروا أن يجربوا حظهم معها. ما أدهش مي هو أن ناردين لم تكن تستمتع بالرفض ولعب دور الملكة التي تختار كما تفعل الفتيات، لكنها كانت فعلًا لا تعبأ بالرجال ولا ترى لهم قيمة ما.. خطر لمي أن الموضوع يتعلق بعقدة من الصغر.

قال خطيبها وهو يكتم نظراته المعجبة:

- ربما يتعلق الأمر بخلل هرموني.. ربما هي رجل يبدو كأنثى!

قالت في غيظ:

- إذن ليت هذا المرض يصيبني.

بعد شهر من الخطبة بدأ الخطيبان يدركان أن الحياة ليست وردية بهذا الشكل.. ليست كلها هدايا ودباديب وأعياد فالنتين ونزهات.. هناك كابوس اسمه الشقة وكابوس اسمه الأثاث ولعنة اسمها الأجهزة الكهربية.. تُرى هل ينجحان؟ بدا لهما الأمر مستحيلًا كما تحاول أنت قيادة مكوك فضائي إلى المريخ.

بدأت المشادات العصبية من طراز: لماذا تكلمني بهذه اللهجة؟ لأنك تصرخين فيَّ كأنني أصم.. أنا لم أصرخ.. وأنا لست أصم...إلخ.

في هذه اللحظات جلست في المصنع تشرب النسكافيه من كوب ورقي وهي جالسة على الدرج المعدني شاردة الذهن.. جاءتها ناردين وجلست جوارها. ثم قالت لها:

ـ هل سمعت عن برنامج «غسان يوسف ولقاء أصدقاء نوفا»؟

لم تفهم مي هذا العنوان الغريب! إنها مدمنة تلفزيون وتشاهد كل التمثيليات من السابعة مساء حتى الواحدة صباحًا، لكن هذا العنوان بدا لها عجيبًا.

قالت ناردين:

ـ أنت لم تسمعي بالطبع.. هذا برنامج خاص يُذاع على الكابل.. اشتراكه باهظ الثمن، لكنه يقدم لك فرصة ممتازة كي تربحي نصف مليون.

هذا المبلغ بالتأكيد يحل كل مشاكلها: شقة بالإيجار وأثاث مع مبلغ معقول في المصرف.. هذا مغرٍ.

ـ هل يمكنك أن تحكي لي كيف يبدو الأمر؟

وعدتها بأن تحضر لها بعض الحلقات لتراها على الكمبيوتر، وفي اليوم التالي جلبت لها قرصًا مدمجًا. في البيت رأت مي تفاصيل البرنامج ورأت المذيع الوسيم غسان، وكيف يحاول الضيوف استنتاج مهنة الضيف الغامض.. وفي كل مرة يفوز أحد المحظوظين بنصف مليون، إلا لو كان الأمر معقدًا جدًّا فلا يفوز أحد.

ـ هل ترغبين في تجربة حظك؟

ـ نعم.

ـ إن عمي يعمل في إعداد البرنامج.. اعتبري أنك ضمن متسابقي الحلقة القادمة.

ـ هل لي أن أُحضر معي أمي وصبري؟

عضت ناردين شفتها في أسف، وقالت:

ـ آسفة! الدعوة لشخص واحد فقط.. أنت غير مشتركة أصلًا.. الحضور في هذا البرنامج يكون عددهم محدودًا وكلهم من المشتركين.. بالمناسبة أنا نفسي لن أحضر لأن عندي موعدًا مع طبيب الأسنان.

هكذا وافقت مي.

وفي اليوم المختار وقفت ـ بقدمين من جيلاتين لا تقدران على حملها ـ عند «أبو الفدا» في الزمالك تنتظر سيارة قناة «نوفا» التي ستنقلها إلى الاستوديو. أمها تعرف أين هي.. لكن لا تعرف أين يقع هذا الاستوديو. وعندما اتصلت بأمها تخبرها أن التصوير سيبدأ حالًا، لم يكن لديها ما تقوله سوى أنها في مكان بالصحراء.. ثم جاءها من يطلب منها غلق المحمول لأننا سنكون على الهواء حالًا.

آخر ما قالته قبل أن تغلق الهاتف هو:

ـ ادعي لي يا أمي.. أنا بحاجة لأن أنجح.

* * *

قال الرجل البدين الذي عرفنا أن اسمه إبراهيم رمزي، وهو يعقد أصابعه في عصبية:

ـ هل أنت حانوتي؟

قال الرجل من وراء الستار:

ـ لا.

هنا تدخل المذيع غسان وقال في لهجة لائمة كأنه يزجر طفلًا:

ـ أرجو عدم المؤاخذة.. أريد أن نكون منطقيين بعض الشيء.. هو قال لك إنه يعمل ليلًا.. هل تعرف حانوتيًا يعمل في الليل فقط؟

قال إبراهيم:

ـ وهل هو لا يكذب؟

ـ بالطبع.. لو كذب فلا معنى لهذا البرنامج أصلًا.

ثم أعلن المذيع عن فاصل إعلاني آخر.

فقط مع سجائر «كونراد» يمكنك تذوق النكهة الحقيقية للتبغ الجيد.. مع سجائر «كونراد» أنت رجل يروق للفتيات ويحقد عليه الرجال.. مع سجائر «كونراد» يمكن للجميع أن يعرف أنك رجل «كونراد». «كونراد» هو اسم السيجارة.

هل ترغب في قضاء ليلة ممتعة؟ نحن ننصحك بشرب نبيذ «مارشال».. نبيذ «مارشال» الذي تم تقطيره في ريف باريس، والذي تذوقه أفضل الذوّاقة في العالم.. تأمل لون الكأس، وتأمل كيف يتشرَّب النبيذ النور.. نبيذ «مارشال» هو النبيذ الذي يفضله عاشقو الخمور في العالم كله.

ما معنى هذا؟

كانت مي تسمع الإعلانات عبر السماعة الداخلية وتشعر بالحيرة: هل ما زالت هناك قنوات تلفزيون تعرض إعلانات التبغ؟ على قدر علمها هذا ممنوع في العالم كله منذ السبعينيات.. وماذا عن إعلان

النبيذ؟ في بلد عربي إسلامي يعلنون عن النبيذ؟ ولماذا لم تسمع قطُّ إعلانًا مماثلًا في حياتها؟

ثم خطر لها أن هذه قناة خاصة جدًّا واشتراكها باهظ الثمن.. لا بد أن أصحاب القناة أحرار يعرضون ما يريدون، إنهم يؤثرون في عقول طبقة خاصة جدًّا من المجتمع.

كان الفاصل مستمرًّا.

هنا أشارت للمذيع في شيء من الحرج:

ـ الحمّام.. لا أستطيع.

ـ لكن هذا مستحيل.

ـ دقيقة واحدة.

قال بحزم:

ـ سيكون هناك فاصل أطول بعد قليل.. أما الآن فلا أضمن أن تعودي ويتم تثبيت الميكروفون لك قبل بدء التصوير.

دارت بعينيها وسط الجمهور في يأس.. تشعر بالبول يحتشد في مثانتها ويفسد سلامها النفسي.. كان أبوها يقول لها إنها كالأطفال، لا تذهب إلى مكان دون أن تطلب الحمّام.

هنا وقعت عيناها على صفوف الجماهير.. استطاعت أن ترى ناردين.. ناردين جالسة في آخر صف وقد عقدت ذراعيها على صدرها وراحت تحدق في ثبات.

من الطبيعي أن تكون هنا.. عمها مُعد البرنامج والضيف صديقتها، ولكن لماذا قالت ناردين إنها لن تتمكن من الحضور؟ لماذا كذبت؟

* * *

المديرة التعليمية قوية الشخصية إلى حد الشراسة توجه سؤالها والشرر يطق من عينيها:

ـ هل أنت لص؟

ـ لا.

كان هذا سؤالًا سخيفًا لكنه منطقي جدًّا.. الرجل يدفعهم لحارة ضيقة لا يمكن التحرك فيها: يعمل ليلًا، عمله له علاقة بالموت والحياة، ليس طبيبًا، وليس حارسًا ليليًّا، وليس حانوتيًّا.. ماذا يمكن أن تسأل عنه بعد ذلك؟

قال غسان في تهكم:

ـ هل تتوقعين يا أستاذة نجوى أن يجيب بنعم لو كان لصًّا؟

في تحدٍّ وصلابة قالت:

ـ اتفقنا على أنه لا يكذب.. قلت إن هذا يلغي معنى البرنامج أصلًا.

ـ هذا صحيح.. وعلى كل حال أضمن لك أنه ليس لصًّا إلا بشكل مجازي.

مجازي؟ على كل حال قد جاء دور مي.

البول.. البول.. صوت المياه المحبب وهي تنزاح عنك والكلية تتنفس الصعداء.. كم سيكون هذا رائعًا.. تريد أن تفعل ذلك لتصفو أفكارها.

سألت الرجل وهي تقاوم الألم:

ـ ماذا تأكل؟

تدخّل غسان محتجًا وفي عينيه نظرة من طراز «لم أتصور هذا الغباء»:

ـ قلنا إننا نريد أسئلة من طراز نعم أو لا.

ـ لكن هذا يضيع أسئلة كثيرة جدًّا.. لو كان يأكل فاصوليا فلسوف يستغرق هذا عشرة أسئلة.

ـ هذه قواعد اللعبة.. خذيها أو ارفضيها.

فكرت حينًا في أن تنهض غاضبة، لكن هذه المواقف الدرامية لا مجال لها.. هذا ملعبهم على كل حال. هكذا استجمعت صبرها وعادت تسأل:

ـ هل تأكل اللحوم؟

ـ نعم.

قالها بسرعة وبلا تردد كعادته.

شعرت بغيظ.. كانت بحاجة إلى سؤالين آخرين.. لكن عليها أن تنتظر وتصير تحت رحمة زميليها.

* * *

كان إبراهيم رمزي يفكر.. يجب أن يجد السؤال التالي بسرعة.. يجب أن يخمن شخصية هذا الرجل اللعين، فهو في حاجة ماسة إلى المال، كان متزوجًا ولديه أربعة أبناء.. برغم راتبه المرتفع لم يستطع أن يلاحق طلبات البيت المتصاعدة.. مدير الحسابات المحترم وجد نفسه في مأزق حقيقي.. وهكذا بدأ يمارس الاختلاس.. مثل أي واحد فينا كان يشعر أن الاختلاس يختلف جدًّا عن السرقة.. السرقة هي لص بفانلة مخططة يتسلق على ماسورة مياه وفي فمه مطواة.. الاختلاس أرقى نوعًا. وكانت صورة عماد حمدي في فيلم «أم العروسة» تطارده.

لقد اختلس الكثير من المال.. وهو يعلم جيدًا أن الجرد قادم،

وذلك الاسم المرعب الكابوسي «الجهاز المركزي» قادم.. سوف ينتهي به العمر خلف القضبان على الأرض جوار دلو للبول.. طوق النجاة ألقي له عندما أخبره صديق له بهذا البرنامج الخاص الذي لا يراه أحد.. شاهد بعض الحلقات وفهم كيف يتم الأمر كله.

تم تحديد اليوم.. وعرف أن زوجته لن ترى البرنامج إلا فيما بعد عندما يعطونه تسجيل الحلقات.

لا بأس.

سوف يعرف الإجابة.. لا شك في هذا.. لن يترك هاتين المرأتين تضيعان مستقبله.. إن ما تفعلانه ببساطة هو أن تدخلاه السجن.. ولماذا؟ لا بد أن المرأة المخيفة تريد أن تبدل ستائر الصالون.. الفتاة تريد استكمال الشقة.. لا أحد سواه يريد الفرار من السجن.

ابتلع ريقه وجفف عرقه ثم ألقى السؤال وتمنى أن يكون الأخير:

ـ هل تقيم مع أسرتك؟

ـ نعم.

هنا تعالت الموسيقى وتحرك الكرين، وراحت الأضواء تتوهج، وملأت الشاشة عيني غسان وهو يصيح:

ـ لا تغادروا المكان ولا تغيروا القناة.. ما زلنا مع برنامج «غسان يوسف ولقاء أصدقاء نوفا».. إن عدد الأسئلة يتناقص مع الوقت.. الفرصة تقترب من نهايتها.

فما إن دوى صوت الإعلانات وظهرت زجاجة الخمر على الشاشة، حتى نهضت مي.. هذه المرة لم تتظاهر بالوقار أو الهدوء.. كانت تلوح بأناملها بحركة طفولية جدًا يصنعها الأطفال عندما

يوشكون على تبليل ثيابهم.. وبدأت تفك مكبر الصوت والأسلاك دون إذن.

ظهرت فتاة شابة من مكان ما، ومدت يدها تمسك بكفها.. فقال غسان وهو يتفحص الأوراق في يده:

ـ خذيها للحمّام يا سلمى.. أمامك خمس دقائق يا مي.

مشت مي وسط قطع الديكور إلى أن دخلت ممرًا مظلمًا يقود إلى الحمام، ووقفت سلمى خارج الباب.. من الواضح أن مهمتها أن تعود بها بسرعة وإلا كانت كارثة وفسد البرنامج كله.

أولًا أراحت مي نفسها.. شعرت بأن عقلها يصفو.. مدت يدها إلى جهاز المحمول وفتحته.. كان مغلقًا كما طلبوا منها.. طلبت رقم خطيبها صبري.. جاء صوته القلق عبر السماعة:

ـ أين أنت؟

قالت وهي تستند إلى جهاز التجفيف بالهواء الساخن:

ـ أنا في البرنامج.. هذه استراحة قصيرة.

ـ أين أنت بالضبط؟ أعني أين أنت جغرافيًا؟

ـ لا أعلم.. مكان ما في الصحراء.. ليست هذه مدينة الإنتاج الإعلامي على كل حال.

قال بصوت غامض:

ـ سألت كثيرين.. لي صديق إعلامي معروف.. لم يسمع أحد عن قناة «نوفا» هذه.. لم يسمع أحد عن برنامج اسمه «غسان يوسف ولقاء أصدقاء نوفا».. ثمة شيء خطأ هنا.. أعتقد أنها عملية نصب.. أرجو أن تكوني حذرة.

ـ تمن لي حظًا حسنًا فالوقت ضيق.

ـ أتمنى لك أن تظلي سالمة!

غادرت الحمَّام.. لم تكن الفتاة بالخارج.. هذا غريب.. هي لا تعرف كيف تعود للاستوديو.. لقد ضلت طريقها وسط هذه الممرات المظلمة.. تسارعت ضربات قلبها وهي تشق طريقها.. سوف يعتبرونها منسحبة.

كان هناك باب جانبي موارب له محاور زنبركية.. دلفت للداخل وهي تنظر حولها.. كلا.. لم تأتِ هنا من قبل.. ما هذه الرائحة الكريهة؟ مدت يدها تتلمس مفتاح النور.

ليتها ما فعلت!

ليتها لم ترَ ما رأته!

شاطور.. مجموعة مدي.. نطع أو قرمة خشبية ملوثة بالدم. كأن هذا محل جزارة نشط.. استوديو مزود بمحل جزارة.. هذا يبدو غريبًا نوعًا.

غادرت المكان وهي مندهشة متقززة.

مضت في الممر لتصطدم بالفتاة سلمى.. أجفلت وأجفلت الفتاة.

ـ أين ذهبت؟

ـ نفس السؤال لك.. وقفت أدخن سيجارة في الممر.. التدخين ممنوع في الاستوديو طبعًا.

ثم مدت يدها تمسك بيد مي.. يد باردة صلبة.. وقالت برفق:

ـ هيا بنا.. لقد تأخرنا.. لا تنسي غلق المحمول.

كان عقل مي يعمل بلا توقف وهي متجهة للاستوديو.. وعندما

جلست في مقعدها وهرعت الفتاة تثبت لها مكبر الصوت، كانت قد توصلت إلى سؤالها القادم.. لم تسمع السؤال الذي وجهته نجوى.. تعرف أنه بلا جدوى ولن يقود لشيء.

عندما جاء الدور عليها نظرت إلى الرجل الواقف خلف الستار، وبنبرة واثقة سألته:

ـ هل أنت غول؟

ساد صمت طويل وشهق البعض ثم جاء صوت الرجل:

ـ نعم.

كانت قد خمنت هذا.. «غسان يوسف ولقاء أصدقاء نوفا».. هذا الاسم السخيف المفتعل.. لكن لو أخذنا الحروف الأولى من كل كلمة فماذا نجد؟ غ.. ي.. ل.. ا.. ن.

* * *

لماذا فكرت في هذا يا مي؟ لماذا كنت أذكى من اللازم؟ هناك لحظات من الأفضل فيها للمرء أن يكون كفيفًا أو أصم أو غبيًّا.. الفهم خطر ومخيف.. ألا ترين هذا؟ أسعد الناس حظًّا هم من ماتوا وهم لا يعرفون أنهم يموتون.

كانت جالسة في ذات الوضع.. تفرك كفيها كأنها لم تسمع إجابة الرجل.

كانت تبحث عن رد فعل مناسب.

بدا كذلك أن الحضور جميعًا قد أصابهم الخرس.. الحل الذي توصلت إليه بهذه السرعة قد صدم الجميع.

كانت الصورة الآن قد صارت واضحة: برنامج مزيف.. حيلة

وكلام عن جائزة قيمة.. ناردين قد سلَّمتها لهم لأنها تعرف ظروفها ولا شك أن كل واحد من الثلاثة قد جاء مخدوعًا بدوره.. الحلقات التي رأتها على الكمبيوتر في بيتها مزورة وبريئة لخداع السذج.

«غسان يوسف ولقاء أصدقاء نوفا»..غ.. ي.. ل.. ا.. ن.

وهذا يعني أن غسان وكل إدارة البرنامج يعرفون مَن هو الرجل المتواري وراء ستار.. ناردين تعرف.. المخرج يعرف.

وما معنى هذا؟ وما الغرض منه؟

جاءت الإجابة عندما صاح غسان في مرح وهو يواجه الكاميرا:

-مي هي التي استطاعت أن تخمن وهكذا فازت بالجائزة، بالفعل إن من يتوارى وراء الستار هو غول.

نهضت السيدة قوية الشخصية ونهض مدير الحسابات البدين.. لم يستطيعا الفهم حتى هذه اللحظة.. حتى لفظة «غول» نفسها لم يستطيعا فهمها.

الغول يعمل ليلًا.. عمله له علاقة بالموتى.. يعيش مع أسرة من الغيلان.. يحب مذاق اللحم جدًّا.. كل هذا صحيح.

كان الفهم متأخرًا جدًّا لأن الجمهور غادر المقاعد لينقض على المنصة التي يجلس عليها المتسابقون.. وتصاعدت زمجرة كزمجرة الدببة الغاضبة.. دوى الصراخ.. سوف أعفيك من التفاصيل فنحن في زمن دموي، فلن أفيدك إذا وصفت المشهد بدقة.. فقط نذكِّر أن الكاميرا كانت تسجل كل شيء.

فقط كانت مي تصرخ بلا توقف وهي تتراجع غير مُصدِّقة.. لم يمسها أحد كأنهم نسوها.

كان غسان ضمن المهاجمين المنقضين على المتسابقين، وكانت ناردين ضمنهم.. وواجه غسان الكاميرا والدم يقطر من جانبي فمه وصاح:

-الآن ندعوك يا مي.. أنت صرت واحدة منا.. ندعوك للانضمام إلى الحفل! نحن نعرف أن برنامج «غسان يوسف ولقاء أصدقاء نوفا» هو البرنامج المفضَّل لدى الغيلان، ولهذا لا يراه سوى قلة من المحظوظين لأن القناة مشفرة.. في كل مرة ندعو ثلاثة متسابقين فإذا استطاع أحدهم التخمين في الوقت المناسب نجا وصار منا.. إذا فشل ظفرنا بالجميع.

ثم أشار لمي الواقفة في الركن فاتجهت الأضواء نحوها:

-مي.. أنت منا!

شاركينا يا مي.. تعالي هنا وتذوقي اللحم.

لكن مي كانت تقف جوار كشاف عملاق.. بلا تفكير ركلته بقدمها فسقط أرضًا وانفجر الزجاج.. يجب أن أفر.. يجب.. لكن أين وأنا في قبضتهم؟

ركضت وسط الديكورات.. هناك حبال على الأرض وأسلاك في كل مكان تتعثر وتنهض.. وتبكي.. حبال غليظة. تقع عينها على شاشة كبيرة فتدرك أن كل المشاهد يتم تصويرها.. الغيلان في بيوتها تراقب عذابها في سادية بالغة ومسرورة جدًّا. هناك حبل غليظ أمامها.. تعرف من السينما حينما تدور الأحداث في كواليس مسرح أن فك هذا الحبل يؤدي لتهاوي جزء من...

بالفعل.. جزء من الديكور قد سقط وسمعت صوت صرخات،

بينما هي تركض عبر تلك الممرات المظلمة اللعينة.. يبدو أن مصير القرمة والشاطور مدخر للمتسابق الذي يفر لهذه الممرات.. أليس كذلك؟

اطلبي صبري يا بلهاء.. اطلبيه.. لا تعرف كيف سيجد مكانها ولا ما يستطيع عمله، لكنها قدرت أن بوسعه أن يتصل بالشرطة.. قبل؟ قبل ماذا؟ مصيرها يتحدد خلال ثلاث دقائق.. الأمر لا يختلف عن المحكوم عليه بالإعدام وظهره للحائط ينتظر الرصاصة.

شعرت بجسم يثب عليها.. سقطت أرضًا شاعرة أنها تحت كلب مسعور يحاول الوصول لعنقها.. ناردين! لقد خرجت لها من مكان ما في الظلام وهي تحاول أن تبلغ عنقها.. لشد ما تغيرت! يمكن لمن لا يعرف معنى لفظة غول أن يرى ناردين الآن.

- لا تقاومي يا حمقاء.. لن تستطيعي الفرار أبدًا.. كل المطلوب منك هو أن تأكلي معنا!

غرست مخالبها في وجه ناردين وصرخت:

- أنت خدعتني.. أنت قدتني هنا وكنت تعلمين!

- لأنني فزت في البرنامج منذ عامين.. نلت الجائزة.. وصرت كذلك منهم!

القذرة قوية جدًّا.. لا جدال في ذلك. مدت يدها تتحسس الأرض وهي نائمة على ظهرها عاجزة عن الحركة. هنا لمست يدها ما بدا لها كأنها مطرقة ثقيلة تركها أحد عمال النجارة.. لم تتردد ورفعت المطرقة ثم هوت بها.. هوت بها على الرأس الذي يقترب من عنقها.

أطلقت الفتاة صرخة حادة ثم تهاوت على الأرض.

لم تستطع مي مقاومة العنف الذي استبد بها فهوت على رأس ناردين بضربة ثانية.. ثم نهضت وراحت تركض وسط الممرات المظلمة.. تسمع صوت غسان يتردد من شاشة ما:

- عودي يا مي.. أنت صرت واحدة منا.

أطلقت سبة.. ثم واصلت الركض.. هناك باب.

ضوء النهار.. حديقة صغيرة.. ثم الصحراء.. هل تجرؤ على أن تعتبر نفسها نجت؟

الأجمل أن هناك سيارة تتحرك من بعيد على الطريق الممهد وسط الرمال. هذه معجزة فعلًا.. ركضت لتقف في طريقها بالضبط.. توقف السائق بفرملة حادة، فصاحت:

- أي مكان بعيدًا عن هنا!

حسب تقاليد أفلام الرعب لا بد أن يكون هذا السائق منهم، لكنها وجدته عجوزًا طيبًا مذعورًا فعلًا.. فتحت الباب ووثبت جواره وهي تلهث كالغرقى ولم تترك له فرصة الاعتراض. إذ ابتعدت السيارة نظرت إلى الخلف رأت ناردين تركض خلف السيارة والدم ينزف من رأسها وقد لوث ثيابها فبدت كالكابوس.

ما زالت حية؟ كيف؟

بعد ساعة من اللهاث والتوتر تركها السائق في مكان ما من الزمالك.. لا تعرف المكان بالضبط.. لكنها الزمالك على الأقل. وقفت بين المحلات المضاءة والناس ترمق منظرها المبعثر في دهشة. طلبت صبري خطيبها:

- تعال هنا وخذني يا أحمق.

بعد ساعة، جاء صبري بسيارة صديق له. لم يفهم ما حدث لها وبدا مذعورًا مندهشًا.. كان هناك مكتب قريب للصيانة هو أقرب لورشة صغيرة، يعمل فيه ليلًا أحيانًا. أخذها معه إلى هناك. وإذ جلب لها بعض المرطبات وساعدها على أن تهدأ قليلًا، كانت قد شرحت له قصتها بالكامل. لم يصدق حرفًا لكنه وافقها حتى تهدأ.

قالت له:

ـ لم أفهم كيف عاشت ناردين هذه.

قال وهو يصب لها المياه الغازية:

ـ هذا سهل.. الغول لا يموت إلا بضربة واحدة.. حسب الأساطير، الضربة الثانية تعيده للحياة من جديد! لهذا على المرء أن يقتصد في عدوانيته.

ثم نهض ليعدَّ لها بعض الشاي.

جلست ساهمة بعض الوقت تتأمل المعدات والآلات الدقيقة المبعثرة فوق المنضدة. تبدو مجنونة تمامًا بشعرها المنكوش والنظرة المتوحشة في العينين. منذ ساعتين كانت متسابقة رقيقة تحلم بالفوز.. الآن هي هاربة من الغيلان وكادت تقتل أحدهم.

وجدت أمامها جهاز التحكم عن بعد، الخاص بالتلفزيون الصغير المعلَّق على «كابولي» للجدار، ضغطت على زر التشغيل.. هنا أضيئت الشاشة. لم تكن هذه قناة عادية.. رأت شعار «نوفا» في ركن الشاشة وظهر وجه غسان الكريه.. كان يقول:

ـ عودي لنا يا مي.. إن جائزتك تنتظرك.

ارتجفت.

هذه القناة ليست متاحة للجميع.. معنى وجودها هنا على التلفزيون الخاص بصبري في مكتبه هو أن...

مَن علمه موضوع الغول الذي لا يموت إلا بضربة واحدة؟ هل هي مؤامرة كبرى؟ ربما كان صبري على علاقة بناردين منذ البداية وقد تلاعبا بها.. لقد كان صبري هنا في المكتب يراقب المسابقة ويضحك في وحشية.

لا تعرف.

وجدت على المنضدة ذلك المثقاب الضخم الذي يملكه صبري.. مدت يدها وتأكدت من أنه موصل بالكهرباء. سوف تثقب قلبه مرة واحدة ولن ينجو.. فقط عندما يعود للغرفة سوف تكون حاسمة وتنهي الأمر.

حانت منها نظرة إلى التلفزيون فرأت صورتها ممسكة بالمثقاب.. شرسة منكوشة الشعر مجنونة النظرات مبعثرة الثياب.. لم تعد تمت لمي الأولى على الإطلاق ولو رآها طفل لظل يصرخ حتى يموت.

هناك كاميرا في هذه الغرفة.. لا شك في هذا.. دائرة تلفزيونية مغلقة تنقل صورتها المذعورة للغيلان المشتركة التي تجلس أمام الشاشات تلتهم اللحم وتشاهد هذه التسلية الحية.. لا شك أنها قد أوشكت أن تكون غولًا.. لقد تم كل شيء بسرعة.

لكنها سوف تثقب قلبه بمجرد أن يدخل الغرفة.

ومن التلفزيون سمعت صوت غسان يردد:

ـ أنت ستصيرين منا يا مي.. بل أنت منا بالفعل.. هل تسمعين؟ أنت منا!

الهول

دخلت عالمكم في ليلة مظلمة قررت السماء فيها أن تغسل الأرض بعنف وبلا رحمة.

من حين لآخر كانت ألسنة البرق تهوي من السحب المظلمة فتتوهج الأشجار.. الأشجار التي توشك العواصف على اقتلاعها من موضعها.. وكانت الريح تعوي بلا انقطاع.

هناك بئر في هذا المكان.. بئر ماؤها سام لا يصلح للشرب، وقد امتلأت بمياه الأمطار وبدأت تفيض..

هذا مكان لا يمكن لمعتوه أن يأتي له في هذه اللحظات بالذات.. لكنه ثغرة مهمة من ثغرات جانب النجوم.

اردافو ادوجوم يسفن تدجو ينكل يتم الو تيادبلا تناك يتم فرعأ ال.. موجنلا بناج يف تدلو.

آسف.. نسيت نفسي للحظة ونسيت أنكم عاجزون عن القراءة بالمقلوب. سأكرر ما قلته: أنا ولدت في جانب النجوم.. لا أعرف لنفسي بيتًا ولا وطنًا سواه، والذين يقرأون قصص الرعب يعرفون ما هو جانب النجوم جيدًا، لهذا لن أطيل عليهم.

كان الرعب في كل مكان، والصرخات تندلع في ظلام الليل.. هل قلت «ليل»؟ لا يوجد شيء كهذا لأنه لا يوجد نهار في جانب النجوم أصلًا، لكننا أحيانًا نشعل واحدًا منها لنرى على الوهج المنبعث منه حقيقة الأشياء.

ننضج مع الزمن ونتعلم أشياء أكثر فأكثر.. لكننا ندرك أولًا أننا جئنا من أجل الخوف والهول.. نغتسل بالدم ونقتات بالفزع ونسكر لدى سماع صرخات الأطفال.

توملل دجملا.. لوهلل دجملا.

لن أحكي لك قطاعات عالمنا وقانون الصيرورة، فهذا موضوع

يطول.. ثم إنه سر على كل حال. يكفي أن أخبرك أنني نشأت في صيرورة «سيجفريد الأميدي».. إنه سيد مهيب عندنا.

وجاء اليوم المقدس، اليوم الذي تعرف فيه أنك ستغادر الصيرورة لأنك صرت ناضجًا بما يكفي.

تتقدم إلى حيث يجلس سيد الديجور مع الشيطان.. تخبره أنك نضجت.

يهز رأسه لك فتشعر بأن أنيابك تستطيل والدم يخرج من منخريك، وشرر النار يتطاير من أناملك، وقد صار لك زئير كزئير الهول نفسه.. لقد منحك الـ... منحك الـ... لا أجد كلمة مناسبة لذا سأستعمل لفظة «منحك الإذن».

تتقدم نحو واحدة من الفجوات.

هناك فجوات عددها ثلاثمائة في عالمنا.. وهي تقود إلى كوكبكم. تقف بانتظار اللحظة المختارة.. تراقب هذا المذؤوب وهو ينحني برأسه ليخترق الفجوة.. هناك ممر مفتوح في بيت مهجور في المكان الذي تسمونه «بوكوفينا» برومانيا.. سوف يجتاز هذه الثغرة، وبعد أيام يتحدث الناس عن مذؤوب في المنطقة.

مصّاص دماء يتقدم ليجتاز الفتحة.. سوف يعبر إلى ما تسمونه الهند.. وبعد أيام سوف يجد الناس هناك جثثًا خالية من الدماء.

جاء دوري فوقفت أمام الثغرة وقلت لسيد الديجور:

ـ هبني الهول.. هبني الهول!

وعبرت الثغرة.

* * *

دخلت عالمكم في ليلة مظلمة قررت السماء فيها أن تغسل الأرض بعنف وبلا رحمة.

من حين لآخر كانت ألسنة البرق تهوي من السحب المظلمة فتتوهج الأشجار.. الأشجار التي توشك العواصف على اقتلاعها من موضعها.. وكانت الريح تعوي بلا انقطاع.

هناك بئر في هذا المكان.. بئر ماؤها سام لا يصلح للشرب، وقد امتلأت بمياه الأمطار وبدأت تفيض.. هذا مكان لا يمكن لمعتوه أن يأتي له في هذه اللحظات بالذات.. لكنه ثغرة مهمة من ثغرات جانب النجوم. إنني على بعد نصف ميل من قرية ألمانية هادئة.

من القواعد المهمة هنا أنني قادر على العبور لأي ثغرة من الثغرات الأخرى بسهولة تامة.

الناس في القرية يعتقدون أن أشياء مريبة تحيط بهذه البئر، وهم يتحاشون الاقتراب منها منذ زمن. لا شك أن سكانًا آخرين من جانب النجوم قد جاءوا هنا وأحدثوا أثرًا.. لا شك أن الفلاحين يقولون إن هناك شيطانًا في الغابة.. لا يعرفون أنها حزمة من الشياطين.

أمشي تحت العواصف والسيول وأتحول إلى شكل شبه بشري. وعندما أصل إلى القرية الألمانية الناعسة أمشي وسط الشوارع الخالية. ظلام.. ضوء خافت من وراء النوافذ.. رائحة حساء.. أمطار.

هذا البيت يصلح.. أتجه نحوه وأدق الباب مرارًا وأتكلم بالألمانية التي صرت أجيدها فجأة:

ـ من فضلكم.. أنا أتجمد.

يفتح فلاح ألماني كث الشارب الباب لي ويرمقني في شك، إنه يدخن غليونًا لكنه يمسك به بين أنامله وهو يفكر بعمق.

من الداخل تسمع صوت زوجته تصيح:

ـ دعها تدخل يا «مولر».. الفتاة مبتلة كالدجاجة.. ألا ترى أنها واهنة رقيقة؟

يفسح الباب لي، وأدخل البيت الدافئ لأجد أسرة تتكون من الزوجة وفتاة في سني وطفل في السابعة.. يبدو أنهم كانوا يتناولون العشاء حالًا.

يسألني الفلاح وهو يعطيني مقعدًا:

ـ هل أنت بخير؟

ـ نعم.

ـ ماذا جاء بكِ إلى الغابة في جو كهذا؟

أحكي له عن الأوغاد الذين خطفوني في سيارة.. ثم عندما مررنا قرب قريتهم عضضت يد واحد من الخاطفين، وركلت باب السيارة لينفتح وألقيت بنفسي للخارج.. مشيت كثيرًا حتى وصلت إليهم.

يقول الطفل وهو يشرب ملعقة من الحساء:

ـ كيف فتحت باب السيارة بالركل؟

لكني أتجاهله وأغرق نفسي في طبق الحساء الذي قدموه إليَّ، وأضع فيه بعض لقيمات الخبز. هنا تقول الابنة وهي تنظر لي مليًّا:

ـ لماذا تلبسين ثيابًا صيفية؟

جو التذاكي هذا يثير جنوني فعلًا.. قلت في عصبية:

ـ كنت ألبس معطفًا فوق هذه الثياب.

يسألني «مولر» وهو يعيد إشعال الغليون:

ـ من أين اختطفوك؟

ـ من «فورتشايمر».. كنت أقود سيارتي هناك.

ينظر إلى زوجته مفكرًا.. ثم يقول لي وهو يطلق سحابة دخان كثيفة:

ـ أنا أعرف كل سكان «فورتشايمر».. عددهم لا يتجاوز ٢٠٠ شخص.. أنا متأكد من أنك لست من أي أسرة هناك.

هنا يجن جنوني.

عندما غادرت البيت بعد ساعة، كنت قد قمت بكل شيء ممكن.. لا بد أن من سيرون البيت سوف يعجزون عن النوم لفترة طويلة.. ربما يحكون لأولادهم ما رأوه لعدة أجيال.

كنت غارقًا في الدم وأنا أمشي تحت الأمطار أنظر إلى السماء.. وأترك الماء يغسل ما علق بجلدي ووجهي.. أنا الهول.. أنا الهول.

كانت البئر هناك والماء يتدفق منها.

ببساطة تسلقت على الحافة ونزلت فيها.

سأكون في مكان آخر مع أناس آخرين حالًا.

* * *

الفجوة التالية كانت في نيوزيلندا.

هذه المرة تحولت إلى مذؤوب.. وخرجت من الفجوة في وقت اكتمال القمر.. وقفت على الطريق السريع أمام السيارات أعوي وأتلوى.. وكان المشهد مخيفًا لدرجة أن أكثر من سيارة انحرفت عن الطريق وانقلبت.. كنت أنزل لأنهي أمر الركاب.

ثم بعد هذا دخلت الغابات القريبة.. كان هناك عدد من الشباب ينعمون بنزهة خلوية، أي أن كل شاب وفتاة كانا في ركن بعيد عن زملائهم.. هذا سهَّل المهمة جدًا.. كنت أجول بين الأشجار، ثم أنقض على العاشقين اللذين لا يصدقان أن هذا حقيقي.

فقط عندما ترى الفتاة رأس حبيبها في حجرها كانت تطلق صرخات الهستيريا.. هنا تلحق به بسرعة.

لقد مرحت كثيرًا.

أنا الهول.. أنا الهول.

* * *

أعود إلى فتحات جانب النجوم.

هؤلاء البشر الحمقى لا يعرفون أن هناك شبكة جحيمية كاملة تحت أقدامهم، وأن سادة جانب النجوم يتنقلون بحرية بالغة. أحيانًا يدنون من السر.

عندما يجلس ذلك الطفل وحده على حافة بئر منسية ويطل في مائها أكثر من اللازم.. قد يرى لمحة مما يدور تحت. في تسعين في المائة من الحالات لا يعيش ليحكي ما رآه لأن لسانًا أو ممسًّا يبرز ليجذبه لأسفل.

عندما تمشي هذه الفتاة وحدها في الدغل في الظلام، وتجد جذع الشجرة القديم الغليظ هذا.. شجرة هوت وأحرقتها الصواعق، لكن جذعها ظل بارزًا مجوفًا من الأرض.. تركع على ركبتيها وتختلس النظر.. يخيل إليها أن هناك كائنات تتحرك ثم تؤكد لنفسها أنها واهمة.. بالتأكيد هي واهمة.. ثم لا تعيش بعد ذلك.. فقط يجدون

قميصها أو حذاءها في الغابة بعد ذلك، ويظل السؤال معلقًا ويقولون إن هناك سفاحًا في الغابة.

عندما تضيع هذه السفينة وسط الأنواء في المنطقة التي يطلقون عليها «مثلث برمودا»، وعندما ينقطع الاتصال ولا يعرف أحد أين هي.. في الحقيقة هي عبرت أكبر فجوات جانب النجوم طرًّا.. فلا بد أن السايفونات خرجت من الأعماق لتمتص عصير الحياة من البحَّارة، أو ربما هو الهلام احتوى السفينة وأذابها، أو ربما هي الدوامة الكبرى جرت السفينة معها إلى جانب النجوم.. هذا هو المصير الأشنع لأن البحارة سوف يجدون أنفسهم في عالم جحيمي كامل لا يعرفون ما هو.. سوف يخرجون من سفينتهم ليجدوا أنفسهم مع «سيجفريد الأميدي» أو «يوليان المغتصب».

هناك قصة مثيرة عن مصير سفينة كهذه لكنني لن أحكيها هذه المرة.

هناك بالوعات صرف قد تتصل بهذه الشبكة في عدة مواضع.. لهذا يصعب فعلًا أن يعود من سقطوا في هذه البالوعات.. ربما يجد نفسه فجأة أمام كائن من كائنات جانب النجوم.. وعندها لن يسمع أحد صراخه.

هناك قصة أثارت رعب المصريين وحدثت في أوائل السبعينيات.. الزوجة التي كانت تمشي مع عريسها في شارع «النبي دانيال» بالإسكندرية كما يطلقون عليها.. فجأة صرخت وفجأة لم تعد هناك.. لقد احتار رجال الشرطة كثيرًا، وقيل إن الأرض مادت بها في بئر رومانية قديمة.. حسنٌ.. أنت تعرف أن هذه البئر في شارع

«النبي دانيال» كانت من فتحات جانب النجوم المهمة.. وجدتها الزوجة بالصدفة.

فتحات جانب النجوم هي شبكة تنقلنا ومنها نخرج وإليها نعود.

* * *

لهذا عندما خرجت هذه المرة في أسكتلندا كنت داخل قلعة.. قلعة السير «أرشيبالد ماكدوجال».. وهي قلعة سيئة السمعة فعلًا من ناحية الأشباح. من وقت لآخر يأتي بعض الباحثين أو أحمق يؤلف كتابًا عن الظواهر الغامضة.. هناك أدوات تصوير للأشعة تحت الحمراء وفوق البنفسجية، وهناك مجسات سونار، وهناك أجهزة تسجيل حساسة جدًّا.

أحب اللعب بأمثال هؤلاء الهواة الذين يعتقدون أنهم يعرفون شيئًا.

هذه المرة تحولت إلى شبح.. دوري هو أن أمشي في أقبية القلعة أهز السلاسل وأعوي.. دوري هو أن أضحك.

بالطبع يعتقد هؤلاء أنني أثير الرعب بصوتي فقط.. ككلب ينبح ولا يعض.

عندما صار هذا الباحث الأمريكي الملتحي الذي يحمل آلة تصوير عملاقة، عندما صار أمامي ووحده، هويت على مؤخرة عنقه بأعنف قوة ممكنة.. ثم أدرت رأسه في الاتجاه المعاكس ليثير هلع من يراه.. الرأس في الاتجاه المعاكس نوع من توقيع الشياطين.

تركت تلك الجثة هناك وابتعدت.. يمكنني أن أقضي على الآخرين في لحظة، لكنني أتغذى بالرعب.. أتغذى بالخوف.

اللحظة الأمتع هي عندما يكتشف أصدقاؤه الجثة، وعندما يدركون أن أشباح هذه القلعة لا تعوي فقط.

ثمة امرأة تصرخ وهي تتفحص الجثة بالكشاف:

- «ديفيد».. مَن الذي...؟

ثم تلتفت فتدرك أنها وحدها.. السبب أنني جذبت الرجلين اللذين معها خلف جدار، ثم هشمت رأسيهما.. هنا يبدأ المرح الحقيقي وأنت تراها مذعورة.. تجري كالمجنونة.. تدرك أنها وحيدة في الظلام.. تصرخ.. تتخبط.. تتعثر.. الكشاف يرقص رقصة مجنونة.

الجزء الأمتع هو عندما أطفئ نور الكشاف.

مع الظلام هي في عالم وحشي خفي.. كل شيء ممكن.. كل شيء مخيف.

تصطدم بالجدران.. تلتوي قدمها.

هذا هو طعامي الحقيقي ومصدر نشوتي.

الجزء الأمتع هو عندما أتجسد ببطء أمام عينيها.. شيء بلوري أخضر متوهج من الداخل كقطعة فحم متقدة.. فقط متقدة بلون أخضر.

أتقدَّم منها وهي لا تكف عن الصراخ.

لكنني أتوقف إذ أرى أمامي كائنًا عملاقًا آخر له لون فيروزي مخيف.

أقول له في ضيق بلغتنا:

- ابتعد يا «ناخاك».. الفانية لي.

فيقول:

- بل هي لي يا «ساحال».. موتًا تموت.

الفتاة تصرخ بلا توقف.. تغطي أذنيها بساعديها.. تتراجع.

هذه هي مشكلة تضارب نطاق النفوذ.. إن «ناخاك» من رجال «يوليان» الأثيريين.. وهو يحمل واجب الولاء نحو «لوسيفر» و«بيهموت» و«أبراكساس».

أفضل عدم الاصطدام به.. لذا أتراجع في الظلام.

سأترك له الفتاة يخيفها كما يريد وإن كنت قدرت من نبضاتها أنها لن تعيش لفترة أطول. الطفل الذي يلعب بقطة وليدة إلى أن تلفظ أنفاسها بين يديه، فيصرخ في جنون ويضرب الأرض مغضبًا. الصراخ يتعالى.

أنا الهول.. أنا الهول.

وعليّ أن أصنع الهول حيثما ذهبت.

* * *

وفي غابات ماليزيا خرجت من معبد هندوسي قديم منسي.

هذه المرة كنت أبدو كثعبان سام.. لكنه ثعبان له عينان ترمشان ويرى جيدًا جدًا. وهكذا مضيت أزحف بين الأعشاب.

هناك كانت تلك الأم جالسة جوار النهر تغسل وقد أراحت رضيعها في وعاء فارغ لم تدرك الهول الذي يزحف من خلفها.

لم تدرك أن وافدًا من جانب النجوم جاء ليملأ لياليها بالأسى والرعب.

تو ملل دجملا.. لو هلل دجملا.

* * *

عندما انتهيت من ماليزيا كنت قد تركت مجموعة من الأساطير المخيفة التي سوف يتناقلها الناس لعدة أجيال بعد ذلك.. سوف

يكسوها غبار الزمن، وسوف يعتقد القوم بعد أعوام أنها أوهام عجائز.. طبعًا أنا وأنت نعرف أنها حدثت فعلًا.

عدت للفتحة التي توجد في المعبد الهندوسي.

ثم خرجت في مصر.

* * *

إن الخروج من جانب النجوم في مصر هو إحدى الهوايات المحببة لدى سكان جانب النجوم.. بالذات في المناطق التي دُفن فيها الفراعنة قديمًا.. هذا سيناريو محبب لنا.

عندك وادي الملوك مثلًا.. المقبرة رقم ١٢.. هذه المقبرة فيها فجوة واسعة ورهيبة جدًا.. ما زال هذا المكان لغزًا بالنسبة لعلماء المصريات، وقد وجدوه بالصدفة وهم يستكشفون المقبرة رقم ٩.

لهذا دخل كثيرون هذه المقبرة.

هناك قصص كثيرة لا يحكونها طبعًا.. لكن يمكنك أن تتخيلها، خصوصًا أننا نتسلى كثيرًا بهذه اللعبة. الآن أنت ترى المستكشف مع زميله في الظلام يوقدان الكشافات، ويحملان الفؤوس، ويتفحصان تابوت مومياء محاولين معرفة النقوش المكتوبة عليه.. إنهما يسجلان ما يجدان على أداة تسجيل صغيرة.

في الوقت ذاته هناك بئر عميقة في مركز القبر.. وهذه البئر تقود طبعًا إلى جانب النجوم.

يعمل الرجلان.. ثم يلاحظ أحدهما أن الكشافات تضعف.. تضعف بسرعة غير عادية.. هذا ليس شيئًا معتادًا هنا ويلاحظ أحدهما أن البرد يتزايد.. كأن هناك موجة صقيع في المقبرة.

إنهما في الصحراء.. تحت الأرض.. في مكان سحيق.. وسط ظلام دامس.

باختصار هما في أسوأ ظروف يمكن للمرء أن يواجه فيها مسخًا من جانب النجوم.

عندها ينفتح غطاء التابوت.. هذه كلمات سهلة وقد رأيتها أنت مرارًا في أفلام «بوريس كارلوف»، لكن الأمر يختلف كليًّا عندما تكون في مقبرة فعلًا.

ينفتح ببطء.. يغمض الرجلان عيونهما لكنهما لا يهذيان. فعلًا هناك يد ملفوفة بالضمادات تخرج من الفتحة.. يد أبلاها الزمن وتآكلت سلامياتها.. كما أن الإفرازات لوثت أطرافها. إنهما لا يدركان أن هذا يحدث فعلًا.. يعمل خط الدفاع النفسي الذي يتوهم أن هذا كله هذيان.

لكن الغطاء ينفتح أكثر وتتصاعد رائحة المر والعنبر من طبقات الكفن. المومياء لم تبعث.. نحن سادة النجوم نتسلى بتحريكها لا أكثر.. كأنها دمية خالية نخيف بها طفلة.

الرجلان يتراجعان، شاعرين أن الأمر يفوق قدرتهما على الفهم. سوف نفر إلى الخارج الآن ما دام هذا بوسعنا.. ما زال هناك ضوء خافت واهن يمكن أن نعتمد عليه، أما لو ماتت الكشافات نهائيًّا فهي النهاية.

لكنهما بالطبع لا يريان ما يحدث خلفهما.. هناك تابوت آخر ينفتح.. ومن هذا التابوت يتحرك جسد آخر مغطى بالأكفان.

يلتفت الرجلان.. يصرخان.

يتعثران.. يسقطان.

ثم يسود الصمت.

فيما بعد سوف يجد القادم الجديد جثتين مفتوحتي العيون.. تنظران نظرة هلع مروعة إلى من يراهما.. وسوف يسمع شريط التسجيل لتتكاثر علامات الاستفهام أكثر.

الفكرة هنا أننا نترك شهودًا.. لا بد من شهود وإلا فلا قيمة لهذا العمل الفني.

شريط الكاسيت سوف يكون شاهدنا، وسوف يسمعه العشرات.. وعما قريب سوف يصدر كتاب عن لعنة الفراعنة التي تفتك بمرتادي المقبرة رقم ١٢.

الحقيقة أن معظم قصص لعنة الفراعنة صنعها سادة النجوم الذين خرجوا في فجوة وادي النجوم.

إنه الهول.. الهول.

* * *

لما خرجت في وادي الملوك وقفت أصيح في الظلام الكثيف:

ـ أنا «ساحال».. هبني الهول يا سيد الصيرورة.

هذا النداء لا يفهمه البشر من أمثالكم.. يخيل إليهم أنه عواء ذئب أو تلك الضحكة الكابوسية المميزة للضباع.. إنهم فقط يدركون أنه مخيف، ويشعرون بعدم راحة أو توجس لدى سماعه، لكن لو فهموا معناه الحقيقي لشابت شعورهم وهم في بطون أمهاتهم.

ـ هبني الهول يا سيد الديجور.

فيأتيني الجواب وأرتجف:

- تومللي دجملا.. لو هلل دجملا.

ومشيت في الظلام بحثًا عن هول أنشره.. عن دم أنثره.. عن دموع أبعثرها.

تعلّمنا في جانب النجوم أن لكل بلد نوعًا من الرعب يناسبه أكثر: في شرق أوروبا تنجح قصص مصّاصي الدماء والمذؤوبين.. في جزر الكاريبي تنجح قصص الموتى الأحياء.. في شمال أمريكا تنجح قصص الساسكواش ورجل الثلوج.. في شمال أفريقيا تنجح قصص الغيلان. هناك بعض التداخل يتم أحيانًا.. مثلًا «الهامة» عند العرب ليست سوى مصّاص دماء.

هنا في مصر أعرف كيف أقف ليلًا في الحقول المظلمة التي يغمرها ضوء خافت من النجوم، وأبدأ في النداء.. نداء طويل رهيب يجمد الدم في العروق، لكن مَن يسمع اسمه يلبي النداء كالمنوم مغناطيسيًّا.

لاحظ أن موضوع النداء يتكرر معنا كثيرًا، ولعلك تعرف أساطير البانشي في شمال أيرلندا.. إنها تقف خارج البيوت وتنادي باسم صاحب البيت.. ويعرف الفلاحون أن هذا معناه أنه سيموت قريبًا.

هناك أنواع مختلفة من النداهة.

مثلًا قد يتخذ السيناريو صورة تنكر.. أنا أقف تحت بيت عبد الصمد وأناديه.. الصوت صوت صديقه حسين.. يخرج للقائي مندهشًا من سبب قدومي في ساعة كهذه.. أقول له إن صاحبنا مصطفى مريض جدًّا.

يخرج ملهوفًا معي ونمضي معًا في الحقول المظلمة:

- ماذا دهاه؟ هل امرأته معه؟

لا أرد.. هنا يعاود السؤال:

- هل أخذ الحقن التي وصفها له الطبيب؟

- أي حقن؟

هنا يفطن إلى أن في الأمر شيئًا ما.

هذه هي اللحظة الأجمل في القصة.. يستدير لي وقد بدأ يدرك أن هذا الذي خرج معه ليس صديقه حسين.

هذه هي لحظة الذعر الحيواني الأولى.. لحظة الصراخ.. لحظة النهاية.

وفي الصباح يجد الفلاحون جثة ملقاة قرب المصرف أو قرب القنطرة.. طبعًا موضوع الرأس للخلف غير مفهوم هنا ولا قيمة له، لهذا لا نتعب أنفسنا به.

على أنهم يفهمون جيدًا أشياء مثل العيون المشقوقة بالطول والحوافر تحت الجلباب.

كان لي قريب في صيرورة «سيجفريد الأميدي» هو الذي ابتكر قصة الحافر تحت الجلباب هذه.. أنت تعرف القصة.. الفتاة المذعورة التي تمشي خائفة في مكان فيه عفريت له حافر.. تقابل فلاحًا فتطلب منه الحماية لأن هناك عفاريت ذات حوافر هنا.. يرفع الجلباب ويسألها:

- حافر مثل هذا؟

كانت القصة من ابتكاره، وقد ظلت تفزع البشر وتدغدغ خيالهم لعدة أجيال.

اليوم أنا جرَّبت كل شيء.. فعلًا أشعر بملل قاتل.

لقد قررت أن أمارس نوعًا جديدًا من المرح.. نوعًا جديدًا من الرعب.

سوف أحكي لك ما توصلت إليه.

* * *

الهول.. الهول.

لقد أمضيت في مصر فترة لا بأس بها، وجرَّبت الكثير من أنواع الهول، ومزَّقت كثيرين واستمتعت برعب كثيرين.. وكمنت كثيرًا تحت صفحة المياه أراقب من يدنو أكثر من اللازم.. ثم مددت يدي لألتقطه ليهبط تحت الماء ويموت. قدماء المصريين حذروا من هذه الظاهرة.. حاول الإنسان أن يفسرها تفسيرًا عقلانيًا يقضي بأن من يُطل الجلوس على ضفة النهر يختطفه التمساح.. طبعًا لا توجد تماسيح في الريف المصري اليوم لهذا لا يوجد تفسير.. وحيث لا يوجد تفسير تتكاثر الأساطير وتزدهر.

جرَّبت كل أنواع الهول لكنني بدأت أمل.

المذؤوب لن يقتل أكثر من عشرة في الهجمة الواحدة.. مصَّاص الدماء لا يقتل سوى رجلين.. قدرات المسوخ على إحداث الدمار محدودة جدًّا. رأيت ذات مرة فيلمًا من أفلام مصَّاصي الدماء، يقوم فيه «دراكيولا» بملاحقة فتاتين على مدى ساعتين.. إذن كم من الوقت يحتاج إليه لقتل مائة فتاة؟

لهذا بدأت أفكر في نوع آخر من الرعب.. هناك كائنات لديها القدرة على إحداث كم أكبر من الموت والدمار. ذلك الطيار الذي ألقى القنبلة الذرية على هيروشيما قتل ١٥٠ ألف بشري. يمكنك أن

تقتل نصف مليون مواطن بريء بحرب أهلية أو بيولوجية.. المجاعات تفتك بأعداد هائلة.

يجب على الرعب أن يتطور.

لن يظل الشيطان بلحية تيس وحوافر للأبد.

* * *

ناهد الصحفية الشابة التي تسكن في الهرم عانت مشقة بالغة كي تصل إلى مكتب الدكتور مختار في هذا اليوم. الحر قائظ والزحام شديد والناس وقحون.

كان الموعد في الحادية عشرة صباحًا، لكنها اضطرت للاتصال كي تؤجله قليلًا.. كانت السكرتيرة «الأليطة» الخنفاء غضبى ولم يرق لها الأمر، حتى اضطرت ناهد أن تصيح:

ـ هل خرجت للشوارع يا حبيبتي؟

ثم وضعت السماعة وأشارت إلى أول ميكروباص.

هنا مشكلة أخرى هي التحرش، فالحقيقة أن ناهد جميلة فعلًا وتجذب الأوغاد كأنهم الذباب.. لا يمكنها أن تمشي في مكان ما من دون مضايقات.. هكذا تحملت بصعوبة الرحلة الشاقة إلى مكتب الدكتور مختار.. ثم المرور على الأمن وتفتيش حقيبتها.

كانت تعرف أن الرجل مكروه، وأن كثيرين لا يطيقونه، لهذا هو يخشى جدًّا محاولة اغتيال.. لقد استطاع أن يتحايل على القانون بقوة لكنه بلا شك مدان.. بلا شك قاتل.

فقط عليها أن تخفي أفكارها.

عندما أدخلوها إلى ذلك المكتب المكيف جلست ترتب أفكارها.

كانت النظرية توشك على الاختمار في رأسها.. المشكلة أولًا أنها خيالية جدًا.. ثانيًا: إثباتها مستحيل.

لاحظت ناهد أن هناك عددًا من الأشخاص في مصر تسبب كل منهم في مقتل العشرات.. ربما المئات مؤخرًا. كل رجل شارع يعرف ذلك. المشكلة أن بعض هؤلاء القوم ظهروا فجأة في المجتمع.. جاءوا من حيث لا يعرف أحد.. كل محاولة لمعرفة متى بدأوا تفشل.. لا يمكن أن تقابل من يعرف قريتهم أو مدرستهم أو الكلية التي تخرجوا فيها.. فجأة هم في الحياة العامة.. فجأة هم وزراء أو مسؤولون.. وقراراتهم كارثية.

الدكتور مختار ظهر فجأة منذ أعوام. حاولت جاهدة أن تجد خيطًا.. قيل إنه كان في الولايات المتحدة طيلة حياته، وهي لا تعرف جهة تراسلها هناك.

هناك مصطفى عبد الباري رجل الأعمال الشهير.. هناك محمود شرف الوزير السابق.

القائمة تتسع لخمسة أسماء.

من أين جاء هؤلاء؟

متى ظهروا؟

لو تركت المجال لخيالها لقالت إنهم جاءوا من الجحيم.. من فجوة شيطانية ما.

ضحكت للفكرة وهي ترشف رشفة من عصير الليمون الممتاز الذي جلبوه لها.. باااارد.. هذا أهم شيء في هذا الجو.

انفتح الباب ودخل الدكتور مختار.. قبل قدومه تهب رائحة عطرية

شديدة الفخامة توشك على أن تدوخك، وكانت هي غارقة في الغبار والعرق حتى شعرت بخجل من نفسها.

أنيق جدًا.. له ذلك الشعر الشبيه بسلوك الفضة، الذي يميز كل رجل مهم عرفته في حياتها، برغم هذا كله كانت هناك لمسة مخيفة معينة تحيط به.. ما السبب؟

قال لها بطريقة متبسطة:

ـ أنت ناهد وأنا مختار.. اجلسي.

ثم جلس على الأريكة أمامها وأشعل سيجارًا عطر الرائحة ووضع ساقًا على ساق.

مدت يدها الراجفة لتخرج جهاز الكاسيت:

ـ هل هناك أسئلة ممنوعة؟

ـ لا شيء.

لكنها كانت تعرف أنه سينفجر فيها غضبًا لو دخلت في موضوع الأمصال و«الثاليدومايد».. يجب أن تكون حذرة.

قالت في كياسة:

ـ دكتور مختار.. أنت تعرف أن الشارع كله يتكلم عن أنك كنت وزير الصحة وسمحت بدخول عقار «ثاليدومايد» الذي كفَّ العالم عن استعماله، وهذا العقار آذى أطفالًا كثيرين.. بعد هذا مشكلة اللقاحات التالفة التي يقال إنها أدت إلى موت ٣٠٠ طفل آخر.. هذه الأرقام لا نسمعها إلا في مصر حيث يقال إنه لا سعر للحياة البشرية.

توملل دجملا.. لوهلل دجملا.

توملل دجملا.. لوهلل دجملا.

قال مختار وهو ينفث سحابة دخان كثيفة:

ـ هؤلاء القوم يمزحون.. أنا لست هتلر لأقتل كل هذه الأعداد.. معنى هذا أنني الموت يمشي على قدمين.. هناك صلاة هندوسية تقول: أنا أصبحت الموت.. مدمر العالم.

ـ بالفعل يقولون هذا.

كانت تفكر بلا توقف.. السفينة الغارقة التي يملكها محمود شرف والتي أدت إلى مصرع ألف شخص.. قيل إنه لم تتم لها أي صيانة منذ أعوام. وماذا عن مشتقات الدم الفاسدة التي استوردها مصطفى عبد الباري؟

كل هذه الأعداد من الموتى.. وفي كل مرة تبحث عن جذور المسؤول فتجد أنه كان في الخارج، أو أن أحدًا لا يعرف بدايته. لم يعد يحتل منصبًا مهمًّا اليوم.. لكنه موجود.. وهناك غاضبون كثيرون يتمنون تحطيم رأسه.. هو يعرف هذا.

قالت له بحذر:

ـ أين كنت تقيم في الولايات المتحدة؟ وما هي شهاداتك؟

نظر إليها نظرة نارية واشتعلت عيناه غيظًا:

ـ لو كنت قد جئت لامتحاني أو التأكد من أنني لست نصابًا، فأنا أعتذر عن استكمال الحوار.. أنا كنت وزير صحة وأقسمت اليمين، لكن واضح أن التبسط يجلب الذباب.. سؤال آخر كهذا وسوف أنهي الحوار.

ابتلعت الإهانة وقلبت أوراقها ثم عادت تسأل:

ـ ماذا عن عقار «الثاليدومايد»؟

ـ هذا العقار قد عاد يُستخدم في العالم كله.. من يرفضونه جهلة ببساطة.

المرء يتحمل الكثير.. منذ فترة كان من المستحيل أن يتحمل محادثة كهذه.

ـ أنا «ساحال».. هبني الهول يا سيد الصيرورة.

توملل دجملا.. لوهلل دجملا.

توملل دجملا.. لوهلل دجملا.

* * *

كانت أوراق ناهد تتكاثر بلا توقف.

الملف الذي تضع فيه أوراقها ينتفخ.

المشكلة أن معظم هذه المعلومات خطير.. خطير لدرجة أنها لا تستطيع أن تذيعه.

كل محاولة لمعرفة متى بدأوا تفشل، لا يمكن أن تقابل من يعرف قريتهم أو مدرستهم أو الكلية التي تخرجوا فيها.. فجأة هم في الحياة العامة.. فجأة هم وزراء أو مسؤولون.. وقراراتهم كارثية.

لو تركت المجال لخيالها لقالت إنهم جاءوا من الجحيم.. من فجوة شيطانية ما.

توقفت السيارة أمام الفيلا الفاخرة التي يملكها الرجل في المقطم.. ترجلت من السيارة بينما كلاب «الدوبرمان» تنبح في شراسة وراء

تلك البوابة الحديدية.. ظهر رجل الأمن ليربطها ويفتح البوابة، بينما تساءل سائق التاكسي وهو يتقاضى أجره:

ـ مَن يعيش هنا؟

قالت وهي تعد المال:

ـ محمود شرف.. الوزير السابق.

ـ ابن الـ... الذي تسبب في مقتل ألف حاج بريء؟

ـ أعتقد أنه هو.

أدار السائق المحرك وقال:

ـ علي الشافعي.. الفيلا في آخر هذا الشارع.. هو الآخر تسبب في تسمم مدرسة أطفال كاملة عندما كان مورد أطعمة.. خرج من القضية كالشعرة من العجين.

تساءلت في فضول:

ـ علي الشافعي؟ من أين هو؟

نظرة الغباء المطبق مع التظاهر بالخبث:

ـ لا أحد يعرف.. كأنه جاء من تحت الأرض.

يجب أن تتذكر هذا العنوان.. سوف تعود لمقابلة هذا السيد علي الشافعي.. لكن ليس اليوم.

كانت البوابة قد انفتحت.. رجل الأمن يمرر عصا مغناطيسية على ثيابها. لو كانت هناك علامة مشتركة بين هؤلاء فهي أنهم يتوقعون الاغتيال.. كلهم خلقوا أعداء في كل مكان.

كلب «الدوبرمان» المخيف يزوم مهددًا.

رجلا أمن يصحبانها للداخل لتقابل محمود شرف.. الرَّجل

الكبير.. الرجل الذي يبدو كأنه جاء من فيلم عربي جديد.. البدانة.. الكرش العملاقة.. جالس جوار حمَّام سباحة يحتسي العصير.. يجب أن تكافح لتصل إلى هذه الراحة.. يجب أن تضحي بكل شيء ويلعنك الجميع وتدعو عليك ألف أسرة تتذكر عائلها.. عائلها الذي لم يمت في حفل رقص وإنما كان ذاهبًا إلى الحج.

حقًا.. إن الوصول إلى الثراء يحتاج إلى تضحيات كثيرة.

تقترب من حمَّام السباحة، فيشير لها رجل الأمن إلى مقعد.

ـ فلتر ما تشربه.

قالها محمود شرف وهو يضحك لها من وراء نظارته السوداء، ثم أضاف:

ـ أنت أجمل من صوتك بكثير.. يا.. يا قمر!

هذا رجل يختلف عن الدكتور مختار الذي لم يكن يميل للنساء.. إنه يميل لهن جدًّا كما هو واضح.. على كل حال هي قد شطبت مختار من القائمة بعدما استبعدته من شكوكها. جلست وبطريقة عملية أخرجت جهاز التسجيل، وقالت:

ـ ليمون.. هل نبدأ؟

ـ ليمون إذن.. فلنبدأ.

قالت له في كياسة:

ـ كلما تحدثنا عنك.. تحدثنا عن السفينة التي نقلت الحجاج والتي لم تخضع لصيانة منذ أعوام، وبرغم هذا يقال إنه تم تزييف أوراق صيانة لها.

قال في ضيق:

- تم تحقيق مطول في هذه النقطة.. ولا أرغب في العودة إلى هذا الموضوع.

بعد بضعة أسئلة وجهت له السؤال الأهم:

- ظهرت فجأة في المجتمع المصري وعالم السياسة، وقيل إنك كنت تدرس في فرنسا.. هل يمكنك أن تلخص لنا تاريخ حياتك المهني والعلمي قبل العودة إلى مصر؟

بدل من جلسته ليبرز كرشه العملاقة أكبر، كأن هذه الكرش وسيلة إغراء، وقال:

- هذه تفاصيل طويلة سوف تعد لك السكرتارية ملفًا على كل حال.. أنا أعتبر بدايتي الحقيقية هي يوم عدت إلى مصر.

كان يتحدث في تلذذ وهدوء. أقسمت لنفسها إنه يجد لذة سادية ما في تذكُّر مَن قتلهم.. أو ربما لذة ماسوشية ما في تذكُّر أن الكل يلعنه الآن.

قالت لنفسها إن الرجل جدير فعلًا بأن يضاف إلى قائمة «لا تاريخ لهم - جاءوا فجأة - جاءوا من مكان مجهول - قتلوا الألوف».

قائمة دقيقة هي.. وكانت قد أعدت استبيانًا من عشرين نقطة تحكم به إن كانت شكوكها في موضعها أم لا.. إن هتلر تسبب في موت الملايين لكنه لا يحقق معظم الشروط.. مثلًا الكل يعرف طفولته ومتى نشأ وكيف مات.. جنكيز خان لا يحقق الشروط.

أمسكت ورقة الاستبيان وقررت أن تبدأ بتوجيه أسئلة.

ناهد سوف تضيف إلى قائمتها اسمًا جديدًا على الأرجح.

* * *

في الوقت ذاته..

شهوة الدم كانت تغلبني.

برغم كل شيء ما زالت الأساليب القديمة تروق لي، وما زالت أسرع وأجدى تأثيرًا.

قررت أن أقوم بتمرين صغير.. نزلت إلى فجوة من فجوات جانب النجوم المتناثرة في مصر، ومضيت أسبح فيها حتى خرجت في مشرحة مستشفى «........».

كان الحارس غافيًا جوار باب الثلاجة، وجواره كوب شاي نصف ممتلئ، وفي يده لفافة تبغ توشك على حرق أنامله.. هذه المرة سوف أمارس لعبة الجثة التي تتحرك.. وقفت وراء باب الثلاجة بالداخل البارد ورحت أضرب بقبضتي مرارًا.

هب الحارس المسن مذعورًا.. هتف:

- بسم الله الرحمن الرحيم.

راح يصغي للحظات.. خُيل إليه أنه يهذي، ثم جاءت الضربات أقوى وأعنف. ومن الداخل أطلقت صوت فتاة تتأوه:

- أرجوووووك.. أخرجني من هنا.

عاد يبسمل ويحوقل ويسألني:

- مَن... مَن أنت؟

قلت بذلك الصوت المتحشرج:

- أنا.. أنا حية.. لم أمت.. أرجوك أن تفتح الباب.

هرع بسرعة يعالج مقبض الثلاجة.. الثلاجة تتسع لخمس جثث.. حاليًا لم تكن فيها سوى جثة هذه الفتاة.. وبالطبع كان

يلبي غريزة إنسانية طبيعية.. لا أحد يترك فتاة حية سجينة ثلاجة لو أردت رأيي.

عالج المقبض وفتح الباب، وفي اللحظة ذاتها لا بد أنه تذكر أن الفتاة التي بالثلاجة لا يمكن أن تكون حية ولا يمكن أن تكون مدفونة خطأ.

هذه فتاة داسها قطار فشطرها إلى نصفين.

تذكر هذا فقط بعدما انفتح الباب ووجد نفسه ينظر إليَّ!

* * *

في الصباح جاء رجال الشرطة والتقطوا عشرات الصور.

كان ما تركتُه للناس هو رسالة قصيرة مخيفة فعلًا: الحارس المسن على باب الثلاجة وقد بدا الهلع في عينيه الشاخصتين المتجمدتين، وفمه مفتوح في صرخة لوعة مخيفة فعلًا.

شيء أثار ذعر الرجل.. أفزعه إلى درجة أن قلبه توقف.. هذا ما سوف يستخلصونه من المشهد، لكن الرسالة الأخطر هي شطرا الفتاة التي مر القطار على جسدها.. هناك شلو في كل موضع من القاعة.. لا أحد يعرف السبب ولا لماذا أخرج الحارس هذه البقايا.

الاستنتاج الذي لن يجرؤ أحد على التصريح به هو أن الأشلاء غادرت الثلاجة بنفسها.. لن يكتب أحد هذا في التقرير.. لكن الكل سوف يتذكره، وسوف يتذكره جيدًا الحارس الليلي القادم ومن بعده.

هذه هي تركة الرعب التي نتركها نحن سادة جانب النجوم في كل مكان.

* * *

راحت ناهد تراجع الملف الذي أعدته لها سكرتارية الوزير السابق محمود شرف، والذي افترض الرجل أنها ستُطعِّم المقال به.. بالفعل هناك فجوات كثيرة في قصة هذا الرجل. كانت تعرف أنه من قائمة «لا تاريخ لهم ـ جاءوا فجأة ـ جاءوا من مكان مجهول ـ قتلوا الألوف».

نزلت من الميكروباص.. لسبب ما كانت تعتبر الميكروباص وسيلة من وسائل العمل الصحفي.. لا تثق بأي صحفي يذهب إلى مقابلة المصدر في سيارة ملاكي.. ربما سيارة تاكسي لو كانت ظروفه المالية تسمح، لكنها اليوم لا تجد نقودًا معها.

من جديد ينبح كلب «الدوبرمان» ويخمش البوابة.. يجره رجل الأمن بصعوبة.. كاشف المعادن.

هناك عند حمَّام السباحة يجلس محمود شرف كما رأته من قبل.. كان يجفف نفسه بالمنشفة ثم وضع الروب على كتفيه وقال دون أن ينظر إليها:

ـ سوف نتكلم بالداخل.

تتبعه إلى ممر ضيق يجلس رجل أمن على بابه، ثم إلى غرفة جلوس صغيرة تعبق فيها رائحة التبغ.. يتجه إلى دورق معدني بارد ويصب لها بعض عصير الليمون في كأس.

عاد ليجلس ويضع ساقًا على ساق.. ينظر إليها في ثبات.

قال لها بعد صمت طال:

ـ هل قرأت الملف؟

ـ نعم.

ـ الحقيقة أنني لا أفهم سبب اهتمامك البالغ باقتفاء أثري.. لقد قابلت كل شخص يعرفني.. بحثت عن كل شيء يتصل بي.. إن لي مصادري.

قالت في برود وهي ترشف الليمون:

ـ هذا شيء طبيعي.. أنا صحفية.

هز رأسه مفكرًا.

لما فرغت من الكأس وضعتها على المنضدة جوارها.. هنا لاحظت أن الرجل يرمقها في فضول وثبات.. بعد صمت طال قال لها:

ـ أنت تشعرين طبعًا بثقل جفنيك.. السبب هو عقار «روهيبنول» الذي وضعته لك في عصير الليمون.

شعرت بأن الرؤية مضطربة نوعًا.

قال وهو يبتسم:

ـ هذا العقار مشهور في الخارج.. يسمونه «عقار الاغتصاب في المواعيد الغرامية» لسبب لا يغيب عن فطنتك.. لن تغيبي عن الوعي.. لن تكوني في غيبوبة.. ولكنك ستفقدين أي إرادة.. ستفعلين أي شيء أطلبه منك.. يمكنك تخيل ما سيحدث.. فيلم فيديو ومجموعة صور.. بعدها لن تتكلمي أبدًا.. سوف تخبرينني بكل شيء: مَن أرسلك ولماذا؟ لماذا تلاحقينني؟ قبل هذا سيأتي رجل أمن لتفتيشك ليتأكد من جديد من أنك لا تحملين أجهزة تنصت.. هل فهمت يا صغيرة؟

نظرت إليه بعينين زائغتين، فأضاف:

ـ هل فهمت؟ سوف تفعلين كل شيء بإرادتك ولن تستطيعي اتهامي بشيء.. هذه هي فائدة علم «الفارماكولوجي».. حتى لو أخبرت العالم كله أنك هنا في داري، فلن يستطيع أحد اتهامي بشيء.

ثم أشعل لفافة تبغ ببطء، وقال لها وسط سحب الدخان:

ـ السؤال الأول الذي سنعرف إجابته حالًا هو: لماذا تلاحقينني؟ لماذا لاحقت الدكتور مختار ومصطفى عبد الباري؟

ثم نفث سحابة كثيفة وأضاف:

ـ السؤال الثاني: مَن أنت؟ لقد بحثوا عنك في نقابة الصحفيين وفي تلك الجريدة.. كل معلوماتك زائفة.. أنت كاذبة. السؤال الثالث: ما أنت؟ لماذا ظلت كلاب «الدوبرمان» ترتجف وكفت عن الأكل بعد زيارتك؟ إنها تنبح في البداية ثم تكتشف أن الأمر أكبر منها.. هل من تفسير؟

هنا رفعت ناهد رأسها ونظرت إليه وقالت بصوت كالفحيح:

ـ أنت ذكي.. الدكتور مختار كان ذكيًّا.. من الواضح أن الأشرار أذكى من الأخيار نوعًا.. الدكتور مختار عرف أكثر من اللازم ومن الواضح أنك مثله!

لم يفهم ما حدث بالضبط.

يبدو أن هناك ممسات تخرج من صدر الفتاة.. ليست فتاة أصلًا.. إنها أقرب إلى كائن مخيف يتكون من أهداب لا حصر لها.. رأى ذات مرة صورة لأم أربعة وأربعين مقلوبة فلم يتحمل بشاعة المشهد.. هنا كان يرى المشهد ذاته على نطاق واسع.

وقبل أن يفهم، أدرك أن هناك ممسًا في صدره.. وأن هذا الممس يخرج من فمه.. وأن...

* * *

تو ملل دجملا.. لو هلل دجملا.

ـ هبني الهول.. هبني الهول!

انتهيت من تمزيق الكائن الأرضي فغادرت المكان.. لقد كررت تقريبًا ما حدث مع مختار من قبل.

كنت آمل دومًا أن أجد آخرين من جانب النجوم يتنكرون في مظهر أرضي، ويحاولون نشر الهول كما أفعل أنا.. كنت آمل أن أتحالف معهم، وبهذا نخلق عاصفة من الهول تجتاح مصر.. كنت أعرف أنهم لو وجدوا فلسوف يكونون من صيرورة أخرى، ولسوف يكون من الصعب أن أعرفهم ما لم ألقهم شخصيًا.. نحن لا نعرف خطط مَن هم من صيرورة أخرى، ولا نعرف مَن هم ولا كيف يبدون.. الأمر يختلف عن مفهوم الزمالة كما يفهمه الأرضيون.

جرَّبت البحث عنهم في صورة الصحفية ناهد.. لكنني لم أجد أحدًا من جانب النجوم.. كلهم أرضيون جدًا.

وفي كل مرة أضطر إلى تدمير الكائن لأنه عرف أكثر من اللازم.

لقد حان وقت الرحيل.. يجب أن أترك هذا البلد.. إن فيه من الوحوش الآدمية ما يفوق الآتين من جانب النجوم مثلي.. وليس لمثلي الكثير مما يقوم به.. مجرد ألعاب صبيانية من تحريك الجثث والمومياوات.. لكنني لن أحقق الحلم الثوري الذي تمنيت تحقيقه.

هكذا مشيت إلى تلك المقبرة في وادي الملوك.. أبحث عن الفتحة التي أعبر منها.. سوف أبحث عن فتحة أخرى في بلد آخر.. بلد يحتاج إلى إبداعاتي ومحاولاتي، بدلًا من هذا البلد المكتفي ذاتيًا.

ـ أنا «ساحال».. هبني الهول يا سيد الصيرورة.

تو ملل دجملا.. لو هلل دجملا.

قصة لم تكتمل

الذي لم يشعر بأي اطمئنان كان مصطفى نفسه..
القصة تبدو مملة فعلًا.. لم يعد أحد يتحمَّل القصص العاطفية اليوم.. دعك من هذا التوافق والانسجام. قال «آرثر كلارك» يومًا إن جرائد المدينة الفاضلة ستكون مملة جدًّا بالتأكيد. هذا حقيقي.
هكذا بدأ مصطفى يعاود الكتابة مع التغيير قليلًا.

عندما جلس مصطفى الجندي إلى مكتبه، وعندما شغل جهاز الكمبيوتر، وعندما أعد لنفسه بعض «الكابوتشينو»، وعندما أشعل لفافة تبغ، وعندما قام بتشغيل أغنية خافتة لفيروز، وعندما راح يحدق في الشاشة، كان يشعر بأنه سيكتب عملًا رائعًا.

بعد دقائق بدأ يشعر بقلق.. الفجوة في الورق غير موجودة.. الفجوة التي يعبر منها كل كاتب إلى عالم الرواية ـ لو كانت هناك رواية ـ لا وجود لها هنا، وما يدور هو طقوس محترمة جدًّا لدين لا وجود له.. يعني هناك مذبح وهناك تراتيل وهناك عذراء متأهبة للتضحية.. لكن لا يوجد شيء تدور من أجله تلك الطقوس.

جلس قلقًا.. يرشف «الكابوتشينو» ويسحب عدة أنفاس من التبغ.. ثم بدأ يضرب على المفاتيح ببطء وبدأت القصة تتشكل.

* * *

الغابة وجو العصر الخامل الذي يشتهي القيلولة لكنه لا يجد مُتسعًا من الوقت لها، وصوت الأوراق الجافة التي تنذر بقدوم

الخريف، وصوت الخطوات فوق الأوراق الجافة، مع صوت أنفاس لاهثة.

ومن بعيد يدنو عادل وسلوى متشابكي اليدين والقلبين والأحلام.. يدها رقيقة تسترخي في كفه بدعة واسترخاء واطمئنان.. إنه لي وأنا له.. فلتتوقف أيها الزمن.

كانت تلك الشجيرة تنتظر.. تدعوهما منذ الأزل للجلوس تحتها.. منذ لحظة الخلق الأولى تعرف أنهما سيجلسان تحتها يومًا ما.

فرت سحلية خضراء رشيقة وقد أفزعها القادمان.. ونظر عادل إليها ونظرت إليه.

مدت يدها في حقيبتها وأخرجت قطعة من البسكويت.. شطرتها إلى نصفين فناولته شطرًا والتهمت هي شطرًا. يومًا ما ستفتش جزيئات البسكويت عن بعضها ولسوف تجمعهما من جديد.. هذه اللمسات الخرافية الرومانسية تحركها بشدة.. ربما تمنحها نوعًا من النشوة كذلك.

قالت له:

ـ أنت رجلي ولن ترحل أبدًا.

قال لها:

ـ أنت امرأتي ولن تغيبي وراء الأفق أبدًا. أنا مطمئن.

ـ وأنا كذلك.

* * *

الذي لم يشعر بأي اطمئنان كان مصطفى نفسه.. القصة تبدو مملة فعلًا.. لم يعد أحد يتحمَّل القصص العاطفية اليوم.. دعك من هذا

التوافق والانسجام. قال «آرثر كلارك» يومًا إن جرائد المدينة الفاضلة ستكون مملة جدًّا بالتأكيد. هذا حقيقي.

هكذا بدأ مصطفى يعاود الكتابة مع التغيير قليلًا.

* * *

لاحظت سلوى أن يد عادل ليست على ما يُرام.

عندما دققت النظر لاحظت أنها متفحمة.. وأن العظام مكشوفة في عدة أماكن. شعرت بقشعريرة، وهمست وهي تدقق النظر:

ـ عادل. هل أنت بخير؟ ماذا أصاب يدك؟

نظر إلى يده وبدا عليه الخجل كأنه اكتشف كارثة لم يرها من قبل، وقال في جزع:

ـ الشمس.. ما كان ينبغي أن أجلس في الشمس.. إن هذا...

ولاحظت ما هو أسوأ.. إن جلد وجهه يتساقط.

ثم فتح فمه فلاحظت نابين طويلين هناك.

ـ أنت.. عادل.. أنا لا أعرف ماذا دهاك.

قال وهو ينهض:

ـ نعم.. أنا مصَّاص دماء.. وقد ارتكبت غلطة فادحة عندما تعرضت لهذه الشمس.. يبدو أن علينا أن نختصر الإجراءات.

وقبل أن تفهم كانت هاتان اليدان المخلبيتان قد أطبقتا على يدها، وفي اللحظة التالية أدركت أنه يغرس نابيه في عنقها وأن دمها يسيل، وأن قواها تخور.. إنه يمتص دمها إذن.

* * *

قرأ مصطفى ما كتبه فبدا له سخيفًا جدًّا.. لم يعد أحد يطيق القراءة

عن مصّاصي الدماء، خصوصًا بعدما قرأ الجميع سلسلة «الشفق» وقصص «آن رايس».. ثم إن تخيل مصّاص دماء تحت شجرة في مصر عصرًا، أمر عسير نوعًا.

إن الأمور تسوء.. لقد أمضى ساعتين أمام الشاشة دون أن يحقق سوى بضعة أسطر، وها هو ذا يدرك أن المهمة معقدة.. هكذا عاد يمسح السطور السابقة.

سوف يبدأ من نقطة «وأنا كذلك» عندما كان العاشقان في تمام السعادة.

* * *

أغمضت سلوى عينيها ودفنت يدها في كف عادل.. بدأت تذوب ببطء في عالمه كأن روحها تتدفق لتسيل في دمه.. وبدأت تشعر بالنعاس.

هنا فتحت عينيها قليلًا ففوجئت بأنه يمد يده الأخرى ليعبث في حقيبتها.

هبت في عصبية وصاحت:

ـ ماذا تفعل بالضبط؟

انتفض في توتر.. رأى عينيها المتشككتين، فقال:

ـ لا شيء.. كنت ألعب بمحتويات الحقيبة فقط.

لكنها كانت تعرف.. عندما خبّأت الميكروفيلم الصغير في الحقيبة، كانت تعتقد أنها في أمان وأن أحدًا لا يرتاب فيها.. سوف تتركه في سلة مهملات ذلك الإسرائيلي المقيم في البناية المجاورة للسفارة، لكن من الواضح أن هناك من يشك في أمرها.. الأمن المصري يعرف سرها.. وعادل لم يأتِ صدفة.. هو ليس عاشقًا.. إنه ضابط مخابرات.

المشكلة الآن هي أنه ليس بوسعها أن تغضب أكثر من اللازم.. لن تغضب أكثر مما تغضب أي فتاة أخرى سُرقت حقيبتها.

* * *

لم ترُق الإضافة الأخيرة لمصطفى.

ثمة شيء طفولي مفتعل في هذا كله، وهو بالفعل لا يعرف الكثير عن المخابرات.. تبدو حيلة الميكروفيلم في الحقيبة عتيقة تنتمي لزمن الحبر السري المصنوع من عصير الليمون وهذا السخف.

في صبر رشف رشفة أخيرة من «الكابوتشينو» وعدل ما كتبه.

* * *

في هذه المرة كان العاشقان تحت الشجرة يتهامسان، وفجأة صرخت سلوى.

كان ما تراه هو رأس عادل المنفصل على الأرض، وبركة دم.

رفعت عينيها في ذعر فهوى نصل سيف حاد على عنقها لكنها لم تمت.. زحفت على يديها وقدميها وهي تنشج. أما مَن فعل بها هذا فقد لحق بها وأمسك بشعرها.. لم ترَ وجهه.

قالت وهي تبكي وبصوت مبحوح بسبب الجرح:

ـ مَن أنت؟

سمعت صوتًا غليظًا يقول:

ـ أنا «ابن أبراكساس».. لكن اسمي لن يفيدك لأنك سترحلين حالًا.

كادت تقول شيئًا، لكن النصل هوى عليها مرة أخرى.

* * *

بدت القصة أفضل في رأي مصطفى.

لا بأس.. السفاح المختص بذبح العشاق الجالسين تحت الأشجار.. هذا موضوع مثير نوعًا.. صحيح أنه يُذكِّرك نوعًا بالسفاح الأمريكي «تيد بوندي» أو «زودياك»: في فترة من الفترات كان أي عاشقين يجلسان في مرج في أمريكا يكتبان شهادة وفاتهما! لكن هذا عالم مستجد تمامًا على القارئ العربي.

شعر برضا بالغ عن نفسه.. كان عقله قد بلغ مرحلة الليمونة التي تم عصرها بيد بطل كمال أجسام، لذا تأكد من تسجيل الملف وأغلق الكمبيوتر ونام.

كان أول شيء فعله في الصباح هو أن أعد لنفسه كوب شاي هذه المرة، وهرع إلى الكمبيوتر.

راح يقرأ ما كتبه ليلًا، وكان قد تعلَّم بالخبرة أنه أحيانًا يكتشف في الصباح أن ما كتبه كلام فارغ.. الليل والسهر يغمران العقل في دن من الخمر.. هكذا يصير القياس خاطئًا غالبًا.. لا بد من النوم ومعاودة النظر في النهار.

لكنه عندما عاد يقرأ القصة شعر بقشعريرة.

القصة تبدأ بجثة فتاة وجثة رجل ممزقتين في المرج: «الغابة وجو العصر الخامل الذي يشتهي القيلولة، لكنه لا يجد متسعًا من الوقت لها، وصوت الأوراق الجافة التي تنذر بقدوم الخريف. تحت شجرة ترتمي جثتا عادل وسلوى متشابكي اليدين وقد توحد مصيرهما للأبد. أين ذهب الرأسان؟ هذا هو السؤال الذي

سأله أول مار يرى الجثتين. هناك ورقة جوار أحد العاشقين تقول «ابن أبراكساس»».

ما معنى هذا؟

كان هناك مشهد قتل ومشهد حب و... و... أين ذلك القاتل الذي يُطلق على نفسه اسم «ابن أبراكساس»؟

عندما جاءت زوجته تلومه لأن باب الشقة مفتوح.

وعندما لامته كذلك على قطرات الصلصة التي بعثرها في الصالة حتى باب الشقة، وحتى على درجات السلم.

عندها بدأ يتوتر.

تتكلم عن دم.. القاتل في القصة اختفى في الليل!

لو أطلق لخياله العنان لقال إن «ابن أبراكساس» هذا قد هرب من الكمبيوتر إلى عالمنا!

* * *

التمع فلاش الكاميرا عدة مرات بتلك الطريقة الحكومية الكئيبة التي توحي بمسرح الجريمة، وكان رجال البحث الجنائي عاكفين على فحص الجثتين، وأخذ عينات من العشب. هناك نطاق من رجال الشرطة يمنع المتسكعين من الدخول، وكان المتسكعون والحق يقال أكثر من الذباب. تلك العاطفة الراسخة فينا أن نرى الموت في أشنع صورة ممكنة.. أن نرى الجثث المشوهة المذبوحة أو التي تحولت إلى عجين. سوف تشعر بقشعريرة وهلع وتقزز، لكن الجزء الخفي من كيانك يشعر برضا تام: لست أنا.. أنا ما زلت حيًّا.. لقد ظللت صامدًا.

«ستيفن كنج» يطلق على هذا «هواية الإبطاء بالسيارة لإلقاء نظرة على حوادث الطرق».. ليس الفضول هو السبب الوحيد.

بالنسبة إلى سمير وهبة كان وضعهما سيئًا.. سيئًا إلى حد أن أي مار سوف يشعر أنه سعيد الطالع مجدود الحظ. لا يمكن مهما حدث أن يسوء وضعك إلى درجة أن يبحثوا عن رأسك ـ لا سمح الله ـ وسط العشب.

هناك ورقة ملوثة بالدم تقول: «ابن أبراكساس».

لم يفهم أحد معنى هذا الاسم، لكن أحد رجال المباحث كان يهوى أفلام الرعب، وقد أعلن أن «أبراكساس» هو اسم شيطان.. نفس الشيطان الذي اشتقوا من اسمه لفظة «أبراكادابرا» التي يستعملها كل سحرة العالم.

تحسس العقيد صبري رأسه الموشك على الانفجار:

ـ سفاح مثقف يهوى أفلام الرعب.. هذا الجو ليس مصريًّا على الإطلاق.. أعتقد أنها جريمة شرف، وعلينا أن نجد رجلنا بين أقارب الفتاة.

حقًّا لا توجد احتمالات كثيرة في مصر.. كل مجتمع يفرز جرائمه، ومصر ليست معتادة على أسلوب القاتل التتابعي الشهير.. جرائمنا لها طابع محلي واضح.

قال النقيب عمر وهو يدون ما قيل:

ـ أقارب الفتاة.. سوف يكون هذا سهلًا.

ـ إذن عليكم البدء حالًا.

ونظر إلى الجثتين المغطاتين بالملاءة، وتساءل عما شعر به هذان العاشقان لحظة الموت.. من المؤكد أن الأمر تم بسرعة وقسوة وهذا يريح المرء قليلًا.

* * *

مصطفى الجندي قضى لحظات لعينة وهو يتفقد ملفات الكمبيوتر. من الوارد أن يكون قد أتلف الملف أو أضاعه، فهذا محتمل جدًّا.. يعرف ساعات السهر الطويلة هذه وكيف يرتكب المرء كل أنواع الحماقات في آخرها.

لكن الغريب أن يعدل القصة وهو لا يذكر.

إن القصة التي كتبها ليلًا كانت تتحدث عن عاشقين يتبادلان الغرام في مرج، ثم يظهر سفاح يطير رقبتيهما.. سفاح على طراز «تيد بوندي» أو «زودياك» من الذين يهوون إنهاء قصص الحب بطريقة محزنة.. اليوم يجد أن القصة لا تحوي سوى هذه السطور:

«الغابة وجو العصر الخامل الذي يشتهي القيلولة، لكنه لا يجد متسعًا من الوقت لها، وصوت الأوراق الجافة التي تنذر بقدوم الخريف. تحت شجرة ترتمي جثتا عادل وسلوى متشابكي اليدين وقد توحد مصيرهما للأبد. أين ذهب الرأسان؟ هذا هو السؤال الذي سأله أول مار يرى الجثتين. هناك ورقة جوار أحد العاشقين تقول «ابن أبراكساس»».

ما معنى هذا؟ السفاح كان موجودًا ومشهد القتل كان كاملًا.. أين هذا كله؟

ثم زوجته سناء مصرَّة على أنها أغلقت باب الشقة أمس.

على السجادة قطرات الصلصة أو ذلك السائل الأحمر اللزج الذي بدأ.......

يتجلط؟

هذه القطرات تتحرك من موضع الكمبيوتر بالذات، نحو الصالة، ثم باب الشقة، على درجات السلم، حتى الطابق السفلي.

أين ذهب «ابن أبراكساس»؟ أين مشهد القتل؟

كان الدوار يوشك على تفجير رأسه.. كل شيء يشير إلى تفسير واحد، وهذا التفسير سخيف جدًا ومضحك: أن يتصور أن السفاح الذي أوجده خياله قد تحرَّر.. إنه حر طليق في القاهرة الآن.

كل هذا سخف.

الصحف تتكلم عن شابين اسماهما سمير وهبة.. إنهما مخطوبان وكانا يجلسان في حديقة عامة عصرًا، في ساعة يقل فيها تواجد الناس.. هذا منطقي.. لا بد أن يبحثا عن مكان هادئ بعيد عن المضايقات وتحرش بائعي السميط.. مكان رومانسي.. هذا في الوقت ذاته يجعلهما هدفًا سهلًا.. يبدو أن هناك من هاجمهما وقطع رأسيهما.

مكان رومانسي.. لهذا لم يسمع أحد الصراخ.

مكان رومانسي.. لهذا لم يجد أحد الجثة إلا بعد ساعات.

مكان رومانسي.. لهذا لم يجدوا الورقة التي كتب عليها «ابن أبراكساس» إلا بصعوبة بالغة.

نحن نتكلم عن قاتل يشبه بالضبط «زودياك» الأمريكي.. نفس

الأسلوب الأمريكي.. و«زودياك» قد تمادى إلى درجة أنه قتل مذيعة التلفزيون التي كانت تتكلم عن جرائمه!

ابتلع مصطفى ريقه وقرر أن يصمت.

لكنه لم يستطع أن يمسح القصة التي بدأها.. كان يشعر أن مسحها سوف يزيل آخر علاقة له مع المنطق السديد.. سوف يصير مجنونًا بشكل رسمي ولن يستطيع التراجع.

على أنه قام بخطوة واحدة صحيحة.. قام بأخذ عينات من ذلك السائل الأحمر.. وضعها على قطع من القطن ووضع بعضها على شرائح زجاجية، ثم اتجه إلى صديق له طبيب يملك مختبرًا.

كان سؤاله واضحًا:

ـ ما طبيعة هذا السائل؟

تأمل الطبيب الشريحة تحت المجهر.. ثم قال بلا مبالاة:

ـ سوف أحلله بدقة أكبر، لكن هذا دم متجلط.. هل عندك شك في ذلك؟ وما هو مصدره؟

كان مصطفى قد غادر المكان.

ليلة كاملة مرت عليه في طرقات المدينة، يجلس في كل مقهى بعض الوقت وينظر إلى الفضاء شاردًا.. أعتقد أنه دخن عشرين حجرًا في تلك الليلة السوداء حتى إن صدره كان يعزف سيمفونية متكاملة.

المشكلة أنه لم يكن يعرف ما يقول أو يفعل.

* * *

رامي وغادة.

هذان شابان كانا يجلسان في سيارة في المقطم.. يبدو أن من

قتلهما تسلل إلى السيارة.. ومن المقعد الخلفي استطاع أن يحصد الرأسين.

كان هذا ليلًا.. وقد استغرق الوقت الكثير حتى يجد أحدهم السيارة والدم ينزف من تحت الباب في الصباح.. هناك ورقة تحمل اسم «ابن أبراكساس».

قال معظم من علقوا على الحادث إن «ابن أبراكساس» هذا يسعى لنشر الفضيلة، وأنه لو التزم الشباب الأدب لما استطاع أحد أن يذبحهم.. واعتبره البعض رمزًا للطهر والالتزام الخُلقي.

لكن مصطفى قرأ الخبر الأسود في الجريدة، وارتجف.. كان يعرف أن «ابن أبراكساس» لا يسعى لنشر الفضائل، بل هو ببساطة ينتقم من أي عاشقين.

عندما انتصف النهار كان في طريقه إلى مديرية الأمن.

سوف تكون المهمة عسيرة ومستحيلة، لكن لا بد من أن يُرضي ضميره.

وعندما جلس أمام العقيد صبري في تلك الغرفة التي تعبق بالدخان، وأمام الوجوه المتشككة الكارهة له، قال:

ـ أنا أوجدت «ابن أبراكساس».. وأعرف كل شيء عنه!

* * *

بعد المرحلة الإجبارية الأولى، عندما يفترض الناس أنك مجنون، بدأ رجال الشرطة يجدون شيئًا مسليًا في القصة وراحوا يصغون.

بالطبع هي قصة لا يقولها سوى مجنون تفككت صواميل عقله تمامًا، وقد ازداد الزحام في الغرفة وبدأت التعليقات الساخرة تنهمر،

لكن مصطفى لم يتزحزح.. حكى عشرات المرات قصة السفاح الذي أوجده على شاشة الكمبيوتر ثم فر من هناك.

الحقيقة أنه كان يعرف بعض التفاصيل.. مثلًا كان يعرف أن القاتل يلبس حذاء غليظًا يشبه أحذية تسلق الجبال.. وكان يعرف أنه أشول.. هذه أشياء لم يقلها أحد في وسائل الإعلام.

سأله العقيد صبري وهو يشعل لفافة تبغ:

ـ هل كتبت هذه التفاصيل في قصتك أيضًا؟

رشف مصطفى رشفة أخرى من القهوة، وقال:

ـ لا.. لم أكتب كل شيء.. لكن لكي يكون لقصتك بطل، فلا بد من أن يكون مكتملًا في ذهنك.. أنت تراه وتسمعه وتشم رائحته، لكن لا يجب بالضرورة أن تكتب هذا.. مثلًا أنا أعرف أن القاتل له عين يمنى حولاء حولًا وحشيًّا للخارج لكن لا داعي لذكر هذا.. فقط أراه في خيالي.. أرى حذاءه.. أرى السلاح في يده اليسرى.. لكن لا أكتب كل ما أراه.

تبادل العقيد النظرات مع من حوله وابتسم، ثم قال:

ـ هل من صفات أخرى؟

قال مصطفى مفكرًا:

ـ إنه مصاب بنوع غريب من الصرع يجعل وجهه يلتوي بشكل مخيف.. هذه بالذات عقدة حياته وسبب نفور الفتيات منه في شبابه.. هكذا صمم على أن يجعل كل عاشقين في رعب دائم.. سوف يجوب المروج بحثًا عن عشاق منفردين، وسوف يطير أعناقهم وهكذا ينتقم أولًا، ثم يقنع نفسه بأنه يمارس نوعًا خاصًّا

عجيبًا من الفضيلة.. يجب أن أقول كذلك إنه مولع بشكل خاص بساعة الغروب، ومولع بأيام الثلاثاء، ويحب القتل بالسيف لأنه يحب الدماء والموت البطيء.. بالنسبة إليه القتل بالمسدس غير ممتع.. إنه يقرأ الكثير عن الشياطين على شبكة الإنترنت، ولهذا يعرف اسم «أبراكساس».

سأل العقيد في سخرية:

ـ وكيف عرفت هذا كله؟

ـ لأنني مَن صنعه.. أعرف كل تفاصيل شخصيته، ولو استكملت قصة له لجعلته يقتل بهذه الطريقة في يوم ثلاثاء.

تبادل الرجال النظرات للحظات قبل أن يطردوا مصطفى مصحوبًا باللعنات لأنه أضاع وقتهم.. لقد سلّاهم لفترة معقولة لكن ما يقوله هراء في النهاية، وعليهم واجبات أهم.

* * *

هذا بالطبع حتى صباح الأربعاء، عندما جاء ثلاثة رجال شرطة أخذوه بالقوة إلى مديرية الأمن، وهذه المرة كانت الوجوه أكثر والنظرات أخطر والدخان أكثر كثافة والمعاملة أعنف.

كان يعرف الإجابة طبعًا.. هناك عاشقان قد ماتا أمس ساعة الغروب.. أمس كان الثلاثاء.. بالطبع هناك آثار حذاء تسلُّق واتجاه قطع الرؤوس يشي برجل أشول.

قال مصطفى:

ـ أرجو أن تكونوا متأكدين من أنني لم أفعل هذا.

قال النقيب الشاب الذي كان معه في المرة الأولى:

ـ للأسف.. لقد راقبناك أمس.. كنت في المقهى لم تفارقه.

ـ هذا جميل.. أعتقد أنكم في سبيلكم لتصديقي.

ـ لا نصدق.. لكن لا نجد مخارج أخرى.. أنت تعرف القاتل.. ربما هو قريبك أو أخوك.

في عصبية قال مصطفى:

ـ بالطبع لا.. تمنيت لو أنكم فكرتم خارج الصندوق مرة واحدة.

ساد الصمت، وبعدها بدأت عملية استجواب بسيطة طويلة مرهقة.. كل واحد يدخل ويبدأ السؤال من جديد.. ألف قدح قهوة.. ألف سيجارة.. ألف متشكك.

في النهاية، وفي ساعة لا يعرف مصطفى إن كانت ليلًا أم نهارًا قال له رجل ضخم يحمل ملايين النياشين (لا يعرف شكل وزير الداخلية شخصيًّا لكنه لن يستبعد لو قيل له إنه هو):

ـ أمامك فرصة ذهبية لترينا.. سوف تعود إلى دارك وتستكمل قصتك.

ـ ماذا؟

ـ سوف يمل هذا السفاح حياته ويقرر الانتحار.. كل سفاح يحمل بذرة الانتحار داخله، وأنت تعرف أن «زودياك» انتحر غالبًا.. هذا ما يقال.. سوف تكتب هذا في قصتك.

ـ ولكن...

ـ هذه تجربة تستحق أن نجربها.. سوف نعيدك إلى دارك.. كل ما عليك هو أن تفتح جهاز الكمبيوتر وتواصل كتابة القصة.

* * *

وهكذا عاد مصطفى إلى البيت.. كان يعرف أن المهمة صعبة.. على الأرجح لن يدخل «ابن أبراكساس» القصة أبدًا.. لن يظهر في النص.

كان المشهد الذي طالعه في صالة البيت هو زوجته.. كانت جالسة على المقعد هناك، لكن رأسها لم يكن في موضعه.. وأدرك أن الأرض عليها آثار أقدام.. أقدام تلبس حذاء تسلّق ملطخًا بالدم..

لقد كان هذا الشيء في المطبخ.

وجد السكين العملاقة على الأرض جوار الجثة.. انحنى والتقطها واتجه إلى جهاز الهاتف.. لو استطاع أن يطلب الشرطة قبل أن...

لكنه سمع ذلك الصوت الثابت يتكلم من خلفه:

ـ لا تضيع وقتك.. «ابن أبراكساس» قد تحرر ولن يعود.. لم يعد من حق أحد أن يكتب قصتي.. أنا سأكتب قصتي بنفسي وأكتب قصص الآخرين.

وفجأة لم يعد مصطفى يشعر بالعالم من حوله.. كانت الأرض تنزلق من تحته، وساد ظلام غريب.

* * *

بيده اليسرى ضرب «ابن أبراكساس» على مفاتيح جهاز الكمبيوتر:

بكى مصطفى كثيرًا وهو يحاول تحرير يديه المقيدتين بحبل من ليف.

كان رجال قبائل المايا يرقصون ويصرخون ويشربون الخمر بلا توقف.. وكانوا يحملون القربان البشري إلى حفرة النار المتقدة.. من أجل «كويتزالكوتل» إلههم الوثني سوف يقدمون هذه الضحية البشرية المذعورة.

كانت مشكلة مصطفى هي أنه لا يعرف كيف ذهب هناك.. ولا علاقته بقبائل تعيش في المكسيك.. ما يعرفه هو أنه كان في عالمنا وزمننا، وفجأة وجد نفسه هناك في ألعن ظروف يمكن تخيلها. النار تلتهب وتتصاعد لعنان السماء، والرقص يزداد حدة وجنونًا.

لكن ليطمئن قلبه.. للأسف هو لن يموت بهذه السرعة وهذه البساطة.. سوف ينجو ليواجه لحظات ألم أقسى وأعسر.

وضحك «ابن أبراكساس» فالتوى وجهه بهذا الشكل المخيف الذي يثير رعب الفتيات.

الحقيقة أنه بدأ يحب الكتابة.. يمكن أن يتحكم في مصائر الناس ومستقبلهم بهذه الطريقة، ويمكن أن يمارس أعتى درجات السادية وهو جالس.. صحيح أن مصطفى بطل قصة تافه جبان لكن لا بأس به كبداية.

لحظة ممتعة هي عندما تدرك أن هناك أديبًا تحت جلدك وأنت لا تعرف.

هكذا جلس «ابن أبراكساس» إلى مكتب مصطفى، بعدما أعد لنفسه بعض «الكابوتشينو»، وأشعل لفافة تبغ، وقام بتشغيل أغنية خافتة لفيروز، وراح يحدق في الشاشة، وهو يشعر بأنه سيكتب عملًا رائعًا.

في شارع المشاط

هذا ليس بالشارع القبيح والمنطقة ليست بالعشوائية.. بالواقع هي أقرب إلى الهدوء والجمال. أمس رأيت هناك هدهدًا وهو مشهد لم أره منذ ثلاثين عامًا. الأرض ليست «أسفلت»، بل هي أقرب لصخر نما عليه العشب. وطبعًا لا داعي لأن أقول لك إنه لا توجد هنا سيارات.. ثمة دراجات أطفال فقط. هناك أكثر من شرفة في الطابق الأرضي يجلس فيها رجل مسن يشرب الشاي أو سيدة تقوم بتنقية الأرز من طبق كبير.

(١)

لن أطيل عليك.

أنت تعرف تلك المنطقة جيدًا فلن أضيع وقتًا في وصف ما تعرفه فعلًا.. تعرف كذلك المطعم الصغير الذي لا يتجاوز فرجة بين جدارين.. هناك مقلاة طعمية وقدرة فول وهناك منضدتان تقفان بمعجزة ما على ثلاث أرجل.. حيث يقف رضا يبيع الفول في حماس ومعه يبيع الخبز والمخللات لمن يريد.. هناك منحدر تحاول أن تعبره دون أن تقع، وهناك سلم هابط مكون من صخور مهشمة.. سوف يقودك إلى ذلك الشارع الممتد.. شارع «المشاط».

هذا ليس بالشارع القبيح والمنطقة ليست بالعشوائية.. بالواقع هي أقرب إلى الهدوء والجمال. أمس رأيت هناك هدهدًا وهو مشهد لم أره منذ ثلاثين عامًا. الأرض ليست «أسفلت»، بل هي أقرب لصخر نما عليه العشب. وطبعًا لا داعي لأن أقول لك إنه لا توجد هنا سيارات.. ثمة دراجات أطفال فقط. هناك أكثر من شرفة في الطابق الأرضي يجلس فيها رجل مسن يشرب الشاي أو سيدة تقوم بتنقية الأرز من طبق كبير. هذه من البيوت التي تجلس فيها قطة مشمشية

على حاجز الشرفة، وقد نفشت صدرها وثنت يديها تحتها في ذلك الوضع الذي أسميه «العبوة».

بعد قليل سوف تكتشف أن الشارع طويل جدًّا جدًّا، أطول مما كنت تظن.. وهو يمتد إلى مرمى البصر حتى يبلغ فتحة بين بنايتين، ثم تجد نفسك في الشارع الرئيسي حيث السيارات والزحام.

كنت أشعر بتناقض منظرنا مع هذا الجو الموحي بالسلام.. لوحة رعوية رسمها فنان بريطاني تمشي عليها صراصير سوداء خشنة، الفكرة هنا أنك تحتاج إلى الصراصير أحيانًا لأنه ما من أحد آخر يقبل أن يقوم بمهمتنا هذه.

(٢)

المنزل رقم ١٣.

هذا العنوان الذي جعله فيلم كمال الشيخ القديم خالدًا وموحيًا.. هو مجرد بيت هادئ من تلك البيوت المتجاورة، له مدخل تفوح منه رائحة الفنيك.

هناك نباتات ظل في إصيص عند المدخل، وهناك جو عام من السلام الذي أفسده الحادث بالتحديد. وقف عزت جوار جثة شذى الصغيرة.. كان الوجه مكسوًّا بالدم طبعًا، لكنك تدرك بسهولة أنها فتاة مراهقة حسناء.. ترتدي ثياب البيت.. راقدة هناك في الصالة على ظهرها ويدها على وجهها في محاولة أخيرة لحماية نفسها.

القصة شبه واضحة.. هناك مَن قرع الباب.. ذهبت لتفتح، هنا هوى على رأسها بعصا حديدية ثقيلة فتفجر الدم من رأسها.. هوى مرة

أخرى ثم توارى بسرعة. لا بد أن هذا وقع في السابعة مساء. معها في الدار أم مسنة ثقيلة الحركة لا بد أنها استغرقت عدة دهور حتى تسأل:

ـ مَن الطارق يا شذى؟ لِمَ لا تردين؟

ثم تنهض في صعوبة فيمر قرن آخر.. إلى أن تبلغ الصالة لتجد جثة الفتاة جوار الباب.. تصرخ.. يسمع الجيران الصراخ بعد شهر..

لا بد أن القاتل في الصين الآن.. لاحظ أن هناك فرجات بين البيوت يمكن أن يعبر منها ليتوارى في الشوارع الجانبية.. لقد ذاب.

رجال المختبر الجنائي يلتقطون الصور ورجال الإسعاف يقومون بمهمتهم العسيرة.. لا دور لي، لكن أحدًا لا يقدر على طردي من هنا.. يعرفون أنني مهم.

دنا مني عزت وأشعل لفافة تبغ وقال:

ـ هل لديك تفسير؟ لم يسرق شيء والفتاة لم تمس.

قلت شارد الذهن:

ـ ربما لم يجد الوقت الكافي ليفعل أي شيء.. صراخ الفتاة أو صراخ الأم جعله يجهض العملية.

رحت أجول وسط الشقة، كلها تحمل ذات الطابع المريح الموحي بالسلام والسكينة.. هذه شقة لم تصمم كي يجدوا جثث الفتيات المراهقات فيها.

كنت في هذا الشارع من قبل.

كنت هنا منذ ثلاثة أشهر.. وهذه هي المشكلة.

إن العثور على جثث مراهقات شيء بشع لكنه من لوازم المهنة بالتأكيد.. يمكن القول إن مهنتي هي جمع أخبار جثث المراهقات

المقتولات.. يوم يتوقف هذا نكون قد بلغنا حالة «النرفانا» أو «الكارما» وانتهت مهمتي.. كأنك طبيب وقد انتصر العالم على المرض والموت.. هكذا حقق الهدف من وجوده لكن دوره انتهى.

منذ ثلاثة أشهر كنت في هذا الشارع.

لم أنسَ هذا، ولم أنسَ أننا فشلنا.

(٣)

أذكر اليوم جيدًا.

كنت أعمل في الجريدة عندما اتصل بي أحدهم قائلًا إنه ترك لي طردًا مهمًّا في سلة المهملات أمام باب الجريدة. بالطبع يمكن أن تكون قنبلة، لكننا والحمد لله ما زلنا بعيدين عن أساليب المافيا هذه. نزلت في حذر ونظرت حولي فلم أرَ شيئًا.. طلبت من رجل أمن أن يصحبني لصندوق القمامة.. مددت يدي بحذر واشمئزاز فوجدت علبة مغلقة.

فتحت العلبة في حذر.. شعرت أن الاتصال بخبراء المفرقعات سوف يجلب على رأسي السخرية.. لم أجد في داخلها سوى حزام من الجلد.. حزام عتيق لا يساوي شيئًا تقريبًا وهو مهترئ بشدة.

هذه مزحة لا شك في ذلك.

بعد ساعة أخبروني أن هناك جريمة قتل في شارع المشاط.. لا أذكر رقم المنزل.. لكن الضحية كانت طفلًا في الثالثة كان يلعب أمام بيتهم ظهرًا.. هناك من تسلل وراء الطفل وجذبه إلى مدخل العقار وخنقه بكل قسوة.

بالطبع توارى القاتل.. ترك جثة الطفل ومعها ترك ذعرًا لا يوصف، وترك كذلك شعورًا غامرًا بعدم كفاءة رجال الشرطة.

لم يسرق أحد شيئًا.. لم يلمس أحد الغلام.. هذه جريمة لا سبب لها، أو ربما هو الانتقام. هناك زوجة سابقة حانقة.. من الوارد أن تكون قد قررت تنفيذ أبشع انتقام ضد الزوجة التالية لها.. لكن البحث لم يثبت شيئًا والزوجة الأولى كانت في عملها وقت الحادث وهناك ألف شاهد على ذلك.

هكذا توارت القضية.

هناك جرائم كاملة كثيرة.. مَن قال إن الجريمة الكاملة غير موجودة؟ يتلقى القاتل عقابه كاملًا يوم الحساب، لكن ليس كل القتلة يتلقون عقابهم في دنيانا هذه.

أنا كنت هنا منذ أشهر.

أشعر بالجو مألوفًا وبأنني رأيت هذا كله من قبل.

يجب أن أحكي لك كذلك عن الطرد الذي تلقيته.. تلقيته في مقر الجريدة قبل إبلاغي بالنبأ بساعات.

(٤)

كما قلت لك: تلقيت الاتصال قبل اكتشاف الجريمة بعدة ساعات. الاتصال الهاتفي قال لي إن هناك طردًا مهمًّا لي في سلة المهملات أمام الجريدة.. بالطبع تذكرت على الفور القصة السابقة.. الطرد الذي تلقيته منذ ثلاثة أشهر.

ما لاحظته هو أن صوته عادي جدًّا كأنه يتكلم في موضوع يتعلق

بالعمل، أنت تعرف هذا الداء الشيطاني الذي يصيب من يهددون هاتفيًا أو يمارسون دورًا إجراميًا.. شيطان التمثيل يتقمصهم فيتكلمون بصوت مبحوح مفتعل.. يصعب أن يتكلم أحدهم بطريقة طبيعية.

وضعت السماعة كالعادة، وطلبت من رجل الأمن مسعد أن يرافقني.. لا أعرف ما سيفعله بالضبط لو كان الطرد يحوي قنبلة مثلًا، لكنني شعرت أن رجل الأمن يقدم بعض الأمن فعلًا..

وجدت الطرد المقصود ففتحته.. كان يحوي شيئًا غير معتاد.. رباط حذاء!

هذه دعابة سخيفة قاسية فعلًا.. من أسخف الدعابات التي تعرضت لها في حياتي. وبدأت أكيل السباب لهذا المتظرف الرقيع الذي لا يجد تسلية سوى تعذيب أمثالي من الجادين.. و...

بالطبع كان هذا عندما دق الهاتف يخبرني بجريمة قتل في شارع المشاط.

لست غبيًا.. الارتباط واضح وقوي جدًا.

لكن كيف أشرح الأمر لرجال الشرطة؟ وماذا أقول لهم؟

(٥)

عزت صديق قديم ويثق برأيي.. إنه رائد في الشرطة.. ونحن نتبادل علاقة التكافل الشهيرة: سأعطيك أخبارًا عن الجرائم، وأنت تكتب أن الرائد عزت الدريني تولى التحقيق أو كشف الجاني.. نفس علاقة

التكافل بين التمساح وطائر الزقزاق: التمساح يمنح الطعام المحشور بين أسنانه، والطائر يمنح تنظيف الأسنان.

حكيت لعزت قصة تلك الطرود فابتسم.. ازدادت ابتسامته اتساعًا وهو يصغي لكل كلمة، وفي النهاية كان وجهه كاريكاتوريًا، إذ صار فمه يمتد من أذن لأذن وقال لي:

ـ أنصحك.. لا تحك هذه القصة لأي رجل شرطة مصري.

قلت محتجًا:

ـ هناك سفاحون كثيرون ينذرون ضحاياهم.. أنت تعرف «زودياك».. «زودياك» قد أنذر كثيرين قبل قتلهم ومنهم الصحفية التي كانت تنشر أخباره في الجريدة.

ضرب رأسه بكفه المفتوحة في ضجر وقال:

ـ ليس لدينا «زودياك» ولا أعرف مَن هو «زودياك».. ما أعرفه هو أن مجرمينا بسطاء جدًا ويتصرفون ببساطة وبدون تخطيط.. هذه تعقيدات لا نفهمها ولا ننتمي لها.. نحن في عالم الرجل الطيب الذي يقتل زوجته بالشاطور ثم يضع جثتها في طست تحت السرير ويذهب لتدخين المعسل مع رفاقه.

كان هذا مقنعًا.. لكن هناك شيء لا يمكن تجاهله هو هذه الطرود وهذه المكالمات.

قال لي في ضيق:

ـ ليس بيدنا عمل شيء سوى أن نفحص الطرد جيدًا.. لكن أؤكد لك أنه لن يقودنا للفاعل.. وفي النهاية سيكون علينا الانتظار..

الانتظار إلى أن تأتي مكالمة أخرى، تعرف أنها لن تأتي.

وهكذا انتهى النقاش.

لكني حرصت على البحث عن معنى رباط الحذاء.. هل له معنى معين؟ بالطبع لم أجد.

نسيت الأمر تمامًا ومرت فترة لا بأس بها.

لقد مر شهران تقريبًا عندما حدثت الجريمة الثالثة.

أنت تعرف أن هناك جريمة ثالثة، وإلا لما حكيت لك هذه القصة أصلًا.

(٦)

يعرف علماء الجريمة عدة أنواع من القتلة: هناك قاتل الجموع (mass murderer) الذي ينقض على مدرسة أو حفل ليطلق السلاح الآلي ويردي عشرات من الأشخاص في وقت واحد في مكان واحد.. وهناك القاتل الذي يقتل على نوبات (spree murderer) أي أنه يقتل عدة أشخاص في وقت واحد في عدة أماكن.. وهناك القاتل التتابعي الذي يقتل شخصًا كلما مرت فترة زمنية معينة يشعر بعدها بالحاجة للقتل من جديد.

لا بد أن فترة شهرين كانت كافية كي يشعر هذا الرجل بظمأ جديد للجريمة.

وكنت في ذلك اليوم في الجريدة ألتهم شطيرة من الفول راحت تتساقط على المكتب، وكنت في ورطة فبحثت عن مناديل ورقية..

هنا دق جرس الهاتف.. أمسكت السماعة بيدي اليسرى وأنا أحاول أن أحمي ثيابي من الفول.. تبًا للزيت الحار هذا.

هنا سمعت صوتًا، يخيل إليّ أنه صار مألوفًا، يقول:

ـ هديتك في السلة أمام الجريدة.

صعد الفول والحمص كله إلى أعلى المريء، وشعرت بحريق في صدري.. سألته في لهفة وبصوت راجف:

ـ هلا أنهيت هذه اللعبة وقلت مَن أنت؟

ـ أنا لا ألعب.. مَن قال إنني ألعب؟

ـ تتصل بي وفي كل مرة...

ـ أنا لم أتصل بك من قبل.

ووضع السماعة.

جلست أرقب السماعة في توتر، ثم وضعت باقي الشطيرة في ورقة جريدة وتخلصت من هذا كله في القمامة، وهرعت إلى المصعد أهبط إلى الطابق الأرضي.. هناك كان صندوق القمامة الشهير، وهو صندوق عميق به كيس بلاستيكي أسود عملاق وله غطاء، يمكن أن تخفي فيه جثة فيل لو أردت.. فتحت الغطاء وعبثت وسط القمامة المقرفة وفضلات الأكل، فوجدت طردًا صغيرًا من الورق المقوى.. نفس الطرد المعتاد.

قلت لنفسي: لو حدثت جريمة قتل في شارع المشاط فأنا أمام فيلم رعب جيد.

هذه المرة لم أستطع الانتظار، ففتحت الطرد وأنا في الشارع..

لو احتجنا إلى خبير بصمات بعد هذا فلسوف يمكنهم حذف بصماتي أنا.

هنا اصطدمت يدي بطبق صغير.. طبق كالذي تضع فوقه قدح الشاي. هذا الطرد لا يحوي أي شيء سوى قدح.. هذا غريب.

عدت إلى مكتبي في الجريدة ورحت أواصل عملي وأنا أشعر بأن معدتي تتقلص جدًّا.. هذه ليست معدة بل هي وعاء حمض هيدروكلوريك مركز محفوظ في مختبر مدرسة ثانوية، ولم أشعر براحة إلا عندما دخلت الحمَّام وأفرغت كل شيء.

سوف تأتي المكالمة حالًا.. لا شك في هذا.

بعد ساعتين دق جرس الهاتف.. هذا عزت يخبرني أنهم ذاهبون إلى شارع المشاط.. هناك جريمة قتل.

قلت له وقلبي يتواثب:

ـ لقد صارت هذه عادة، ثلاث جرائم قتل في وقت قصير نسبيًّا، وكلها تحوي موضوع الطرد هذا.. أنا على حق دائمًا.

قال في نفاد صبر:

ـ قابلني هناك حالًا.

الجريمة هذه المرة كانت أكثر إحكامًا.

شاب يُدعى هشام في البيت رقم ٢٠ ويقيم في الدور الأرضي.. يبدو أن هناك من دق الباب فذهب ليفتح.. لم يجد أحدًا فخرج من الباب إلى الشارع ليرى أفضل.. لم ينظر إلى فوق.. ولم يتوقع أن يكون هناك من ينتظر على سطح البناية (لاحظ أن ارتفاعها طابقان) ليلقي من أعلى إصيص زهور ثقيلًا.. تصويب محكم وتوقيت دقيق، وقد هوى الإصيص في المكان المنتظر بالضبط.. رأس الفتى مهشم وقد تناثر الدم على الإفريز.

صدفة مؤسفة؟ للأسف لا.. لأن رجال الشرطة وجدوا باب السطح مفتوحًا حيث تسلل القاتل، ووجدوا المكان الذي رقد فيه على بطنه يراقب المدخل، ورأوا الحبل الذي يتدلى من أعلى وتتدلى منه قطعة حجر استخدمها في دق الباب وهو على السطح.

قال عزت وهو يفحص الجثة:

ـ برغم كل شيء، لا تنكر أن وضعنا صار أفضل.. هناك شيء يربط بين الجرائم الثلاث أو يربط بين هؤلاء الأشخاص.. سنكون يقظين والجريمة الثالثة ستكون أصعب وأصعب.

(٧)

القتلى:

طفل صغير.

فتاة مراهقة.

شاب.

وسائل القتل هي الخنق.. ضربة قوية على الرأس في حالتين.

كلهم من سكان شارع المشاط.

في كل الأحوال لا توجد استفادة واضحة.. لا يمكن تحديد هدف الجريمة، هذا قاتل فنان يمارس القتل للقتل كما أن الفن للفن (آرس جراتيا أرتيس).. لا يريد سوى الذعر والدم.. ليس هناك مكسب مادي من هذه العمليات.

في كل مرة هناك مكالمة هاتفية وهناك طرد يصلني في صندوق

القمامة.. كان هناك رباط حذاء، وكان هناك طبق شاي صغير، وكان هناك حزام جلدي.

ما معنى هذا؟

كنت جالسًا في مكتب عزت والدخان ينعقد في هواء الغرفة.. يمكنك أن ترى الأشباح تنتظر وتحملق فيك منتظرة ما ستقول، فإذا نهضت فرت منك مبتعدة.

قال عزت:

ـ النقطة الأكثر أهمية: لماذا أنت بالذات؟

هذه هي المشكلة: يحسبون أنني لست بالأهمية التي أراها في نفسي، لذا قلت بكبرياء:

ـ أنا صحفي حوادث مهم لو كنت قد لاحظت هذا.

ـ ليس هذا مبررًا.. نحن لسنا في الولايات المتحدة.. عدد الأميين عالٍ هنا والناس لا تهتم بالصحف.. لن تُحدث مقالتك ذعرًا عامًا أو تمنح القاتل شعورًا بالأهمية.

ابتلعت الإهانة في غيظ وواصلت التفكير، ثم سألته:

ـ لماذا شارع المشاط؟

تثاءب وفك ربطة عنقه وقال:

ـ طبعًا، لأن أهل الشارع آذوه نفسيًا في وقت ما.. أو هو يتصور أنه المهدي المنتظر وقد كلفته السماء بقتل سكان هذا الشارع بالذات.. يمكنك أن تكتب عدة قصص تتخيل فيها سبب اختيار الشارع، لكن الخيارات محدودة.

ـ وماذا يجمع بين الضحايا؟

ـ ربما كان الأمر عشوائيًا.

ـ لا أعتقد.. هناك نوع من التخطيط لا شك فيه.

ساد الصمت.. بعد قليل قال لي:

ـ أعتقد أننا سنراقب الشارع لفترة، وأنت سيكون عليك أن تخبرني بمجرد تلقي الهدية القادمة.

(٨)

الكلام سهل على كل حال.. يمكنك أن تكون حذرًا مفتوح العينين ليوم، يومين، أسبوع، شهر، لكن الزمن عدو الحذر.. بعد قليل تتعلم أنه لا شيء يحدث وتتراخى قبضتك ويتدلى جفناك وتتثاءب.

كانت هناك مراقبة على هاتف الجريدة استمرت ثلاثة أسابيع ثم توقفت.. عندما تكون سفاحًا يجب أن تتصل بانتظام حتى لا يملّك الجميع وينسوا أمرك.

هكذا كان هناك مخبران أو ثلاثة.. بعد قليل صارا يذهبان إلى مقهى بعيد لتدخين الشيشة.. بعد فترة لم يعد أحد يراقب الشارع.. بعد فترة نسي الكل القصة.

وكنت في مكتب الجريدة أكتب عن مشاجرة حدثت في شبرا بين تاجرين، وكانت عزة زميلة العمل تفرغ بعض الصور التي التقطتها بالكاميرا الرقمية.. هنا دق جرس الهاتف.

رفعت السماعة.. هنا جاء الصوت المألوف:

ـ هديتك في السلة أمام الجريدة.

هذه المرة لم أتردد ولم أطلب عون أحد.. اتصلت بعزت أخبره أن يرسل رجاله إلى شارع المشاط فورًا وأن يكثفوا الرقابة.

ـ على ماذا؟ الشارع طويل.

ـ لا بد من التواجد الأمني.. لا بد أن يعرف الجميع أن هناك تواجدًا أمنيًّا.. أرسلوا سيارتي شرطة تطلقان سرينة عالية.. ولتمضيا في الشارع عدة مرات.

ثم ابتلعت ريقي لاهثًا وأردفت:

ـ سوف أرى هديتي هذه المرة وأخبرك بها.

انطلقت إلى الخارج حيث صندوق القمامة.. الناس ينظرون إليَّ بشك وأنا أمد يدي في الصندوق في لهفة.. لا أبدو لهم جائعًا إلى هذا الحد.

وجدت الطرد اللعين فأخرجته، وفتحته حيث أنا.. يوم يقرر الرجل أن يرسل إليَّ قنبلة لن أنجو منها حتمًا.

هذه المرة لم تكن هناك هدية معينة.. كانت هناك صورة صغيرة من مجلة.. والصورة تمثل قطعة ياقوت كبيرة يبدو أنها كانت في إعلان عن صائغ باريسي مشهور.. مجلة خليجية على الأرجح.

دسست الصورة في جيبي وحملت الطرد الفارغ.

لقد حلل رجال الشرطة الطرود السابقة فلم يجدوا بصمات سوى بصماتي بطبيعة الحال.. لا يوجد أي شيء يدل على المرسل.. بالطبع لأنه وضع الطرد بنفسه ولم يرسله من مكتب بريد.

هرعت إلى الجريدة، فاتصلت بعزت أخبره بما وجدت:

ـ صورة ياقوتة.. لا توجد معلومات أخرى.. سلام.

وانطلقت إلى شارع المشاط بأسرع ما أمكنني.

شارع هادئ جميل.. بالفعل يحب المرء أن يعيش فيه وينعم بهذه السكينة التي تختلف تمامًا عن عالم القاهرة الصاخب المزعج الملوث بالعادم، لكن وغدًا ما قرر أن يفسد هذا كله.

منذ اللحظة الأولى أدركت أن رجال الشرطة قاموا بعمل ممتاز.. هناك عدة سيارات تجوب الشارع الهادئ الذي لم يعرف إلا الدراجات.. وهناك أكثر من رجل يقف.. رجال الشرطة بالثياب المدنية الفاضحة جدًّا، والتي تجعل أي أعمى يدرك أنهم رجال شرطة، هذه الأكتاف العريضة والشوارب الكثة والنظرات المخيفة.. لكن ليكن.. مهمتهم هي ترويع القاتل وليس خداعه.

كان عزت يقف هناك أمام بيت من طابقين.. وضحكت عندما رأيته ولوحت بذراعي، لكنه كان واجمًا فلم يكلف نفسه بهز رأسه.

عندها عرفت ما حدث.

لقد تأخرنا.. أو لعل القاتل أرسل الطرد بعد الجريمة وليس قبلها.

عندما هرعت إليه نظر إليَّ في حيرة وقال:

ـ تأخرنا.. امرأة في الثالثة والأربعين من عمرها.. هناك من تسلل إلى البيت وطعنها حتى الموت.. كانت وحدها لأن زوجها في العمل والأولاد في المدرسة.

ـ وهل حدث شيء؟

ـ لا شيء كالعادة.. لا سرقة.. لا اغتصاب.. لا خلافات معروفة.

هذه من جرائم المزاج لا أكثر.. قتل للتسلية.

كانت الإسعاف تعوي عواءها الكئيب الشبيه بالندابات الأجيرات، وهي تحاول أن تجد وقفة مناسبة تسمح بنقل الجثة.. ثم ظهر رجلان يحملان محفة عليها ملاءة ملوثة بالدم.

هنا لاحظت شيئًا تكرر في حوادث القتل السابقة.

هؤلاء القوم غير مهتمين.. لا توجد علامات لوعة من أي نوع.. كنا سنرى جارة باكية وجارة منهارة وأطفالًا فضوليين.. لكن هؤلاء القوم يتعاملون ببرود غير معتاد.

ملحوظة غريبة ومهمة لكن لا سبيل لنقلها لعزت.. سوف يسخر مني.

وقفت أنظر إلى مدخل البيت.. مدخل جميل تحيط به النباتات ويوحي بالسلام.. رقم البيت هو ٤٠.. هل يستخدم السفاح متوالية هندسية معينة للقتل؟

دعنا نتذكر.

أول بيت حدث فيه القتل رقمه هو... لا أذكر.

البيت الثاني رقمه ١٣.

البيت الثالث رقمه ٢٠.

هذا البيت رقمه ٤٠.

سألت عزت عن رقم أول بيت.. البيت الذي قُتل فيه الطفل خنقًا..

بدت عليه الدهشة ثم فتح مفكرته وراجعها.. قال لي:

ـ رقم ٣.

رحت أفكر في عمق.

وفجأة وصلت إلى الحل الصحيح.

الأمر واضح وليس معقدًا على الإطلاق.

(٩)

الأرانب الصغيرة أهم شيء في الكون، وبعدها فليذهب الكل إلى الجحيم.

عندما تراك الأرانب الصغيرة فإنها تتدافع نحو قدميك، وهي تحرك أنوفها بتلك الطريقة الساحرة.. أقدامها الصغيرة تدوس على أصابع قدميك برفق جميل، أما عندما يمسك الأرنب الصغير بأذنه ليمشط شعرها فهو يذكرك بحسناء تجدل ضفيرتها على النهر.. العيون الواسعة المفعمة براءة وتهيبًا.. كتل بيضاء تتواثب كأنها ندف قطن حي.

هكذا كانت لمياء تفكر وهي تقف في الحديقة الخلفية للبيت تلقي فتات الخبز للأرانب.. هي ليست حديقة بالضبط، بل هي أقرب إلى مسقط أو «سماوي» تم استغلاله للزراعة.. هناك شجيرتان صغيرتان وأسرة أرانب وأسرة دجاج.. هناك قط رمادي صغير يتمنى لو ظفر بشيء يومًا ما، لكن هذا مستحيل، لذا تعلَّم أن يحترم نفسه ويتعايش، كأنه زير نساء يتعامل مع زميلات عمل حسناوات ولا يريد أن يُطرد.

تفرغ من هذا ثم تتجه إلى مقدمة البيت التي تطل على شارع المشاط، حيث تجلس أمها هناك جوار سور الشرفة وقد وضعت عليه كوب الشاي بالنعناع.. أوراق خضراء ندية تطل وسط البخار.. وفي يدها طبق من الأرز تنقيه. هناك مشكلة بصرية لذا تجهد عينيها في النظر من تحت إطار النظارة.

بعد قليل يأتي القط ليثب إلى حاجز الشرفة ويجلس جوارها

ويقر.. هنا تتربع لمياء على الأرض جوار القدم المجعدة المليئة بالعروق، وتتأمل مسام الجلد في شغف وفضول.

كسول.. لا تعرف شيئًا عن العالم.. مفعمة بالجمال.. هادئة الطباع.. هذا هو مزيج الطباع الذي تتوقعه من فتاة نشأت في شارع المشاط.

كانت تسأل أمها في فضول:

- هل تسمعين عن حوادث القتل هذه؟

فتقول الأم في شرود:

- أسمع.

- كلها في شارع المشاط.. لقد مات أربعة.

تقول الأم:

- كلنا يعرف ذلك.. ونعرف أن القصة مستمرة.. سوف يموت آخرون.

- والسبب؟

- نحن لا نسأل أسئلة.. سوف تعرفين عندما تكبرين.

وتواصل الأم تنقية الأرز في هدوء تام، بينما لمياء تتأمل الشارع الهادئ من جديد متسائلة عن البيت القادم والضحية التالية.

(١٠)

كنت جالسًا في الجريدة أدخن وأرمق الفضاء من النافذة الضيقة.

هنا دق جرس الهاتف فرفعته في كسل.. جاء الصوت المميز يقول:

- هديتك في السلة أمام الجريدة.

بالطبع كان من المستحيل أن نراقب سلة المهملات للأبد أو نضع

كاميرا تراقبها.. ربما يصير هذا حتميًا فيما بعد.. أما الآن فعليّ أن أهرع للصندوق لأرى.. ليس لي من دور إلا التيقن من صحة نظريتي أو فسادها لا أكثر.. من الصعب أن أمنع جريمة القتل التالية.

هرعت خارج الجريدة وبحثت في صندوق القمامة.. خمس مرات في شارع المشاط.. هذا رقم مرتفع جدًا. السفاح الذي قرر أن واجبه إبادة سكان الشارع، وهم قوم مسالمون جدًا ينتظرون دورهم كالخراف في المذبح. هذا شعور قوي أشعر به كلما رأيت شارعهم.

في شارع المشاط لا توجد سياسة.. في شارع المشاط لا توجد دولة ولا حكومة.. في شارع المشاط لا توجد أوبئة.. إنه شارع غريب متفرد على هامش الوجود.. على هامش التجربة الإنسانية ذاتها. وعلى الأرجح سوف أبحث عن شخص يعرف تاريخ هذا الشارع.. مَن هو المشاط؟

كنت أفكر في هذا وأنا أعبث في صندوق القمامة.

أخيرًا أخرجت الطرد.. فتحته في لهفة كالعادة.

كان مبطنًا بورق الزبد الشفاف.. وقد التف حول حرف ذهبي صغير.. حرف «D».. يبدو أنه منزوع من قلادة ذهبية.. خفيف جدًا فلا أحسب أنه كلف صاحب الطرد الكثير من المال.

هرعت إلى داخل الجريدة وطلبت عزت.

جاء صوته المتململ شأن من أيقظته من نوم محبب.. فقلت في انتصار:

- شارع المشاط من جديد.

أطلق السباب على الفور:

ـ الله يخرب بيتك! ما الهدية هذه المرة؟

ـ حرف ذهبي.

ـ ومعنى هذا؟

ـ البيت الذي يحمل رقم ٥٠ طبعًا.

أطلق سبة أخرى وأدركت أنه يرتدي ثيابه والسماعة تحت ذقنه.. سوف يفتح أبواب الجحيم حالًا.

(١١)

في لحظة رائقة من التفكير، أدركت أن القاتل ينذرنا بجرائمه بطريقة مبتكرة، هي العناصر التي ترمز لانقضاء السنين.. أنت تعرف العيد البرونزي والعيد الماسي...إلخ.

عندما أرسل لنا حزامًا جلديًّا في طرد، ماتت الضحية في البيت رقم ٣.. العيد الثالث هو العيد الجلدي.

عندما أرسل لنا رباط حذاء كان يتحدث عن البيت رقم ١٣.

عندما أرسل لنا صورة ياقوتة كان يتحدث عن البيت رقم ٤٠.. العيد الأربعون هو العيد الياقوتي.

وعندما أرسل لنا طبقًا من الصيني في طرد كان يتكلم عن البيت رقم ٢٠.

اليوم هي قطعة من ذهب.. إذن هو يتحدث عن البيت رقم ٥٠.

هذا يسهل الأمور.. ليست كل الأرقام مرتبطة بعناصر.. هذا يعني أن البيت رقم ٢٣ مثلًا أو البيت رقم ٥١ آمنان تمامًا.. سوف يكون الخطر مقتصرًا على الرموز المعروفة.

هذا يسهل الأمور.. لكن السفاح يغش بشكل واضح.. صار يرسل إليَّ الطرد بعد الجريمة وليس قبلها.. هكذا لا يمنحنا فرصة الاستعداد.

النقطة الثانية هي الفهم.. لماذا يفعل ذلك ولِمَ اختار هذه الطريقة؟ لِمَ اختار شارع المشاط أصلًا؟ ولماذا ينذرني أنا؟

ألغاز لا نهاية لها.. وفي نفسي تلاعبت رغبة خبيثة كريهة: لا تدعه يتوقف الآن يا رب! لو توقف لمتنا والفضول يخنقنا لمعرفة المزيد.. فلتستمر الجرائم إلى أن يرتكب خطأ جسيمًا أو نصير نحن عباقرة ونعرف كل شيء.

كنت أفكر في هذا كله بينما السيارة تندفع نحو شارع المشاط.. السرينة تنطلق مولولة.. وعند مدخل الشارع أبطأ السائق السيارة ومضى بسرعة الرجل العادي نحو البيت الذي يحمل رقم ٥٠.

ترجلنا سريعًا وهرع عزت يدق الباب بقبضته كما يُرى في السينما.

قلت له في هدوء:

ـ لا تتحمس جدًّا.. أعتقد أننا جئنا بعد فوات الأوان كالعادة.

انفتح الباب.. هنا تراجعنا للخلف بسبب هذا الوجه الرقيق الذي تفتَّح في وجوهنا فجأة كزهرة.. فتاة شابة كانت ترمقنا في رعب، فشعرنا بأننا ألعن مجموعة من الأوغاد في التاريخ.. كيف تقع وجوهنا على هذه الشبكية الرقيقة؟

قال لها عزت بصوت مبحوح:

ـ نحن من الشرطة.. هل أمك هنا؟

استدارت للخلف وصاحت:

ـ ماما!

ومن مكان ما ظهر قط فضولي.. ثم ظهرت سيدة عجوز تمشي كالبطة بسبب الروماتيزم المفصلي، وترتدي قميص نوم باهتًا رثًا. كانت عيناها متسعتين في ذعر.. وتساءلت ورائحة البهارات تتصاعد منها:

ـ شرطة؟ لماذا؟

ابتلع عزت ريقه ثم قال:

ـ هل أفراد أسرتك بخير؟ كم عدد أفراد أسرتك؟

ـ أنا وابنتي فقط.

نظر إليَّ عزت نظرة ذات معنى: إما أنني أحمق وغبي، وإما أن الجريمة لم تقع بعد.. وهذا يعني أن استنتاجي كان ذا منفعة أكيدة. لم يمت أحد.

لا أتجاوز الحقيقة بكثير لو قلت إن هذا سبَّب لي خيبة أمل! أنا بشري، ومن طباع البشر أن أتمنى أن أكون حكيمًا ملهمًا.. لم يمت أحد.. إذن عليَّ أن أعيد حساباتي.

لكني لن أعيد حساباتي من البداية.. هناك نقطة مهمة هي أن هذه الرموز التي تصلني لها ارتباط قوي بالأرقام.. لها ارتباط بفكرة «اليوبيل».. حتى إنني قد أطلق على هذا السفاح اسم «قاتل اليوبيل». نفس الهواجس دارت في ذهن عزت.

صارحني بها وهو يتفقد الفناء الخلفي، والأرانب الصغيرة تتشمم حذاءه.. قال لي:

ـ كل شيء جاهز كي يصير اسم القاتل هو «قاتل اليوبيل» ونتحرك على هذا الأساس.. لكن الوغد مصمم على أن يحيِّرنا..

لو لم يرتكب جريمة هنا الآن فنحن نبني على تربة مخلخلة.

ثم اجتاز المنزل إلى الشرفة.. هناك كان ذلك المقعد من الخوص والذي يطل على الشرفة المنخفضة.. جلس عليه وأراح ظهره وتنهد وفرد ساقيه أمامه.. قال وهو يغمض عينيه:

ـ كمية سلام غير عادية في هذا الشارع.. آخر شارع تتوقع أن يمرح فيه سفاح.

ثم قطف بعض أوراق النعناع من نبتة جواره، وفرك الأوراق وتشممها ثم بدأ يلوك بعضها.. إنها غير نظيفة ملوثة بالغبار، لكننا كنا نعرف أن غبار هذا الشارع غير ملوث.. نفس المنطق الذي يجعلك تشرب قطرات المطر بلا تردد.

جاءت الفتاة الحسناء حاملة صحفة عليها عديد من أكواب الشاي الصغيرة أعدتها في المطبخ، وراحت تقدم لكل واحد منَّا، بينما كل واحد يشكرها ويطري جمالها بطريقته وثقافته: متشكرين يا عروسة.. تسلم إيدك يا شابة.. شربات فرحك يا رب...إلخ.

قدمت لنا كوبين، ثم مدت يدها ببساطة واقتطفت المزيد من الأوراق الخضراء ـ بلا غسيل ـ ووضعتها في كوبينا.. رفعت الكوب لأشرب وسألتها:

ـ ما اسمك؟

ـ لمياء.

ـ في أي مدرسة أو كلية أنت؟

ـ أنا أنهيت دراستي في كلية التجارة.

نظرت إليها مليًّا.. تبدو صغيرة جدًّا على أن تكون متخرجة.. بكل

فراسة لن تجد لها سنًّا أنسب من المدرسة الثانوية.. ومعنى هذا أنها في سن الخطبة.. هناك كثيرون سوف يفكرون في الأمر بلا شك.

جاءت أمها من مكان ما بالداخل.. منحنية تمشي كالبطة.. قالت لها:

ـ نحن بحاجة إلى بصل يا لمياء.. اذهبي إلى أم ميمي وخذي منها ستة أو سبعة رؤوس كبيرة.

كان الأمر واضحًا.. الأم تنوي أن تطهو لنا وجبة سريعة ما دمنا ننتظر.

قال عزت في أريحية:

ـ ما هو رقم البيت؟ سأرسل أحد رجالي.

احتجت العجوز.. بالطبع بدا غريبًا أن يذهب مخبر إلى جارتها لاقتراض البصل.. لكن عزت طمأنها:

ـ لا نستطيع المجازفة بأن تذهب الفتاة إلى أي مكان الآن.. إما أن يجلب رجلي البصل وإما أن تنسى الموضوع.. لا داعي للبصل أصلًا.

هكذا ذهب «بسطويسي ما» من رجال الشرطة إلى المنزل رقم ٥٥، فتحت له أم ميمي الباب وأصابها الهلع طبعًا.. احتاجت إلى فترة حتى تستوعب أن مخبر شرطة جاء ليقترض منها بصلًا.. دخلت البيت على حين وقف ابناها ينظران إلى المخبر في فضول.

بعد ثوانٍ سمع المخبر صرخة ذعر.. اندفع داخل البيت.. هناك في الكرار كانت الزوجة واقفة وقد غطت فمها وبدت في أسوأ حال ممكنة.. عند قدميها ووسط حزم البصل المتناثرة كانت جثة رجل قام أحدهم بتمزيق عنقه من الخلف.. هذا الرجل هو زوجها.

هكذا نسينا موضوع البصل والغداء، ونسينا كل شيء عن الأرانب.

انطلقنا نركض نحو ذلك البيت الهادئ الذي تحول إلى مسرح مذبحة.

رقم ٥٥.. ما معنى هذا؟

هل أصيب القاتل بالعجز عن العد أم أن قوانين اللعبة تغيرت؟

هناك وقفنا في بلاهة نرمق الجثة.. الجثة التي ذبحها أحدهم ولا نعرف مَن.. لقد صار شارع المشاط أخطر شارع في العالم.

سؤال آخر: هل أنا عبقري أم غبي آخر؟

مجرد عجزي عن الإجابة يعني أنني غبي.

(١٢)

فترة صاخبة أخرى من البحث.. تحقيقات.. أسئلة عن أعداء الرجل.

إنه مدرس جغرافيا.. هذا يعني أن لديه أعداء كثيرين، لكن ليس لدرجة قتله طبعًا.. أعداء مدرس الجغرافيا لن يساعدوه عندما يرونه وهو يُقتل، لكنهم لن يبدأوا بالقتل على ما أظن.

لا توجد بصمات على قطعة الذهب سوى بصماتي طبعًا.. لا توجد علامات على العلبة.. لقد صار الأمر معقدًا.

كنت جالسًا أدرس تفاصيل الموت.

هنا لاحظت وجود تطابق شبه تام بين سن الضحية ورقم المنزل.

حزام جلدي ثم قتل طفل في الثالثة. الفتاة المراهقة ورباط حذاء..

نحن نتحدث عن رقم ١٣.. بدا لي بديهيًا أنه المنزل رقم ١٣ بسبب عنوان الفيلم. الياقوتة.. ماتت بعدها امرأة في الثالثة والأربعين..

الحقيقة أن هذا لم يكن دقيقًا.. عندما راجعنا تاريخ الميلاد عرفنا أنها في الأربعين. عندما تلقينا الطبق الصيني كنا نتحدث عن شاب في العشرين.. لم نكن نعرف السن بدقة.

الجريمة الأخيرة. الزوج الميت في الخمسين.

هكذا تتضح الأمور أكثر.

ما زالت النظرية صحيحة وقابلة للاختبار.

اتصلت بعزت لأخبره:

- الرموز تدل على سن الضحية القادمة.. هذا أقرب إلى المنطق وفكرة اليوبيل.

قال محتجًا:

- لكن رقم البيت كان يتفق مع الرمز في كل مرة باستثناء الأخيرة.

- هذه دعابة قاسية منه على الأرجح.. عرف أننا سنفكر في رقم البيت بينما هو يفكر في السن.. اختار بيوتًا تحقق الخيارين معًا.. فكر في أننا سنبلع هذا الطعم.. وهذا على فكرة يعقد الأمور جدًا، لأن البحث عن البيت رقم ٢٥ سهل، أما حماية كل شاب في الخامسة والعشرين من عمره فأمر عسير.

كانت الأسئلة كثيرة.. وكنا على كل حال قد تجاوزنا ترف السؤال: مَن القاتل؟ صار هذا نوعًا من «الدلع» يبلغ مبلغ قلة الأدب والوقاحة.. نحن الآن نسأل أسئلة معقولة مثل:

لماذا هذا الشارع بالذات؟

لماذا يختار القتلى بطريقة اليوبيل؟

لماذا ينذرني أنا دون سواي؟ هل أحدث فارقًا سواء بجهلي أو بعلمي؟ سواء وصلت إلى السر أو لم أصل فالجريمة ستقع، فلماذا يتعب نفسه؟

لماذا يتعامل سكان الشارع بلامبالاة مع الأحداث؟

كنت أفكر في لمياء.. سكان هذا الشارع يخفون شيئًا ما.. ولمياء على الأرجح تعرف هذا السر، لكنها الأقرب إلى البوح به.. عرفت هذا من نظراتها.

سوف أحاول الاقتراب منها أكثر لأفهم.

(١٣)

أحلام كانت تموت فعلًا.. وقد أدركوا أنها حامل.. حامل وهي غير متزوجة.

كانت هذه هي اللحظة التي أدركوا فيها أن عليها أن ترحل.. أن تموت في مكان آخر.. لقد غيرت حياة الجميع وأفسدت كل شيء.. لم يعد أحد يتحملها ولا يتحمل نظراتها.

وكنت أنا في الصورة.. ربما كان حظًا حسنًا أو سيئًا.. لكنني اعتبرت أن الله تعالى أرسلني من أجلها.

هذه قصة أفضل أن أنساها على كل حال.. لا تسألني عنها ثانية من فضلك.

* * *

هكذا فتحت لمياء الباب ونظرت إليّ في دهشة وحيرة.. ابتسمت ملطفًا، ورفعت حاجبيّ بمعنى «أنا هو ذلك الرجل هل تذكرين؟»..

ثم تهلل وجهها قليلًا ودعتني للدخول.. لا بد أنها حسبتني من رجال الشرطة، فقلت لها بصوت خفيض:

- هناك أشياء أريد أن أسألك عنها.

قالت في ارتباك:

- تفضل واسأل.

بالطبع ليس هذا هو المكان ولا الزمان.. إن ما لديَّ حديث طويييل وأتوقع منها حديثًا أطول.. لو كان هناك شيء فعليها أن تخبرني به، وإن لم يكن هناك شيء فعليَّ أن أرهقها وأزعجها بالأسئلة إلى أن أؤمن أنها لا تعرف.

- أولًا كم سنك؟

- سني خمسة وعشرون عامًا.. وما زلت لا أفهم.

- هل يمكن أن نتكلم في مكان منفرد.. بعيدًا عن هنا؟

- لا.

قالتها في بساطة وبراءة ومن دون حدة أو غضب، كأنها تقرر حقيقة مطلقة.. وأدركت أنها بالتأكيد تحسبني أريد ما يريده أي شخص آخر يراها: الغزل.. أن أخبرها كم أنا مقروح الجفن مسهود، وأضحى التنائي بديلًا من تدانينا...إلخ.

الحقيقة أنني كنت أتمنى ذلك، لكن هذا ليس وقته كما ترى.. كنت بحاجة لها لأنني أرى أمامي جدارًا محكمًا شديد القوة والصلابة.. هناك جزء هش نوعًا أو هو أقرب للصلادة، وأنا أريد أن أطرق على هذا الجزء فقد أجد ثغرة.. لمياء هي الجزء الهش في الجدار أو هذا ما حسبته.

لم أتكلم.. لم أبحث عن كلمات.

فقط استدرت لأبتعد، وفي نفس اللحظة تقريبًا انغلق الباب بصرامة من خلفي.

(١٤)

قلت لك ألا تسألني ثانية عن أحلام.

أنا لا أمزح.. من السهل أن تثير غضبي فأكف عن سرد هذه القصة.. لقد أنذرتك من قبل...

أنا لا أذكر إن كانت أحلام أنثى أم لا.. أعني أنها كانت حاملًا وكانت تلفظ أنفاسها الأخيرة.. لا بد أنها كانت أنثى إذن، لكن لم أرَ فيها أي أنثى.. رأيت كيانًا سقيمًا شاحبًا وبين ساقيها كانت بركة من الدم تنزف، هناك إلى جانب الطريق كانت ملقاة.. ووقف عدد من عابري السبيل يخشون أن يساعدوها أو يمدوا لها يد العون.. بدت لهم مخيفة.. بدت هي الموت نفسه، ينتظر من يمد يده ليخطفه معه.

كان هذا هو الشارع الرئيسي.. لم أعرف وقتها أن هذه الفجوة بين بنايتين تقود لشارع المشاط.

لم أكن أصلًا أعرف أن هناك شارعًا بهذا الاسم.

وكانت سيارتي العتيقة من طراز ١١٠٠.. انحنيت وحملت الجسد المنهك النازف لأضعه في المقعد الخلفي، ونظرت إلى الناس في قرف: ماذا تخشون أيها المشؤومون؟ هل تتوقعون أن هذه الفتاة لص متنكر سوف يذبحكم؟ تبًّا لكم ولعدم مبالاتكم.

حتى قبل أن أبلغ المستشفى أدركت من منظر ساقيها أنها تلقت ركلات كثيرة جدًّا.

قصة واضحة: الحامل لا تتلقى ركلات إلا لو كانت حاملًا بشكل غير شرعي.. وبالتأكيد معظم هذه الركلات لنساء مسنات.. الرجال لا يملكون أبدًا الأعصاب الكافية لركل امرأة حامل.. النساء يستطعن.

مَن أنتِ؟

مَن أنتِ؟

عرفت من شفتيها الجافتين أن اسمها أحلام.. هذا كل شيء.

وعرفت أنها فقدت جنينها.

وما لم تقله هو أنها جاءت من شارع المشاط.. عبرت تلك الفجوة بين الجدارين لتصير في الشارع العمومي، ثم سقطت أرضًا.

ولكن...

قلت لك ألا تذكرني بهذه القصة.. انسها وانسَ أنني ذكرت شيئًا منها.

كما قلت لك، لم أستطع الوصول إلى شيء مع الفتاة لمياء.. لكي أعرف أي شيء فلا بد أن أنفرد بها.. بالطبع لن أستطيع معرفة أي شيء في وجود الغراب المسن أمها، لكنني على كل حال مسرور لأن الموت لم يحدث في بيتهم في المرة السابقة.. احتمال فقدها كان ٥٠٪ وهو احتمال مقلق لو كنت تفهم ما أعنيه.

واصلت الحياة بعيدًا عن شارع المشاط.. تصور هذا! هناك مشاجرات في السلخانة، وهناك سرقات سيارات، وهناك سطو مسلح، وهناك من يجدونهم قتلى في بيوتهم.. تصور هذا! هناك عالم كامل عملاق خارج شارع المشاط.. وهذا العالم قادر على جذبي داخله.

كنت غارقًا في هذه التفاصيل.. دعك من أنني أحب عزة زميلتي فعلًا.. أعتقد أنني سأخطبها عما قريب، لكن لنبقِ هذا سرًّا.. المشكلة هي أن لمياء تظهر كالشبح بيننا كلما دنوت منها.

دق جرس الهاتف فرفعت السماعة.

الصوت الذي عرفته جيدًا من مجرد الشهيق.. من مجرد التنفس.. يقول لي:

ـ هناك هدية لك في صندوق القـ...

لم أنتظر للفهم.. طبعًا لم يكن الهاتف مراقبًا.. هذا الوغد يتصل بشكل غير منتظم وعلى فترات متباعدة جدًّا.. وهكذا هرعت أركض في الشارع لأبحث في صندوق القمامة عن هديتي.

مزقت اللفافة بسرعة وفتشت فيها.

هذه المرة وجدت طبقًا صغيرًا بحجم طبق فنجان القهوة.. طبقًا من فضة.

حملت اللفافة مسرعًا عائدًا إلى المكتب.. وطلبت عزت.. ثم تذكرت.

الفضة.. خمسة وعشرون! يا للمصيبة! اليوبيل الفضي.. خمسة وعشرون عامًا.

عندما جاء صوته صحت في جنون:

ـ عزت.. سوف يقتلون لمياء! عمرها هو... تصرف من فضلك!

كان قلبي يتواثب حتى صرت واهنًا جدًّا.. لو جريت لفقدت وعيي وسقطت أرضًا.. لا بد من أحد يفعل لي هذا.

قال عزت مهدئًا:

ـ صبرًا.. لا بد أن الشارع يعج بمن هم في نفس السن.. لا يوجد دليل.

ـ هناك دليل.. أنا منحوس! بالتأكيد ستموت هي.

قال كأنه يكلم طفلًا:

ـ صبرًا.. الحقيقة هي أن لديَّ ستة رجال يحومون في هذا الشارع أو حوله.. سوف أرسل رجلين يراقبانها الآن.. لن يحدث لها شيء.

قلت وأنا أرتجف:

ـ على الأرجح سيكون كل شيء قد انتهى.. انتهى كما في كل مرة.

انفجر في غيظ:

ـ يمكن أن أنقذها لو كففت أنت عن تضييع وقتي والبكاء كالأطفال!

هكذا وضعت السماعة وأسرعت أضع سترتي وأدير محرك سيارتي قاصدًا شارع المشاط اللعين.. لقد تلفت أعصابي فعلًا.. سوف أتحاشى الرد على أي مكالمات في المرة القادمة.

ترى كيف ماتت؟ مشنوقة أم مذبوحة أم سقط شيء ثقيل على رأسها؟ سنعرف حالًا.

عندما وصلت عند المنزل رقم ٥٠ أدركت أن هناك مصيبة فعلًا.

كان عزت يقف مهمومًا أمام البيت ذي الأرانب.. وهناك رجلا شرطة يتكلمان وقد بدت الخطورة على وجهيهما.. ثم في الخلفية رأيت ما توقعته: السيدة العجوز.. الأم.. تبًّا!

من الواضح أنها قلقة ولا تفهم ما يحدث.

دنوت من عزت ولامست ذراعه.. نظر إليَّ في جدية ثم قال:

ـ الفتاة ليست هنا.. غادرت الدار منذ ساعة مع صديقة لها.. الرجال يبحثون.

ابتلعت ريقي.

لن تكون جولة هادئة إذن.. لا بد أن القاتل سينهي مهمته الآن مع مجيء رجال الشرطة.

هنا سمعت ضوضاء ورأيت ما أثار ذهولي...

المؤلف: والآن حان الوقت كي نتفرق.. لن نبقى جميعًا في مكان واحد. قد أقدِّم لك نهاية لا تروق لك، لذا أنصحك من اللحظة الأولى أن تختار النهاية التي تناسبك، وتريح نفسك من قراءة نهايات أخرى.. هذا ليس اختراعًا خاصًّا بي.. معظم قصص «إيلري كوين» البوليسية كانت تضم أكثر من نهاية.. لو كنت قد قرأت «جوهرة النجوم السبعة» ـ التي ترجمتها أنا منذ فترة ـ لرأيت أن «برام ستوكر» اختار لها نهاية كئيبة مخيفة، وبعد وفاته قام مؤلف آخر بكتابة نهاية باسمة، وأنت تختار النهاية الأنسب حسب مزاجك السوداوي.

- هناك قراء يحبون طراز قصص الفنديتا والمنتقم العائد.. أقترح أن يطالعوا النهاية «أ»: ساعة الانتقام.
- هناك قراء مولعون بالرعب والجو الشيطاني لذا أنصحهم بالنهاية «ب»: اليوبيل.
- هناك قراء يحبون النهايات المفتوحة المستفزة التي لا تقول شيئًا وتترك لخيالك الكثير.. أنا شخصيًّا من هذه الطائفة.. لذا أقترح النهاية «ج»: اللعبة.
- هناك قراء لا يحبون أي شيء أكتبه.. حسنٌ.. لا أعرف ما أقول لهم.

النهاية «أ»: ساعة الانتقام

عندما رأيت الموكب قادمًا من بعيد أدركت من يحيطون به.

كان رجلا شرطة يحملان ما بدا لي كجثة فتاة.. صرخت الأم في هلع وارتمت على ركبتها، لأن ساقيها لم تعودا قادرتين على حملها.

عندما دنوت أكثر رأيت الوجه الجميل نائمًا نومته الأخيرة.. وأدركت أن الرأس تهشم تمامًا.

كانت دموعي تسيل بلا توقف.. هذه المرة فقدت وقاري وانحنيت أطوقها بذراعي، وسمعت عزت يكرر السؤال:

ـ أين صديقتها؟

ـ كانت وحدها.

صاح في الأم بجنون:

ـ ما اسم صديقتها؟ أين تسكن؟

لم ترد المرأة.. كانت قد تحولت إلى نوع من النباتات العاجزة عن الكلام واتخاذ قرار.

لقد وجد رجال الشرطة الفتاة عند تلك الفتحة التي تقود إلى الشارع الخارجي.. يبدو أنها كانت تحاول العبور عند المنحدر وبائع الفول إياه. هناك كان القاتل ينتظرها ووجه لها ضربة عاتية على رأسها.. خمسة وعشرون عامًا انتهت في لحظة.

لقد فشلنا.. فشلنا مرارًا.. القاتل أقوى منا بمراحل.

(١٥)

كان هذا منتصف الليل وأنا في بيتي.. أحملق صامتًا في نار الموقد الذي وضعت عليه بعض الشاي.. لقد جف الشاي تمامًا لكنني صرت عاجزًا عن اتخاذ قرار.. لا أستطيع أن أطفئ النار.

دق جرس الباب فاتجهت لأفتحه متسائلًا عمن يكون هناك.

كان عزت يقف هناك.. بدا لي مهمومًا ومعه كل الحق في ذلك.

سمحت له بالدخول، ثم بحركات آلية أعدت ملء البراد لأعد له الشاي من جديد.

وقف على باب المطبخ يراقب ما أقوم به، ثم قال في حرج:

ـ أنت كنت تميل إليها.. أليس كذلك؟

هززت رأسي موافقًا أن بلى.. بعد صمت اتجه إلى شطيرة محشوة بالجبن الرومي على الموقد، وتناولها وقضم منها قضمة كبيرة.. سألته إن كان يريد أن يأكل فقال:

ـ لا.. لم أظفر بشيء من الطعام منذ الصباح.. قضيت معظم اليوم مع أم لمياء هذه.

نظرت إليه في حيرة، فقال:

ـ عرفت منها أشياء كثيرة.. عرفت أن أهل الشارع يعتقدون أن لعنة حلت بهم، بسبب سوء معاملتهم لفتاة حملت سفاحًا.. كانوا يكرهونها ويشعرون أنها ساحرة شريرة.. ثم اكتشفوا حملها فعاقبوها بشكل جماعي قاسٍ.. ضربوها بقسوة وألقوا بها خارج الشارع. أنت تعرف كيف تكون هاته النسوة ساديات قاسيات..

كان اسم الفتاة أحلام. هنا تذكرتُ شيئًا.. تذكرت قصة حكيت لي عنها عن فتاة أنقذتَها وأخذتَها إلى المستشفى لكنها ماتت في يوم عيد ميلادها.. كان اسمها أحلام.. أنت وجدتها قريبًا من الشارع، لكننا لم نعرف أي شيء عن كونها من شارع المشاط.

نظرت إليه في تحدٍّ وتساءلت:

ـ ماذا تريد قوله؟

ـ أعتقد أنك ارتبطت بهذه الفتاة «أحلام» جدًّا.. ولم تتحمل فكرة موتها بين ذراعيك. عندما ماتت.. حسنٌ.. لم يحدث شيء.. لكن هل تعرف أننا كنا نراقب هاتف الجريدة منذ فترة؟ لم يتصل بك أي شخص اليوم ولا أمس.. أعتقد أن أحدًا لم يتصل بك قطُّ!

ثم ابتسم في شيء من الشفقة وقال:

ـ هناك فتاة اتصلت بنا وقالت إن رجلًا دفع لها مالًا كي تذهب إلى بيت لمياء وتصحبها معها إلى نقطة عند نهاية الشارع.. رحلت بعدها فلم تعرف ما حدث، لكن الرجل الذي وصفته يشبهك كثيرًا.

بدأت أتراجع.. بالفعل أنا لا أفهم عن أي شيء يتحدث.. الشاي يواصل الغليان على الموقد.

ـ هناك شيء آخر.. في كل زيارة للشارع كنت تتعرف بالناس.. هذا معقول.. لكنك مهتم جدًّا بمعرفة سنهم.. هل تعرف سببًا لهذا؟

ثم أردف وهو يواصل المضغ، حتى شعرت بدهشة بسبب الحزن المرتسم على وجهه مع أنه مستمر في الأكل:

ـ هناك اثنان من رجالي رأياك في الشارع صباح الجريمة.. لم يبد

لهما هذا ذا أهمية.. أنت تتردد على لمياء منذ فترة.. لكنك لم تقل قطُّ إنك قابلتها يوم الحادث.

ـ لم ألقها.

ـ هذا أثار عدة أسئلة.. طلبت رأي طبيب نفساني.. هل تعلم ما قاله لي؟ قال إن هناك احتمالًا أنك عشت طفولة قاسية وكنت طفلًا منبوذًا.. مشهد موت الفتاة البريئة قد هز توازنك النفسي، وقد تمرد جزء من عقلك الباطن ليجعل منك قاتلًا.. قاتلًا ينتقم من سكان ذلك الشارع. هكذا كان القاتل يرسل إليك تلميحًا صعبًا من وقت لآخر.. طبعًا كنت تتخيل أن هناك اتصالًا تم بك.. يضع لك الهدية في الصندوق لتخمن وتحاول أن تمنع.. الفارق هنا هو أنك كنت تقتل أولًا ثم تهرع لتبعث بالإنذار لنفسك.. وكان الجزء الثاني منك يجري من الجريدة مذعورًا ويحذرنا وهو في هذا صادق.

كنت أرتجف بلا توقف.. هذا هراء.. كلام فارغ بالتأكيد.

لكن، في الوقت نفسه ثمة جزء من ذاتي يعرف أن هذا حقيقي.. حقيقي تمامًا.

قال عزت في أسى:

ـ أرجو أن ترتدي ثيابك وتأتي معي.. أنا آسف.. لو كنت بريئًا سيكون عليَّ أن أثبت هذا.

لم يكمل العبارة.. كنت قد تناولت براد الشاي وقذفته في وجهه.. سمعت الصرخة الشنيعة وهو يغطي ملامحه ويتلوى ألمًا.. كنت أنا قد فتحت باب الشقة واندفعت جريًا قبل أن أبدل ثيابي.

أحلام.. لمياء.. شارع المشاط.. الانتقام.. مَن أنا؟

أريد أن أنفرد بنفسي لأحاول الفهم.. ولكي أستطيع الفهم يجب أن أفر إلى مكان بعيد.. لا يجب أن أسمح لهم بالقبض عليَّ الآن.. ربما فيما بعد.

سامحني يا عزت.. أنت تعرف أنني لست على ما يُرام.

يجب أن أعود إلى شارع المشاط بحثًا عن إجابات.. يجب.

تمت

النهاية «ب»: اليوبيل

رأيتهم قادمين.

عرفت على الفور أن رجلي الشرطة يجران فتاة يلويان ذراعها خلف ظهرها وهي تبكي.. لمياء بالذات.. ومن خلفهما كانت فتاة أخرى منكوشة الشعر تتحسس حلقها وتتهانف.. صحت في عصبية محاولًا منعهما:

ـ صبرًا.. سوف تهشمان ذراعها!

أمرهما عزت بأن يخففا الوثاق. وهرعت الأم تصرخ وتولول فأمرها في خشونة أن تصمت.. استدار لرجليه فقال أولهما:

ـ كانت هناك عند نهاية الشارع بين الجدارين، وكانت تلف الإيشارب حول عنق صديقتها الأخرى.. أعتقد أننا جئنا في الوقت المناسب!

هل هذا صحيح؟ نظرة واحدة إلى وجه لمياء كانت كافية لتخبرك أن هذا صحيح.

ولكن كيف؟ لمياء استدرجت صديقتها لتخنقها.

لمياء هي القاتل.

كنت أنا في حالة مزرية من الحيرة والدهشة ولا أعرف كيف ولا متى وجدت أنني أنقض على لمياء لأضربها.. كنت غاضبًا وشعرت بالإهانة لأنني مخدوع، لكن رجال الشرطة أمسكوا بي فورًا، ورأيت عزت يغطي وجهه في إرهاق بكفه، ثم يقول لي وهو يلهث:

ـ أرى أن ترحل الآن.. أنت بالذات سوف تسبب مشاكل لو بقيت هنا.

ومن جديد لا أعرف كيف وجدت نفسي في سيارة شرطة تنهب الأرض لتعيدني إلى بيتي.. كانت في رأسي بؤرة مجانين.. لمياء هي القاتل؟ كيف؟ ولماذا؟ هل استطاعت هذه الرقيقة أن تقتل هذا العدد ومنهم رجال أقوياء وأطفال؟ وما دوري أنا؟

ارتميت في الفراش في شقتي بثيابي وحاولت النوم.

(١٥)

اتصل بي عزت وطلب أن ألحق به في مكتبه بمديرية الأمن حالًا.

لم أفهم ما يريد، لكنه طلب معتاد على كل حال.. صحفي الحوادث يذهب إلى مديرية الأمن أكثر مما يذهب إلى بيته.

بعد ساعة كنت هناك، ودخلت مكتبه، لأجد أن هناك اثنين معه، وكانت العجوز أم لمياء جالسة ترتجف، وأمام العجوز كانت فتاة نحيلة ضامرة لها وجه سقيم كئيب لم أرها من قبل.. والكل كان يبكي كأنه مهرجان للعويل.

قال عزت في لهجة انتصار:

ـ السيدة أم لمياء قد تكلمت.. خوفها على ابنتها جعلها تحطم جدارًا سميكًا.

نظرت إلى السيدة في عدم فهم، فأضاف عزت وهو يشير إلى الفتاة السقيمة:

ـ سامية.. من سكان شارع المشاط.. كانت لها أخت ربما سبق لك أن عرفتها.. اسمها أحلام.

سقط الاسم عليَّ كالصاعقة فانتفضت.. لو كان هذا فيلم سينما لسمعت صوت ضربة الوتريات الشهيرة.. ما معنى هذا؟ ما دور أحلام هنا؟

قال عزت:

ـ سامية رأت أختها تموت وأرادت أن تنتقم من الشارع كله.. كانت تعرف عنوانك وعملك وتعرف أنك حاولت إنقاذ أختها.. لذا بدأت ترسل إليك هذه الرموز لعلها تساعدك في الفهم.. كانت تتحدث بالرمز لأنها خافت أن تكون صريحة جدًا.

قلت معترضًا:

ـ لكن صوت المكالمـ...

ـ لا مشكلة في أن تجعل رجلًا يتكلم بدلًا منها طلبًا للتمويه.. طبعًا نفس الرجل في كل مرة.

ثم أشار إلى العجوز التي راحت تحملق فينا بعينين لا تريان تقريبًا، وقال:

ـ ما تحكيه أم لمياء يعود إلى زمن بعيد.. كل سكان شارع المشاط يعرفون أن التضحية الكبرى قادمة، والسبب هو أنهم يمتون لعقيدة قديمة.. ليس هذا دينًا سماويًا نعرفه.. إنهم يعتبرون أنفسهم خطاة.. منذ قرن ينتظرون هذه الأيام.. وعندما يلتقي الحكماء في بيت أحدهم ليلًا ينفخون في البوق المصنوع من قرن الخروف.. معنى قرن الخروف بالعبرية هو «اليوبيل»..

ـ سامية.. من سكان شارع المشاط.. كانت لها أخت ربما سبق لك أن عرفتها.. اسمها أحلام.

سقط الاسم عليَّ كالصاعقة فانتفضت.. لو كان هذا فيلم سينما لسمعت صوت ضربة الوتريات الشهيرة.. ما معنى هذا؟ ما دور أحلام هنا؟

قال عزت:

ـ سامية رأت أختها تموت وأرادت أن تنتقم من الشارع كله.. كانت تعرف عنوانك وعملك وتعرف أنك حاولت إنقاذ أختها.. لذا بدأت ترسل إليك هذه الرموز لعلها تساعدك في الفهم.. كانت تتحدث بالرمز لأنها خافت أن تكون صريحة جدًا.

قلت معترضًا:

ـ لكن صوت المكالمـ...

ـ لا مشكلة في أن تجعل رجلًا يتكلم بدلًا منها طلبًا للتمويه.. طبعًا نفس الرجل في كل مرة.

ثم أشار إلى العجوز التي راحت تحملق فينا بعينين لا تريان تقريبًا، وقال:

ـ ما تحكيه أم لمياء يعود إلى زمن بعيد.. كل سكان شارع المشاط يعرفون أن التضحية الكبرى قادمة، والسبب هو أنهم يمتون لعقيدة قديمة.. ليس هذا دينًا سماويًا نعرفه.. إنهم يعتبرون أنفسهم خطاة.. منذ قرن ينتظرون هذه الأيام.. وعندما يلتقي الحكماء في بيت أحدهم ليلًا ينفخون في البوق المصنوع من قرن الخروف.. معنى قرن الخروف بالعبرية هو «اليوبيل»..

كان العبرانيون يمارسون هذا في أسبوع الأسابيع كما يقولون.. واليوبيل هو الاحتفال.. وهكذا يختارون الضحية القادمة ويختارون قاتلها.. طبعًا لديهم قائمة بسن كل سكان الشارع.

نظرت إلى العجوز في ذهول.. لا أفهم.. القاتل هو...

قال عزت:

ـ القاتل هو كل أهل الشارع.. كل جريمة قتل كان لها قاتل مختلف من سكان الشارع.. يقتل صاحب الرقم المختار. معظم سكان الشارع لا يعرفون السر إلا وقت التنفيذ، وعندها يجد القاتل نفسه تحت تأثير المخدرات.. مع تهديد بنبذه وانتحاره اجتماعيًا.. هكذا بعد أيام من الضغط يفعلها. لمياء لم تكن تعرف أساطير الكبار ثم عرفتها.. وقضت أيامًا تجاهد نفسها إلى أن اقتنعت ونفذت.

ثم أشار إلى سامية وقال:

ـ واحدة فقط حاولت خرق صمت الشارع.. السبب أنها لم تغفر لهم قتل أختها.. القتل الذي لم يتلق أي واحد عقابًا عليه.

كانت الفكرة أقوى مني.

إذن سكان الشارع كانوا ينتظرون مصيرهم كالخراف.. كانوا يعرفون أن الذبح قادم لهم.. ولماذا؟ من أجل عقيدة لا نعرف عنها أي شيء.

لمياء كانت مرغمة على أن تقتل.. تقتل فتاة في الخامسة والعشرين من عمرها.. صديقتها ومن أترابها!

قال عزت وهو يشير إلى المخبر كي يأخذ العجوز:

ـ سوف يستغرق الأمر الكثير من العمل.. تحقيقات لا حصر

كان العبرانيون يمارسون هذا في أسبوع الأسابيع كما يقولون.. واليوبيل هو الاحتفال.. وهكذا يختارون الضحية القادمة ويختارون قاتلها.. طبعًا لديهم قائمة بسن كل سكان الشارع.

نظرت إلى العجوز في ذهول.. لا أفهم.. القاتل هو...

قال عزت:

ـ القاتل هو كل أهل الشارع.. كل جريمة قتل كان لها قاتل مختلف من سكان الشارع.. يقتل صاحب الرقم المختار. معظم سكان الشارع لا يعرفون السر إلا وقت التنفيذ، وعندها يجد القاتل نفسه تحت تأثير المخدرات.. مع تهديد بنبذه وانتحاره اجتماعيًا.. هكذا بعد أيام من الضغط يفعلها. لمياء لم تكن تعرف أساطير الكبار ثم عرفتها.. وقضت أيامًا تجاهد نفسها إلى أن اقتنعت ونفذت.

ثم أشار إلى سامية وقال:

ـ واحدة فقط حاولت خرق صمت الشارع.. السبب أنها لم تغفر لهم قتل أختها.. القتل الذي لم يتلق أي واحد عقابًا عليه.

كانت الفكرة أقوى مني.

إذن سكان الشارع كانوا ينتظرون مصيرهم كالخراف.. كانوا يعرفون أن الذبح قادم لهم.. ولماذا؟ من أجل عقيدة لا نعرف عنها أي شيء.

لمياء كانت مرغمة على أن تقتل.. تقتل فتاة في الخامسة والعشرين من عمرها.. صديقتها ومن أترابها!

قال عزت وهو يشير إلى المخبر كي يأخذ العجوز:

ـ سوف يستغرق الأمر الكثير من العمل.. تحقيقات لا حصر

لها.. لكننا سوف نصل إلى النتيجة.. أعتقد أن مشكلة شارع المشاط قد انتهت.

نظرت إلى سامية طويلًا.. بالفعل أرى ملامح أحلام.. أحلام البائسة التي حولوها إلى جسد دامٍ باكٍ على قارعة الطريق.. القساة!

قالت سامية بصوت مبحوح:

ـ أنا اعتبرتك أخًا لي برغم أنك لا تعرفني.

لم أرد وغادرت المكان مهمومًا.

(١٦)

جاءت المكالمة الهاتفية وأنا في الجريدة.. رفعت السماعة فسمعت ذلك الصوت المميز يقول:

ـ هديتك في سلة المهملات.

هل جُن الجميع؟ لقد انتهت القصة.. سامية كانت ترسل الطرود.. صحيح أنهم لم يقبضوا عليها لكن لا أعتقد أنها ستعود لتمارس عملها بهذه السرعة.

نزلت إلى الصندوق وبحثت.. أخرجت العلبة وفتحتها.. كانت تحوي قطعة من شعبة مرجانية جافة. نحن نتكلم عن المرجان إذن.. هل أبلغ عزت؟

عدت إلى مكتبي وجلست أرمق القطعة، مرت عزة جواري فقالت ضاحكة:

ـ كل عام وأنت بخير.. سوف يصير عمرك ستة وثلاثين عامًا بعد أسبوع! أردت أن أستبق الأحداث وأهنئك!

ابتسمت في عصبية.

مرجان.. خمسة وثلاثون.. هل هي صدفة؟ «أنا اعتبرتك أخًا لي برغم أنك لا تعرفني» هكذا قالت سامية.. هل يعني هذا شيئًا؟ هل يعني أنهم يعتبرونني من سكان شارع المشاط ويسري عليَّ ذات العهد؟

هذا احتمال خطر لو أردت رأيي.

سأظل قلقًا لفترة إلى أن أتخلص من عقدة الخمسة والثلاثين عامًا هذه.

أين ذهب الجميع؟ المكتب خالٍ.. هذا ليس معتادًا في هذه الساعة.. بيني وبينك أنا أشعر بقلق بالغ.. يجب أن أرحل بسرعة.

خمسة وثلاثون... مرجان.

شيء مقلق فعلًا.

تمت

النهاية «ج»: اللعبة

كانت لمياء قادمة مع رجلي الشرطة.

ممتقعة الوجه منكوشة الشعر، لكنها حية وسليمة.

لما رأتني هتفت في دهشة:

ـ ماذا هناك؟ لماذا يلاحقونني؟

برغمي ركضت نحوها وأمسكت بيدها.. قلت لها:

ـ كنت خائفًا.. حسبت أنك الضحية القادمة.

لم ترد، ونظرت إليَّ طويلًا.. كانت ترتجف كورقة.. ترتجف أكثر مما يمكن أن يفسره الذعر من شرطيين.. هل حدقتاها متسعتان أم أنني أتخيل؟ أطرقت إلى الأرض ورحت أنظر إلى قدميها.. للقدمين الصغيرتين كقدمي يمامة. عندما تكون قدما الفتاة رقيقتين كهاتين، فإنها تقابل عددًا هائلًا من الرجال الخجولين المطرقين لسبب لا أعرفه! غير أنني لم أكن أنظر إلى القدمين.. كنت أنظر إلى الحذاء الأسود، وأقسم أنني أرى عليه قطرات دم.

ابتلعت ريقي.. وحاولت أن أنسى.

بعد ساعة بالضبط جاء رجلا شرطة يخبراننا أن البيت رقم ٢٣ فيه مشكلة خطيرة.. هناك فتاة شابة مذبوحة. الفتاة في الخامسة والعشرين من عمرها، ويبدو أن الذبح تم من الخلف.. هناك من وقف خلفها ثم مرر النصل تحت ذقنها.

لا.. لا يوجد سلاح جريمة.. القاتل تخلص منه أو أخذه معه.

ابتلعت ريقي من جديد مع خواطري.. لن أندهش لو عرفت أن

القتيلة صديقة لمياء.. لم نعرف اسمها بعد، لكن لمياء سوف تكتشف الاسم وتصرخ.

(١٥)

كنا نمشي على كورنيش النيل، ونحن نعرق كوزي الذرة الساخنين. لمياء الجميلة التي تغلغلت في حياتي.. لا أريد شيئًا سوى أن أهجر العالم وأعيش معها في شارع المشاط للأبد. حكيت لها عن حياتي وعن وحدتي.. حكت لي عن... لا شيء.. هي لا تعرف شيئًا في العالم سوى أمها وقطتها والأرانب.

قلت لها إنني أريد الزواج منها.. أريد الحياة في شارع المشاط.. أريد أن أربي الأرانب معها ونجلس في العصر نراقب الشارع الهادئ.

قالت متحاشية النظر إليّ:

ـ للشارع سر.. سر مخيف.. صدقني لن تحب الحياة فيه.

سألتها:

ـ هذا يتعلق بجرائم القتل تلك؟

قالت وهي تقذف بقايا كوز الذرة:

ـ نعم.. لكن ليس الأمر كما تتخيل.. هناك قصة أعقد.

نظرت في عينيها بثبات، وسألت:

ـ أنت قتلت تلك الفتاة في اليوم الذي جئت لك ملهوفًا؟

لم تتكلم.. كأن كلماتي صفعتها.. لكن كلماتي كانت صادقة.. أعرف هذا.. هي لم تذبح أرنبًا قبل أن تأتي لتقابلني يومها لكن حذاءها كان ملوثًا بالدم.. لماذا كانت مذعورة؟

قالت بصوت كالفحيح:

ـ أنت تعرف أشياء كثيرة.. أنا أريد شيئًا واحدًا: أن تلحق بي في الشارع الليلة.. هناك أشياء لا بد أن تراها.

وعدتها بذلك وحددنا مكان اللقاء.

وعند منتصف الليل كانت واقفة في الظلام على بعد أمتار من بيتها. لما رأتني رفعت إصبعها لتسكتني ثم مضت مسرعة وأنا ألحق بها. رأيتها تدخل مدخلًا مظلمًا بين بيتين، ثم إننا وجدنا سور شرفة صغيرًا يطل على خرابة خلفية، فوثبت لتكون بالداخل.. لحقت بها وقلبي يتواثب.. لا أعتقد أنها ستقتلني، لكن لو فعلت فلن ألومها.. وقفت جوار باب شرفة موارب.. خلف الباب هناك غرفة واسعة مظلمة تنيرها بضع شموع.. دنوت منها وحبست أنفاسي.

أستطيع أن أرى داخل الغرفة خمسة أو ستة أشخاص ملتفين حول مائدة.

أسمع كلامًا غريبًا يقال.. ثم سمعت صوت رجل يقول:

ـ نفخنا في اليوبيل (قرن الخروف).. والآن فلتمد أختنا يدها في الجوال وتلتقط الوحي القادم.

ثم سمعت جلبة خافتة.. بعدها جاء الصوت يقول:

ـ العاج.. لقد تكلم «بعل».. سوف يكون العاج اختيارنا.

رفعت لمياء يدها من جديد تشير إليّ أننا سنعود.. ثم وثبت من جديد في خفة لتخرج من الشرفة، ولحقت بها في الظلام.. كانت تركض لاهثة متجهة نحو بيتها وأنا أركض خلفها.

وقفت تلتقط أنفاسها المتقطعة، ووضعت رأسها على كتفي وهمست:

ـ هل فهمت؟ هل فهمت؟

ـ هذه طقوس ما.

ـ هذه طقوس اختيار الضحية القادمة طبقًا لاختيار اليوبيل.. العاج.. سوف يبحثون عن ضحية في الرابعة عشرة من عمرها بين سكان الشارع.. هذا نوع من القربان يتم بصورة دورية.. لديهم تواريخ ميلاد كل سكان الشارع.. القاتل سيكون من أبناء الشارع.. لا نعرفه لأنهم سيكلفونه بالمهمة قبلها بيومين.. أنا مثلًا لم أكن أعرف أنني سأقتل ولم أكن أعرف موضوع اليوبيل هذا، ثم خضعت لضغط نفسي وعلاج بالعقاقير حتى صرت جاهزة.

ـ لكن لماذا؟

ـ لأن معظم سكان الشارع من عبدة «بعل» وهذا قربان قديم.

ـ هذا مخيف! معناه أن دورك آتٍ يومًا ما.. لا بد أن هناك أكثر من قطعة فضة عندهم.

ـ هذا وارد.. الآن تفهم.. لو جئت لتعيش معنا في الشارع فعليك أن تقبل المرور باللعبة.. كم عمرك؟

ـ خمسة وثلاثون.

ـ المرجان.. المرجان سوف يحدد مصيرك يومًا ما.

سألتها في حيرة:

ـ ولماذا تصلني هذه الطرود؟ ولماذا ينذرونني أنا بالذات؟

ـ أنت مددت يد العون قديمًا لفتاة من الشارع اسمها أحلام.. أعتقد أن واحدًا من أقارب أحلام أو إخوتها يحاول أن يوقف الجرائم ويرسل إليك تلميحات كي توقف هذه الجرائم.

كانت عيناها واسعتين خائفتين.

تذكرت شوارع القاهرة الكئيبة.. تذكرت الزحام والدخان.. تذكرت الجريدة.. تذكرت حياتي.

الحقيقة أنني أنتمي إلى شارع المشاط.. أنا من سكانه.

ربما أتلقى طردًا فيه قطعة من المرجان وربما لا.. هذه مقامرة لا تستحق أن أفقد لمياء خوفًا من خسرانها.. وبعد قليل سوف أفلت من قبضة المرجان.. سوف أتقدم في العمر وأدخل دائرة الياقوت.

ربما لا يصلني الطرد أبدًا.

ثم ما أروع هذه الإثارة! لعبة خطرة تشبه الروليت الروسي.. لن يكون هناك ملل في الحياة بعد هذا.. تصور أنك مهدد بالقتل في كل دورة جديدة.. وعندما تموت الضحية التالية تتذوق أنت الحياة كما لم تتذوقها من قبل.. حياتي قبل شارع المشاط كانت هباء فعلًا.

سوف أبقى.

ولثمت أنامل لمياء الرقيقة وهمست:

ـ هل أمك متيقظة في هذه الساعة المتأخرة؟

تمت

سوف نفتح هذه المجموعة القصصية ونحن مفعمون بالأسئلة، ونتركها مفعمين بالخوف:

ما مهنة ذلك الرجل الغامض في تلك المسابقة التلفزيونية؟ الموقع الغامض الذي يعرض على الناس منظر جثتك الممزقة. شارع المشاط الهادئ المسالم الذي يكتم سكانه سرا مرعبا. العلاج الشنيع الذي يقدمه الطبيب الأرمني والذي يعيد لك الحواس وربما الأطراف المبتورة. «زوزانكا» تحاول معرفة ما يوجد في قبو أسرة زوجها. الكائن القادم من جانب النجوم لينشر الهول في الأرض.

إنها رحلة طويلة مرهقة عبر سراديب الرعب وأقبيته، بينما صراخ الموتى يصم أذنيك.

أحمد خالد توفيق



